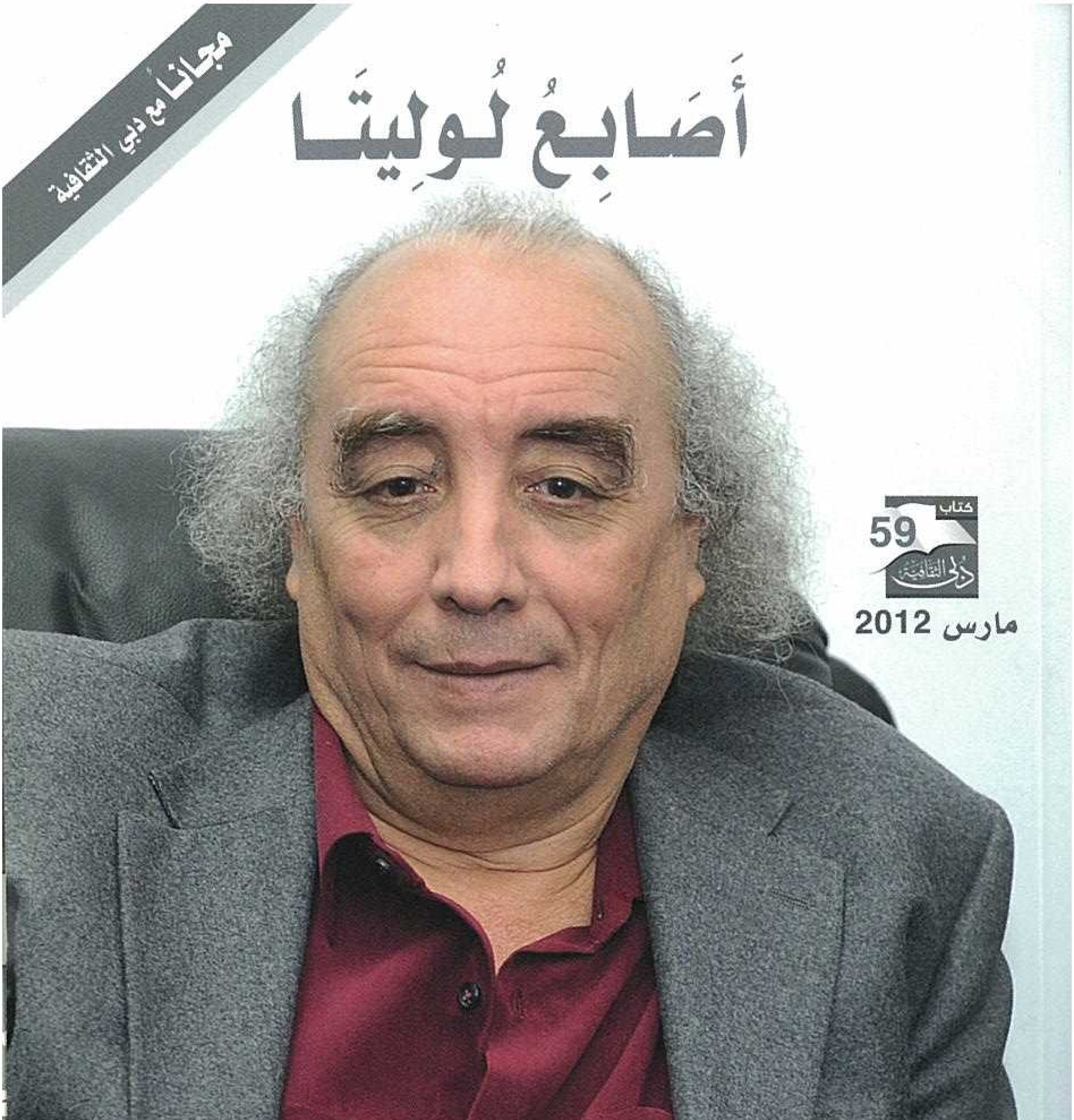
أَصَابِعُ لُولِيتَا



كتاب 59 دبي الثقافية

مارس 2012

رواية

واسيني الأعرج

كتاب
دبي الثقافية
يصدر عن مجلة دبي الثقافية
ويوزع مجاناً مع المجلة
الإصدار 59

رواية

أَصَابِعُ لُولِيتَا

واسيني الأعرج

■ الطبعة الأولى، مارس ٢٠١٢

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع

عناوين المجلة
www.alsada.ae
■ التحرير والادارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٩٧١٤/٣٤٢٢٢٢٤+
فاكس: ٩٧١٤/ ٣٤٢٢٩٢٩ ٣٤٢٢٦٦٦+
أبوظبي هاتف: ٩٧١٢/٦٢٦٨٨٩٢+
فاكس: ٩٧١٢/٦٢٦٨٨٨٣+
■ الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ٩٧١٤/٣٣١٤٣١٤+
فاكس: ٩٧١٤/٣٣٢٢٢٩٢+
■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٩٧١٤/ ٣٤٩٠١٠٠+
فاكس: ٩٧١٤/٣٤٩٠٦٠٠+

تقديم

بقلم: سيف المري

لعله من نافلة القول أن نشير إلى أن الروائي الجزائري الأستاذ واسيني الأعرج اسم غني عن التعريف، إذ هو كذلك، ولقد حرصت «دبي الثقافية» منذ صدورها، ولاتزال، على إثراء مادتها بالأسماء الكبيرة واللامعة؛ حرصاً منها على أن تحيط بالمشهد الثقافي بكل تجلياته ومختلف أطيافه، وتلك هي الوسيلة التي ضمنت للمجلة العدد الأكبر من القراء رغم حداثة سنها مقارنة بالعديد من المجلات الثقافية.

ولعل وجود قامة إبداعية بحجم الأستاذ واسيني الأعرج ومن في مستواه من الكتاب العرب ضمن كوكبة كتابها لهو خير دليل على نجاح المجلة، التي تتواصل معكم أيها القراء الأعزاء بصفة دائمة ومستمرة، ولكاتبنا الكبير سجل حافل بالمشاركات الإبداعية والثقافية والتعليمية سواءً لكونه بروفيسوراً جامعياً، أو لما خطته أنامله من أعمال روائية دخلت من «البوابة الزرقاء»

في دمشق عام ١٩٨٠، ثم نوار اللوز من بيروت عام ١٩٨٣، مروراً بأحلام مريم وضمير الغائب وانتهاء بأصابع لوليتا هذه الرواية التي بين أيديكم باعتبارها آخر ما أبدعه كاتبنا.

ولا تقتصر أعمال كاتبنا المميز على الأدب المقروء بل إن له مشاركاته في قطاع التلفزيون ولعل أهم ما أنتجه ذو صلة بطبيعة اهتماماته التي تنصب على الكتابة والكتاب والمؤلفين والنخب الثقافية في الجزائر، وقد امتد نشاطه إلى المسرح كما شارك بصفته عضواً في الهيئة الاستشارية لجائزة الشيخ زايد للكتاب منذ ٢٠٠٧ ولغاية ٢٠١٠، كل هذا السجل الحافل يدل دلالة واضحة على أن مجلة «دبي الثقافية» وهي تدرك دورها الثقافي فإنها تعول على أصحاب الأقلام المبدعة لحمل رسالتها إلى القراء والمثقفين العرب أينما كانوا، وإننا حين نختار كاتباً بعينه فإننا نراهن على رصيده لدى القراء بحجم رهاننا نفسه على العمل الذي يقدمه.

وفي الختام وباسم كل العاملين في «دبي الثقافية» يسعدنا أن نقدم لكم جديد الأستاذ واسيني الأعرج رواية أصابع لوليتا.

ودمتم.

فرادة خاصة في عالم الرواية

بقلم: نواف يونس

هو حقاً روائي من طراز خاص، يمتلك عالمه المفعم بالشاعرية القادرة على تصوير المتخيل المغموس بماء الواقع، الذي يعج بالتناقضات والتداخلات، في بناء درامي يقوم على المأزق الإنساني سواء في صراعه مع نفسه أو مع الآخر.

في «كتاب الأمير» وكان أول عمل روائي عن حياة الأمير عبدالقادر الجزائري، استند فيه إلى الوقائع التاريخية، ولكنه قدم لنا لوحة إنسانية يلونها حوار الحضارات والأديان، على الرغم من أن شخصية الأمير إشكالية حقاً. كما أنه في روايته «سيدة المقام» استشرف ما حدث بعد ذلك في المجتمع الجزائري، وأشار بدقة إلى حدوث انفجار قريب.

واسيني الأعرج يستخدم ويوظف كل الاتجاهات الفنية، من تيار الوعي إلى استدعاء الذاكرة والمونولوج الداخلي، ما يقوي دائماً الصراع بين الشخصيات، ويزيد الحبكة شدة ويكشف المسكوت عنه من عقد دفينة تسرطنت في نفوسنا ودواخلنا، وهو ما يضيف البعد الإنساني والقدرة على نقل المخيلة الإنسانية في لحظات حارة.

في روايته «أصابع لوليتا» وأنت تطالع صديقي القارئ، ستجد أنه يسرب سيرته الذاتية في طيات الأحداث والشخصيات، وهو أيضاً ما لمسناه في روايات «شرفات بحر الشمال» و«طوق الياسمين» وفي أغلب أعماله الروائية، وستجد أنه يجذبك منذ السطور الأولى، ويشدك من وجدانك وعقلك وإنسانيتك حتى السطر الأخير، لأنه يعيش المكان بتفاصيله ويسبر أغوار شخصياته من الداخل، ويكتب ويروي لك المشهد ببلاغة الصورة.

Rien n'est plus beau qu'un corps nu. Le plus beau vêtement du monde qui puisse habiller une femme c'est le bras de l'homme qu'elle aime; Mais pour celle qui n'ont pas eu la chance de trouver ce bonheur, je suis là[1].

Yves Saint Laurent

١ لا شيء أجمل من جسد عار. أجمل لباس في العالم يمكن أن ترتديه امرأة هو ذراع حبيبها. لكن بالنسبة للواتي لم يحالفهن هذا الحظ، فأنا هنا. إيف سان لوران

الآن، بعد أن خمدت كل تلك الحرائق التي التهمتْ بلا رحمة، الغيمة الأخيرة التي استمرتْ زمناً طويلاً تظللني، أستطيع أنْ أجمع عدتي من الأوراق والأقلام، وأقف على حافة السّاحل المهجور، أسترجع أنينها الخفي، ثم أبدأ السير وحيداً على سطح البحر، وأنا لا أدري إلى أيّ شوق سيقودني هذا الرحيل نحو عاصفة الكتابة، سوى أن الموجة اليتيمة التي تكوّنت لحظة دخولي وانفصلت عن البقية وعنّي، ستتضامن معي في بحثي عن ظل أبيض تماهى مع النور والماء، اسمه لو... لي...تا...

يونس مارينا

هَلْ تَدْري حَبيبي أنّي كلّما وضعتُ أصَابعي عَلى مَلاَمس البيَانُو أحسسْتُ بكَ هنا وسط مساحة من النور، واقفاً على حَافّة قَلب يرفض أن يستسلم للنّسيان، تنصت بإمْعَان لصَوْت في داخلي يُشْبهك لدرجة التَّماهي الغريب. أعْزفُ لا لأني أشْتَهي إغْواءك داخَل شُعْلة أصابعي فقط، ولكن لأنـي أخـاف صَمْتَ الحجارة ورعْشَة القُبور. رهَاني أيُّها الغَالي، أن أوقظك من غَفْوة التّيه لكي لا تنسى أنّي هنا، امرأة من حليب الغَيْم وهشاشة نظرة العاشقة. هنا دائما لتدرك أني مازلت حية، وأن أصابعي التي تحبّك لن تستأذن القتلة الذين سرقوا عذرية طفولتك، لكي تعزف نشيد الـروح. ما تخافش عمري، قـادرة على شْقَايَا، كما كانَتْ أمّي تقول.

لوليتا

الفصل الأول
خريف فرانكفورت

-١-

استنشق يونس مارينا رائحة العطر الهارب طويلاً، بعد أن أغمض عينيه. تمتم وهو يحاول أن يتفرس الوجوه التي كانت تذهب وتجيء في رتابة لا تنتهي:

- «.... لست باتيست غرونوي[٢]، ولكن هذا العطر ليس غريبا على حواسّي؟».

شعر فجأة بالدوار اللذيذ. التفت يميناً. شمالاً. وراءه. أمامه. ثم حاول جاهداً أن يركز بصره على الأفواج المتراصة من البشر، يقرأ ملامح بعضها وروائحها. لم ير شيئاً.

فتح حاسة شمه عن آخرها مرة أخرى. ضاعت منه التفاصيل. تأكد فقط من أنه ليس عطر إيفا.

- «.. لا ليس عطر إيفا.»

وقبل أن يعود من جديد إلى التوقيعات التي أنهكته، أغرقته إيفا وهي تميل نحوه بعطرها، وشلال شعرها الذي انسدل على وجهه:

- وااااو... أرأيت حبيبي؟ هل كنتَ تتوقع كل هذا العالم؟ يجب أن تكون أسعد مخلوق في الدنيا. أن تصحح على الأقل

---

٢ بطل رواية عِطْر، Baptiste Grenouille للكاتب الألماني باتريك سوسكيد، التي صدرت في سنة ١٩٨٥..

يقينياتك. الكتابة ليست ظالمة دائماً كما تقول؟ الدليل هذه الهزة الجميلة.

لم يرد. واصل توقيعاته متصيداً مصدر العطر. بينما عادت إيفا تتفحص بعينيها البحريتين الحادتين، أوراق عرش الشيطان، الرواية التي بدت لها معطرة برائحة الغموض وبعض الخوف. كانت مندهشة في السلسلة البشرية المكونة لطابور المنتظرين توقيع الكاتب، بلا ملل ولا قلق. عندما ترجمتها إلى الألمانية كانت تعرف بأن شيئاً ما سيصحبها، ولكنها، لم تكن تتخيَّل أن جمهوراً ألمانياً بامتياز سيقف في هذا البهو الواسع من أجل كتاب لا علاقة له به؟ كتاب نشأ في محرقة انتهى هو منها في القرون الوسطى، ودفع ثمنها غالياً مع محاكم التفتيش المقدس.

فجأة تحولت فرانكفورت، في ذلك المساء الملتبس في كل شيء، إلى حفنة مطر، وورق ملوّن وكتب وأغلفة مدهشة كأجنحة الفراشات. ضجيج في كل الأمكنة، ضحكات متقاطعة وهسهسات جانبية تشبه همسات العشاق في الزوايا المظللة. أوراق دعاية تحتل كل الأجنحة عن أحدث الكتب، تتنافس على جمهور ينتظر توقيع كاتبه قبل أن يخرج محتضناً فرحه إلى شارع ممطر ومدينة غارقة في سحر الضباب والماء.

الناس يأتون، ثم ينطفئون مثل الفقاقيع الملونة في عرض الحياة والمساحات الواسعة. وراء الطاولات المعروضة بسخاء، كُتَّاب كثيرون يوقعون كتبهم، بعضهم معروف، البعض الآخر يُكتشف للمرة الأولى. بعضهم متعود على المكان، يتحرك مثلما يتحرك ممثل محترف داخل ديكور محاط بالدهشة، وفئة ثانية لا يفصلها عن الجنون إلا مسافات قليلة. كل شيء يُجَرَّب من أجل إغواء قارئ سلاحه حاسة شمه الفنية وعيناه وأحاسيسه الخفية.

وضع يونس مارينا قلم الحبر الجميل باركر ديوفولد إنترناشونال[٣]، على الطاولة، ثم حرّك أصابعه في كل الاتجاهات ليريحها قليلاً. فرقعها. شعر بلذة غريبة. نظر إلى إيفا. كانت لا تزال منهمكة في قراءة رواية عرش الشيطان وكأنها تكتشفها للمرة الأولى. منحه عطرها الهادئ الذي تسرّب إلى أنفه، نوعاً من الراحة والطمأنينة. يدرك جيداً قوة هذا العطر عليه. قال لها ذات مرة مازحاً: عطرك هذا سيسرق مني عذريتي يوما ما؟ لم يكن بينهما أي شيء. ابتسمت وكأنها لم تُولِه أية أهمية، ولكنها ظلت في كل مرة تذكره بجملته التي ارتسمت في ذهنها مثل اللّمعة.

---

٣ Parker Duofold International.

أخذ قلمه من جديد ثم واصل توقيعاته.

لا يعلم السر المتخفّي الذي جعل روايته الأخيرة عرش الشيطان، بعد ثلاثية كتاب الحشرات: طنين الذبابة، حرقة الفراشة وذئاب العقيد، تنال كل هذا الاهتمام المتزايد. حتى روايته ذئاب العقيد، الجزء الأخير من ثلاثيته، الذي قذف به فجأة إلى ساحة الكبار التي لم يكن مهيّأً لها، لم ينل كل هذا الاهتمام. لم ير في عرش الشيطان أي استثناء ولا أي جهد خارق يضعه في أفق الدهشة. مجرد لحظة هاربة لاختراق سرّية القرآن اللذيذة، نص يحبه الملايين، ويخافه الملايين أيضاً . انزوى يومها، وعلى مدار ثلاث سنوات حتى كاد يغرق في بياض الورق وسحر المخطوطات العريقة؟ لا يأكل إلا قليلاً، ولا ينام إلا قليلاً، ولا يستحم إلا قليلاً أيضاً . ويكاد لا يتحدث مع الآخرين إلا نادراً. كان مستسلماً للعزلة وللذة الحروف المحروقة التي كانت تأتيه من مكان غامض وبعيد في كيانه، تخترقه الأناشيد المبهمة والصرخات المكتومة التي كثيراً ما تقذف به نحو أزمنة هلامية بعيدة. لقد اشتغل بلا توقف مثل الذي فتح ورشة خاصة، لا عمل له فيها إلا تعذيب الأبجدية مثلما يفعل الأركيويولوجيون والفيلولوجيون بحثاً عن سر مستعصٍ في عمق حرف، مفردة أو جملة. التقى

في رحلته المبهمة بالسيوطي، والطبري، ونولديكه، وغرق في مخطوطات صنعاء التي كادت تأكل رأس الدكتور جرهارد بويين[٤]، قبل أن يعيد تركيب كل شيء ويكتشف ما هزّ يقينه بعنف، متذكراً كلمات ابن مسعود المبهمة معلقاً على قرآن عثمان: لم أجد في هذا القرآن أشياء قالها الرسول، ووجدت في هذا القرآن أشياء لم يقلها الرسول. التجربة علمته أن كل نص يأتي حاملاً حياته وبذور موته ويقينه في داخله، ولا أحد يعرف السرّ. ربما كان الكاتب أقلّ الناس جميعاً معرفة. أوهامه العميقة تعميه أحياناً بحيث لا يرى ما يجب أن يُرى، ويرى ما لا تُوجب رؤيته.

لقد تكونت لديه القناعة القاطعة بأن الكتابة حالة من الدهشة، تشبه لحظة عبور الدرج الأول من الجنة أو جهنم، لا يهمّ، وجهد ظالم يسرق الحياة ويضعها بسخاء في أكف الآخرين بلا شروط، وأحياناً بسعر زهيد لا يتعدى سعر كتاب يقتنيه العابرون في إحدى المحطّات، أو أحد المطارات في لحظة انخطاف سريع لا يعرفون مصدره، قبل أن يستسلموا لعوالمه.

– «من أين تأتي كل هذه المازوشية القلقة، الشبيهة بألم أيوب؟»

---

٤ باحث ألماني في الإسلاميات، من جامعة لاسار la Sarre بألمانيا Le Dr Gerd R. Puin

لم يستطع يونس مارينا أن يكتم ابتسامته الجميلة التي التقطتها الشابة البشوشة التي كانت تواجهه وهو يوقع لها الرواية ظناً منها أنها لها. الصدفة. تمتم في أعماقه. وحدها الصدفة هي التي قادته نحو سفر أيوب[٥] وفتحت عينيه على الكثير من التفاصيل المبهمة فيه، وعلى سحر المازوشية الآتي من بعيد. تساءل لحظتها قبل أن يرتكن إلى إجابة، في حالة ارتباك كلّي: كيف يسمح الله للشيطان بأن يؤذي إنساناً خيراً فقط ليختبر قدرته على المقاومة؟ ثم يسمح له بالتحرك في الأرض بكل حرية، ويعطيه من سلطانه على الإنسان؟ وكيف على الإنسان الذي يتلقّى أقصى المحن والعقوبات المجانية بسبب أخطاء لم يرتكبها أبداً، أن لا ينكر الله، بل وأن يحبّه على الرغم من الظلم المسلط عليه، ويتلذذ بهذا الألم المقدس؟ لابد أن يكون شيء من المازوشية في كل الكائنات لتتقبل هذه الحالات بلذّة؟ ولماذا لا يكون ذلك سوى لحظة اختبار الإنسان، وتعليمه ما لم يعلم؟ الاختبار يرسخ المعرفة ويخرجها من السطحية. وربما كان ذلك كله مجرد استعارة للجم جبروت الإنسان الذي ينسى بسرعة أنه ذرة عائمة في الفراغ؟

تأكّد يونس مارينا يومها من أنّ في أعماق كل فنّان، شيئاً من حرقة أيّوب.

٥- كتاب أيوب أو سفر أيوب هو أحد أسفار التناخ والعهد القديم.

منذ صدور عرش الشيطان لم ينم ليلة واحدة بهدوء وسكينة مثل جميع البشر. لم تخفه التهديدات الغامضة، فقد تعود عليها ولم يعد أمامه الكثير مما يخسره، ولا حتى العمر الذي يخاف عليه، لكنه مسكون بذعر أن يخطئ المنعرج الحياتي الأخير الذي كان عليه أن يقطعه. المنعرج الأخير هو الحياة كلها، لأنه خاتمة المطاف. سدرة المنتهى. كلما رأى وجهه في المرآة الطويلة، شعر بالحاجة الماسة إلى أن لا يخيب ظنّ المرآة التي يرى وجهه فيها كل صباح منذ أن اشتراها من سوق العتيق، مع الطاولة القديمة التي تحتل جزءاً مهمّاً من المطبخ المتواضع. جيد أنه ليست للمرايا ذاكرة، تمتم، وإلا لتزاحمت الوجوه أمامنا ووراءنا ونحن نرى أنفسنا. كان مثل الذي على ظهر موجة، أحياناً يغرق نحو القاع حتى يكاد يختنق، وفي أحيان أخرى يصعد عالياً حتى يكفيه أن يمدّ يده قليلاً ليمس السماء أو أقرب غيمة، أو يقطف شيئاً من البروق العاصفة. شيء ما في رواية عرش الشيطان، يشبه هذا البرق المسروق الذي لم يقدر مخاطره الكبيرة. ترجمت إلى اللغة الإيطالية والألمانية؟ لماذا الإيطالية والألمانية تحديداً، وليس الفرنسية، البلد الذي يقيم فيه منذ أكثر من نصف قرن؟ لم يشغل نفسه بالأسئلة القلقة، لكنه وهو يتلمس النسخة الأولى من الكتاب، تمنى أن يعرف

سر حبّ الإيطاليين والألمان لجنون نشأ في شرق البارود والحروب والأديان المتقاتلة؟ ثم جاءت الترجمة إلى لغات كثيرة كان عليه أن يعود إلى خرائط غوغل ليحدّد شعوبها وأمكنتها وثقافتها.

في آخر حوار، عندما سئل في دير شبيغل عن سر النجاح أجاب ببلادة صبي: يحدث لنا أن نكتب، ولا نعرف شيئاً آخر غير ذلك. نظن أحياناً أن ما ألّفناه هو كتاب العمر، فنفاجأ بأنه مرّ بسلام ولم يثر حتى انتباه الصحافة الثانوية. ثم نكتب كمن يتسلى أو يلعب، تاركين الأبواب السرّية مفتوحة، ونظن أننا استدرجنا لحظة عابرة، وقدراً مجنوناً، لنقولهما ونمضي في الحياة، لكننا نفاجأ بالأيادي تمتد نحو الكتاب، والألسن تسأل عنه، والأجساد تتحمل طوابير البشر الواقفين، وروائح العرق والعطور المتفسخة من شدة الاحتكاك، فقط للحصول على نسخة منه. مع الزمن تأكد له أن المسألة ليست رهن الإرادة الفردية، هناك جوهر ينفلت من الكاتب ليستقر في النص ويصيب بعدواه كل من يلمسه مثل المرض الفتّاك. جدّة قال له ذلك في وقت مبكر عندما سرق كتباً ملوناً من «وِرَاقَةِ» المدينة. سأله لماذا فعلتَ ذلك يا بني؟ فأجابه بعفوية المُحْرَج: اشتهيت الألوان التي في الكتاب ولم أعرف كيف أحصل عليها

لأضعها في جيبي وأشمها كلما اشتقت لعطرها. ضحك الجد. يومها أدرك أن حفيده كان في ضفة أخرى. ضفة الذي أصيب بمس الألوان والحروف، فقال له: احذر، احذر كثيراً، لأن من يسرق كتاباً يُصاب بعدواه.

عندما رفع يونس مارينا رأسه، كان الطابور قد خفّ قليلاً ولم يبق إلا عدد ضئيل من الواقفين. فجأة شمّ من جديد العطر المدوّخ نفسه، تحسسه بعينيه، بحاسة شمّه التي جعلتها سنوات الخوف حادة جداً، وحتى برؤوس أصابعه المتعبة. لكل عطر سحر أنثاه، فوضاها وأناقتها. تعقّلها وجنونها. تأكد مرة أخرى أنه لم يكن عطر إيفا التي لم تستطع أن تخبئ فرحتها:

– سعيدة جداً من أجلك مارينا. حقك في الفرح بعد ليالي الظلم القاسية.

– بفضلك يا إيفا. كل هذا الجمهور الذي قضى يومه واقفاً من أجل كتاب، يدين لك بكل شيء.

حرك أصابعه قليلاً مرة أخرى. جال بنظره في المكان الذي بدأ يفرغ شيئاً فشيئاً، قبل أن يستقر من جديد على عيني إيفا ذات الأربعين شمساً. امرأة ناعمة وحساسة. عرش الشيطان، هي سادس رواية تترجمها له إلى الألمانية بعد كتاب الحشرات بأجزائه الثلاثة ورواية الحافة، إضافة إلى جراد الإمام. دقيقة

في كل شيء لدرجة الإرهـاق. لا تتوقف عن ترديد جملتها الدائمة: مـارينـا، يجب أن تـحذر مني حبيبي. لست جرمـانية في الفراغ؟ العمل عمل، ووقت الفوضى والـهبل لن أكون أقل جنونـاً منك...

لم يلحظ يونس مـارينـا الشمس التي بدأت تنسحب بسرعة من وراء البنايات العالية التي كانت تُظهر فرانكفورت من خلال زجاج المعرض السميك، مبللة ومعشقة بألوان الأنوار التي اشتعلت بقوة. لقد تآكل اليوم كله حتى دون أن يراه أو يحسّ بوجوده. عزاؤه الأوحد هو عدد النسخ التي بيعت. تشهد على ذلك أصابعه التي فقدت الإحساس الحي من كثرة الضغط عليها بالطريقة نفسها، حتى إنه في آخر اليوم خسر أناقة الإهداءات، إذ أصبحت كلها متشابهة، إلا عندما يفرض عليه وجه الشاب أو الشابة حضوره فيتأمل ملامحه الهاربة خجلاً، قبل أن يكتب الإهداء. يحب شيئين في التوقيع، فرصته الوحيدة التي ينسى فيها الحاسوب المحمول: القلم الأنيق ولهذا اختار الباركر، والحبر البنفسجي، الذي يجد أحياناً صعوبة كبيرة في إيجاده في السوق. في لونه ورائحته عبق الطفولة ودهشتها.

– أخيراً حان دَوْري يا مارينا؟

ثم وضعت بين يديه النسخة التي كانت قد غرقت فيها طوال فترة التّوقيعات.

– وماذا أكتب لأحلى امرأة وأرقّ ساحرة؟

– ما يملأ قلبك اللحظة.

وكأنها حررته فجأة من ثقل غريب، فانكفأ يكتب بلا أي تفكير، وكأن كلمات الإهداء كانت متخفية في جزئية سرية في أعماقه. كتبه بالفرنسية.

« A Toi Eva, amie des peines et des petits bonheurs. Juste un léger rappel sans intérêt: toutes les guerres réunies ne mettront jamais fin à l'amour. Peut être c'est notre plus belle revanche sur l'indicible et l'absurde des êtres[٦]. »

مرة أخرى أعاده العطر الهارب إلى حضوره ليتأكد للمرة الثالثة من أنه لم يكن عطر إيفا.

– «طيب من أين يأتي إذاً؟»

مسح بعينيه الزجاج السميك المطل على الحديقة الواسعة التي تقسم المعرض إلى جزأين. لم ير شيئاً سوى الأمطار الباردة التي كانت تملأ الساحات وتتكسر بقوة على الإسفلت، قبل أن تسيح وتضيع في شكل انزلاقات متتالية على سطح الزجاج، تعطيها الأضواء الليلية لمعاناً فسفورياً جميلاً.

---

٦ إليك إيفا، صديقة الهموم والسعادات الصغيرة، مجرد تذكير هامشي بلا جدوى: كل الحروب مجتمعة لن تستطيع أن تضع حداً للحب، ربما كان ذلك هو انتقامنا ضد الصمت وعبث المخلوقات.

هدأ كل شيء فجأة بعد أن انسحب ضجيج زوار المعرض. التفت يونس مارينا نحو إيفا مرة أخرى. أحست بظلّه. رفعت رأسها نحوه.

– هناك عدالة ما يفرضها نظام الطبيعة نفسه عندما يُصاب البشر بالجنون والعمى؟ عرش الشيطان التي تسببت لك في الخوف والذعر، ها هي ذي تمنحك فرحاً لم تتخيله أبداً.

– أفكر أحياناً إذا لم تكن الكتابة عبثاً مجنوناً؟ مقتنع تماماً بأن حياة الإنسان أجمل من أي نص في الدنيا نكتبه أو يكتبنا، لا يهمّ.

– غير صحيح. تقول هذا الكلام لأنك تخطّيت عتبة الهواية وأصبحتْ لك سمعة عالمية. لو لم تكن كذلك لحلمت يوماً أن ترى في حياتك شخصاً يقف عند قدميك فقط ليقول لك شكراً على كتابك. أو تفاجأ بشخص في آخر القطارات المسائية وهو يحمل كتابك لاختصار المسافة بين بيته ومكان عمله، فتقترب منه لتسأله: هل تعرف هذا الكاتب؟ ثم تتمادى في غيِّك منتشياً، وكأن الأمر لا يهمك.

– يحدث طبعاً. نحتاج إلى صدفة مدهشة غير محسوبة مطلقاً. كنت في رحلة بين كوبنهاجن وباريس. شابة لم أتأكد من جنسيتها الأوروبية، كانت تحضن بين يديها ذئاب العقيد، في إحدى طبعات الجيب. سألتها بالفعل: هل تعرفين الرجل؟

قالت لا. ثم أضافت دون أن أسالها: نادراً ما صادفت كاتباً في حياتي. صمتَتْ قليلاً ثم ضحكتْ: في أغلب الأوقات كتبهم أفضل منهم. سألتها: ما الذي يغريك في قراءة عالم بعيد عنك؟ عالم يموت عطشاً وبؤساً. غارق في الحروب الأهلية الطاحنة والانقلابات العسكرية العقيمة، لا شيء فيه يغري؟ مرة أخرى لم تستطع أن تكتم ضحكتها: قرأتَ الكتاب إذن؟ أجبْتُ: نعم. واصَلتْ بحماس وثقة: هل الحب والخوف والموت والحروب والمنافي، والتعصّب الديني ووو بعيدة عني؟ أجدها كلها في بلدي، بل في مدينتي، أكثر من ذلك، في بيتي وبين أفراد عائلتي؟ ليس هذا أول كتبه التي قرأتهُا. قرأتُ له أيضاً الجزأين الأولين من الثلاثية. الظلم موجود في كل الأرض. بل إن الأرض التي نعيش فيها شُيِّدت أصلاً على ذلك ولا نتعلم من دروسها إلاّ قليلاً. لا يكفي أن تكون مجروحاً وتفكر في الانتقام، لكن أن تفكر أيضاً في أن في الدنيا حياة تستحق أن تُعاش. تساءلتُ: ألستِ داخل مثالية مفرطة؟ أجابت بلا تردد: نعم. أحتاج إلى ذلك لأستمر في إنسانيتي. علينا أن نؤمن أولاً، وبعدها تأتي الأشياء من تلقاء نفسها، ربما بقليل أو بكثير من المقاومة، ولكنها في النهاية تأتي.

كل النسخ نفدَتْ. بينما بقي ثلاثة شباب متسمرين

ينتظرون الكتاب والتوقيع. دفنت العاملة التركية رأسها عميقاً في الكراتين، عثرت بالضبط على ثلاث نسخ وكأن قدراً غريباً وضعها في المكان، وربما في اللحظة التي شاءها. رأى يونس مارينا اللمعة التي ارتسمت في وجه اثنين منهما، بينما ظل الثالث واقفاً وراءهما ببرود، تليفونه في أذنه، وكأنه لم يكن موجوداً في المعرض إلا بالصدفة والفضول. كان يتحدث بصوت خافت وفي عينيه نوع من الإحراج مع محدثه.

عندما انتهى من توقيع النسختين للشاب وصديقته، تقدم الشاب الثالث بخطى وئيدة وثابتة نحوه، تقدم وفي أذنيه السماعتين. ودون مقدمات، سأله باستغراب:

– السيد مارينا، لماذا تكتب ضدّ الإسلام؟ ماذا سترب عندما تخسر ربك؟

ثم نزع السماعة اليمنى، وبقي محتفظاً بالثانية فقط.

– لن أربح أي شيء من وراء شتم أي دين كان، وليس الإسلام وحده.

كانت إيفا قد قامت من غفوتها وبدأت كعادتها تترجم من الألمانية إلى الفرنسية. سأله وكأنه قرأ الشيء المبهم الذي ارتسم في عمق عينيه:

– أنت قارئ وأنا غير منزعج من رأيك. لكن هل قرأتَ عرش

الشيطان، أو أي عمل آخر لي؟

- ذئاب العقيد. أعجبتني الرواية كثيراً على الرغم من أني لم أحب الصورة التي رسمتها للإمام المخبر.

- في رأيك، كل الأئمة كانوا ضد الانقلاب؟ هناك عملاء للنظام من كل الفئات.

- على كل ليس هذا غرضي. أتحدث عن عرش الشيطان. الاهتمام الألماني بها غير طبيعي.

- طيب ما الذي يزعجك في ذلك؟

- تريد الصراحة، النية المبيتة ضد الإسلام. لم أقرأ عرش الشيطان ولكني سمعتُ عنها الكثير. وقرأتُ تعليقات كثيرة في صحف ألمانية وتركية. كنت أنوي شراءها اليوم، لكن قوة ما منعتني من ذلك قبل لحظات. تذكرت كلام إمام مسجد دوسلدورف الذي أعطاها كمثال للتغريب والكفر بالقيم، وبيع النفس للشيطان الرجيم.

- بيع النفس للشيطان، أي شيطان؟ شوف يا ابني، أنت حرّ في معتقدك. الذي أعرفه هو أننا نذهب نحو كتاب لغرضين: فضول أو شهية. إذا لم توجد فيك لا هذه ولا تلك، الأحسن أن لا تتعب نفسك.

- وإذا توفر الاثنان معاً؟

شعر يونس مارينا بهزة من الإجابة التي لم ينتظرها.

– أنت من يختار الأنسب في النّهاية.

هزّ الشاب رأسه وهو ينظر إلى عيني إيفا، أنه فهم جيداً ترجمتها وتدخلاتها بالألمانية. تأمل النسخة الوحيدة التي ظلت لحظات بين يديه، قلّبها قليلاً. ورّقها بانفعال ظاهر، ثم وضعها بهدوء على طاولة التوقيعات، وانسحب منكس الرأس، دون أن يقول أية كلمة، ولكنه أرجع السماعة الثانية إلى أذنه اليمنى. كان يقطع بهو الكتب بحركية منفعلة. لم يلتفت. كان يهرول، ويهز رأسه من حين لآخر، كأنه كان يتحدث مع شخص آخر.

بقي يونس مارينا حائراً للحظات، قبل أن تأخذه إيفا من يده محاولة أن تنسيه الموضوع. هزّ رأسه وهو يبحث عن ابتسامة شاردة:

– ختامها ليس مسكاً أبداً. المهمّ...

– لا تهتم حبيبي. اليوم كان جميلاً وناجحاً. اعتبر ذلك من ضريبة النجاح.

– أية ضريبة يا إيفا؟ الجهل لا أكثر. العمى. كيف نقبل أن نحكم عل كتاب لم نقرأه؟

– أنت متعب. من الأحسن أن نعود إلى النزل. ألم تعدني ببيرة بيضاء؟

- معك حق. من الأفضل.

لم يكن نزل مارتيم[٧] بعيداً. ملتصق بالمعرض، ويشكل أحد أجنحته الحيوية. عندما بُني أُنجز ليكون ملحقاً بمساحات المعرض الضخمة، إذ يمكن الالتحاق بسهولة بكل الأجنحة من داخل النزل، عن طريق الأدراج الآلية.

مر أدامز، الوكيل الأدبي الذي ارتسمت على وجهه علامات الرضى، في لمح البرق، ليخبر يونس مارينا وإيفا عن برنامج الصبيحة:

- ممتاز. سعيد جداً. صاحبة الدار، مارتا، تقول إن نسخ السحب الأول والثاني والثالث، كلها نفدت وبدأت التفكير في طبعة الجيب الشعبية. الرواية وجدت جمهورها. أجمل انتقام ضد القتلة. غداً نوقع عقود الترجمة الدانمركية، والسويدية والنرويجية والهولندية واليابانية والصينية والعبرية. حصيلة ممتازة. ويمكنك أن تعود إلى باريس بعد الظهر. هناك رحلة بالقطار السريع ليلاً ما دمت ترفض السفر بالطائرة.

هز يونس مارينا رأسه ولم يرد. لم يدر من أين جاءه ذلك الإحساس الشبيه ببهلوان نيتشه. يقف على الحواف الخطيرة. يلعب. يتسلى كالقرد. يمتع المحيطين به. يستجيب لسوط مدربه ولصرخاته ويرتاح لقطعة الحلوى التي يضعها في

---

٧ Martim Hotel.

فمه في النهاية مكافأة له. لم يكتب لهذا؟ كان يريد فقط أن يقول حرائقه، وأن يلتقي ببعض قرائه الذين يسميهم أصدقاء الصدفة.

اقتسمت إيفا معه ما تبقى من قنينة شمبانيا الافتتاح التي جاءت بها مارتا صاحبة الدار، قبل أن تفرغ آخر القطرات في كأسه. ضحكت. لمع وجهها الطفولي تحت اللمبة التي كانت بالضبط فوق رأسها.

– لا مفر هذه المرة هههه. قاع الزجاجة؟ ستتزوج.

– سأكون محظوظاً بامرأة مثلك؟

– كذاب. كذاب محترف. هذا لا يشبهك في شيء. لقد قضيت عمراً تهرب من زواج محتمل، فلن تخضع له الآن. أصبحت أعرف كل أشكال «هبلك»؟

– الأشواق مثل الكتب يا إيفا، لا سلطان لنا عليها إلا سلطان نفسها وسلطان من يكتشفها.

أثاره من جديد العطر نفسه الذي كان يأتي من مكان ما من جوانب المعرض الذي بدأ يفرغ من زواره. رفع رأسه كالذئب وهو يتحسس المصدر الذي لم يكن بعيداً. أدار عينيه في كل الاتجاهات واستنفر كل حواسه كالحيوان البري ليتتبع أثر العطر الهارب.

فجأة خرجت من بين الجموع المتراصة التي كانت تتهيأ للخروج، وكأنها شخصية سينمائية، أو امرأة خرجت من بين أوراق كتاب مفقود. أغمض عينيه قليلاً ثم فتحهما. لم تكن تحمل في يدها سوى باقة بنفسج اختلطت رائحتها بعطرها. ظنها في البداية متجهة نحو شخص غيره، ولكن لم تكن وراءه إلا ستائر الدعاية لعرش الشيطان، التي خطت بالألمانية وبحروف بارزة.

كانت ابتسامتها مشرقة، ضحكتها مشعة بأسنان لا يوجد بها أي انكسار أو اعوجاج. كأنها خرجت للتو من مجلة يلمع بريقها من بعيد. عندما أصبحت ملتصقة بطاولة التوقيعات الخالية إلا منه ومن إيفا، وضعت الباقة على الطاولة ثم نظرت في عينيه بدهشة طفولية:

– هل تسمح سيد يونس مارينا؟

لم تنتظر إجابته. قبَّلت يده. وضعت الباقة فيها وهي تضحك. بينما ظل هو مندهشاً.

قال بخجل وتردد كبيرين:

– عفواً... كل الشكر... عفواً.

– تشكرني على ماذا؟ أتمنى أن أوفيك بعض حقك يوماً.

بقي لحظات طويلة متسمراً في مكانه، من دهشة ملامحها

المتقنة.

من أين خرجت؟ أي وجه؟ ملامح خطت بنعومة مدهشة وكأنها خرجت من لوحة استشراقية بألوان زيتية متهادية نحو النعومة والسكينة. عيناها تنغرسان بسرعة في الأشياء التي تحيط بها كأن زاوية نظرها مفتوحة على اتساع ١٨٠ درجة؟ أحس بأنه رآها قبل هذه اللحظة. أين؟ تساءل. مثل قطة لا تستقر على مكان، كلما سمعت صوتاً متأتياً من زاوية ما كأنها معنية به، تلتفت بسرعة قبل أن تعود لوضعها مع حركة آلية لشعرها الذي ينسدل على وجهها، فتسحبه قليلاً إلى الوراء. ضحكت. كان مندهشاً من غرابتها أو من الطفل المتخفي في عينيها.

فجأة شعر براحة غريبة. تأكد أخيراً من أن العطر الساحر الذي شمه في اللحظة الأولى من جلوسه في هذا المكان، كان منها ومن باقتها.

- اعذرني على هجومي عليك. أقسمت مع نفسي أن أقبِّل اليد التي كتبت عرش الشيطان، قرأتها في لغتها الأصلية، فقط لأقول لك شكراً على كل شيء. كعادتي مع كتبك، أشتري دائماً ترجمات لن أقرأها أبداً. لكني سعيدة هذه المرة أني التقيت بك على غير أرض الكتب، أرضنا المشتركة. قرأت عرش الشيطان،

وشعرت كأني كنت معنية بكل حرف خرج من الرواية.

- سعيد بك. فاجأتِني. كان يُفترض أن أكون أنا السبَّاق لتقبيل يدك.

ثم انحنى قليلاً وقبَّل ظاهر يدها اليمنى. شعر بنعومة أصابعها التي تشبه الحرير. رأى في عينيها بريقاً لا يحد من الجرأة والذكاء والرغبة في الحياة، ولكنه رأى أيضاً غيمة هاربة لم تدر أين تستقر.

- أصابع ناعمة وطويلة، عازفة بيانو؟

- غير محترفة. أعزف لنفسي ولمن أحب. كل رواياتك قرأتها، ولكني أشعر نحو هذه بالذات، بجاذبية خاصة، ربما لأن بطلتها امرأة قتلها حبها الحياة؟ ربما لأني مثلها ضحية القتلة الجدد؟ الدّين هكذا، عندما يفقد عفويته، يتحوّل إلى كراهية بغيضة بين الناس والمحيط.

لم تسحب يدها من يده وكأنها صديقة قديمة. شعر بإرباك شديد وبنعومة أصابعها الطفولية. الأصابع لغة قبل الكلام. قرأ هذا عند كاتبة صينية قديمة. تأمل عينيها ووجهها. تساءل في أعماقه من أين خرجت في آخر لحظة، وبهذه الكيفية غير المنتظرة؟ فهي لم تكن تشبه أي قارئ من قرائه، ولا أية قارئة من قارئاته؟ الأغرب من ذلك كله، شعر بشيء منه فيها؟

- عذراً، ولكنك مدهشة.

- هل يزعجك ذلك؟

- ؟؟؟ لا أبداً. هل لي أن أتعرف عليك؟

قالها قبل أن يشعر في أعماقه بسخف سؤاله. كان يجب أن يصمت ويكتفي بتأملها.

- تعرفني. تعرفني أنا متأكدة من ذلك. بل رأيتني من قبل، لكن غمرة النور لم تسمح لك بالتعرف على وجهي. لا تؤاخذني، «مهبولة شوية».

- لا، أبداً، سعيد جداً بك.

- يحدث معي أن أشتري طبعات كثيرة في لغات لا أعرفها، ولا أقرأها أبداً ولا أدري لماذا، ربما لأنها تظل تحفر بعطرها في بصري وحواسي، حتى تقربني من سحر ما؟ اشتريت مثلاً الطبعة الفنلندية والسويدية والإيرانية وأخيراً اقتنيت الترجمة الفرنسية، من روايتك «الحافة»، على الأقل لتبرير جهلي اللغات الأخرى. رواية مؤذية للحواس. أشعر كأن شيئاً بها شبيه للحقيقة التي في أعماقك.

- نكتب جزءاً من حياتنا مهما هربنا منها. هناك روايات نحبها رغم فشلها في السوق، وهناك روايات نكرهها رغم نجاحها. فقد عذبتني ولكني أحببتها رغم فشلها في السوق.

كنت سعيداً أني تحدثت عن اللذة والمتعة التي يجدها القاتل وهو يجهز على شخص لا يعرفه ولم يؤذه. أحسست بالمصدر الذي ظل يهددني على مدار السنة، ولكني لم آخذه بجدية. يخيفني الصمت أكثر من الضجيج. الأول خادع والثاني مفضوح، ولهذا نحتاط له قبل حدوثه.

كانت تنظر إلى عينيه بدهشة وهو يتحدث بشكل يكاد ينسى فيه أنه مع معجبة وليست مفكرة.

– على كل، أحياناً يهددونك ليرموك في عمق الرعب. متعتهم الكبيرة أن يفقدوك توازنك.

– لابد أن يكون ذعرك أكبر مع عرش الشيطان؟ قالوا إن الشيطان هو من أوحى لك بهذا النص، ههههه. قرأتُ هذا في إحدى الصحف الوطنية. قبل أن يُفتوا بقتلك، وجدوا شبهاً بينك وبين سلمان رشدي وابن المقفع. حتى إن بعضهم طالب باختطافك ووضعك على طاولة طويلة، وسحبك من رجليك حتى التمزق، مثلما كان يفعل ذلك السارق اليوناني، وبعدها شوْيِك مثل الخروف على مرأى من المؤمنين.

– الجهل أعمى.

قال يونس مارينا ببرودة ملأت عينيه.

– أنت لم تقل شيئاً سوى أنك رسمت ما يدور في رؤوس

ملايين الناس. أية جريمة ارتكبتها قبل أربعين سنة عندما كتبتَ مقالاً لم تكن تعرف مخاطره بعد انقلاب ٦٥؟ كنت شاباً وتظن أن الكلام والحقيقة أصدقاء، فوجدتَ نفسك في باخرة مليئة بالسلع والفئران، تقطع موانئ المتوسط ومساحات لا تنتهي من الخوف؟ هل كنتَ تعلم أن الكتابة ستوصلك إلى هذه الحالة؟ لو كنتَ تعلم، لما أقدمتَ على هذا الجنون؟ هل أنا مخطئة يا سيد مارينا؟

اهتز يونس مارينا في مكانه مرة أخرى، يريد فقط أن يتخطى عتبات الدهشة التي غرستها فيه هذه الشابة التي لو تزوج بشكل طبيعي لكانت هي أصغر بناته. من أين لها بكل هذه المعلومات؟ هذا السحر الغريب وهذه الجاذبية؟ تساءل في أعماقه.

- يبدو أنك تعرفين كل التَّفاصيل، وكل شرح هو عبارة عن حواشي لا روح ولا طعم لها.

- ليس سرّا. قرأت ذلك كله في الكثير من حواراتك. في الصحف والمجلات، والتلفزيون والإذاعة، في التويتر والفيسبوك. من نحبّ نصوصهم، نحبهم هم أيضاً لذواتهم. ولهذا نتقصى أخبارهم. هل أقول لك إنك وصلتَ إلى مرحلة دفع ثمن منفاك المزدوج: منفى البلاد ومنفى العباد؟ الغريب

أني كلما قرأتك شعرت بالرغبة في الحياة وعدم التَّسليم في حقي ولو بشبر واحد. أفهم إحساسك جيداً.

مع ذلك، لم يكن فيها شيء يوحي بأنها قادمة من الضفة الصحراوية من المتوسط. كانت معطرة وأنيقة كأنها خرجت من مجلة ملونة أو من كتاب جميل. منذ البداية شعر بأنها ليست شخصاً طارئاً كغيرها من القراء الذين يأتون، يعلنون دهشتهم، ثم ينسحبون نحو حياة قاسية تسحبهم دائماً نحوها، في سلسلة متواصلة الحلقات.

لم يمنع يونس مارينا نفسه من التساؤل الذي انتابه في لحظات هاربة وهو يكتشف اتساع عينيها، كأنه رآهما من قبل، في منعطف ما من منعطفات الحياة. ربما تكون قد مرت بسرعة بالقرب منها، ولم يأبه لها: في شارع من شوارع روما القديمة؟ في زاوية من زوايا الضواحي الباريسية، عندما سألته عن انسداد الطريق فنصحها بالعودة، لكنها ابتسمت وواصلت سيرها كأنها لم تسمعه؟ أو... تردد قليلاً... يمكن أن يكون قد لمحها في سهرة في لاسكالا[٨] أو أوبرا غارنييه[٩] وهو غارق في تفاصيل كارمينا بورانا[١٠] وفيها لأنها نست نفسها وهي

---

٨ La Scala.

٩ Opéra Garnier.

١٠ Carmina Burana (١٩٣٥-١٩٣٦).

مأخوذة بكارل أورف[11] في أشعار بورين[12] التي كانت تُنشد أغانيها الدنيوية بآلات ساحرة... كانت تتحدث مع صديقتها بحماس نادر وهي تروي لها أنها لم تشاهد إلا الجزء الأول من الثلاثية: الانتصار، آلام كارمينا وانتصار دي أفروديت، قبل أن تنتبه إلى أنها كانت ملتصقة به بقوة. أحلى وأجمل حركة في السيمفونية هي المجموعة الصوتية أو فورتونا[13] وهي أول وآخر حركة في العمل الموسيقي. توغل أكثر في افتراضاته واستيهاماته. رآها تنظر إليه وهي تعتذر عن أنها التصقت به كثيراً لأن الزحمة وراءها كانت كبيرة، كان هو منشغلاً باتساع عينيها وبإشراق ابتسامتها... أو ربما لا هذا ولا تلك، ولكنه بكل بساطة رآها أول مرة عند موقف الضوء الأحمر حينما نظرت باتجاهه وقبل أن يرفع رأسه نحوها ليحييها لأنها امرأة لا نراها كل يوم، كان الضوء الأخضر قد اشتعل فجأة ولم يمهلها شبابها أن تلتفت نحوه؟ لم يكن فيها شيء غريب عنه. من المؤكد أني رأيتها في مكان ما، تمتم يونس مارينا وهو يشعر بلذة غريبة؟ لم تكن الشابة غريبة عنه أبداً. فيها شيء من الألفة. هل يعيد عليها السؤال لتقليدي: هل التقيا من قبل؟ بدا له الأمر ساذجاً وسخيفاً مرة أخرى.

---

١١ Carl Orff (١٨٩٥–١٩٨٢)

١٢ Poèmes de Beuren.

١٣ O Fortuna.

أخذتْ النسخة الأخيرة الموضوعة على الطاولة التي أصبحت فارغة. ثم ألصقتها بصدرها كأنها خائفة من أن تسرق منها:

– هذه نسختي، وأنا هنا من أجلها. عرش الشطان لا تُقرأ، ولكن تُسكن.

سبقه لسانه.

– غريب؟ كل ما فيك يؤكد لي أننا التقينا في مكان ما ضاعت مني تفاصيله، وفي زمن ما لم أعد قادراً على لمسه. نظراتك؟ وجهك؟ حركاتك؟ كلماتك؟ أسئلتك؟ طفولتك التي تتراقص في عينيك؟

– ربما، لكني أعرفك جيداً، ربما أكثر مما تعرف نفسك.

قسماتها كانت بصفاء مدهش، وتناسق يجعل حتى كلامها ناعماً وجميلاً. في اللحظة التي سحب فيها قلم الباركر الجميل للتوقيع على الرواية وهو يتمتم ضاحكاً:

– غريب؟ كأن هذه النسخة كانت تنتظرك، كان يفترض أن يأخذها غيرك، تحسسها شاب ألماني من أصول تركية. سألني أسئلة دينية ثم تركها. تركها كأن يداً ضغطت عليه ليفعل ذلك وانسحب دون أن يلتفت وراءه كأنه ارتكب ذنباً. كان منشغلاً بسماعتيه والموسيقا، وأشياء أخرى مبهمة. وجهه كان أصفر

يشبه وجه مريض.

– كنت سأغضب منك لو سلمتها له. لا تصدق يا سيد يونس مارينا، إني جئت من باريس من أجلها.

– ظننت أنك جئتِ من أجلي؟ هههههه

قال ضاحكاً وهو يتخفى وراء إيفا التي لم تفهم الشيء الكثير.

– ما دام جاءت منك، فأنت المسؤول هههههه. أنا هنا من أجلك أيضاً. أشدّ ما أخشاه عليك هو أن لا تعرف كيف تتخلص مني مستقبلاً.

– من قال لك إني أرغب في التخلص منك؟

– سنرى. ربما لا تعرف ما يعنيه لي وجودك في هذه الحياة؟ كل ليلة تنقذني من موت حقيقي. أكون في حالة استعداد كلّي للانتحار، فتفاجئني كلماتك المخبوءة في أعماقي، ألتفت فأجدك ورائي بكل ألقك وجمالك وإصرارك على الحياة، تنبهني إلى أني نسيت قرطي في بيتك، أو قلمي، أو فولار، أو كوفيتي الفلسطينية، فتنسيني نهائياً فكرة الانتحار؟ رجل في غمرة الاندثار المأسوي، يموت كل صباح ومساء مئات المرات، ويصر مع ذلك على أن يمنحنا فرصاً جديدة للحياة مع كل إشراق شمس.

ارتبك يونس مارينا قليلاً من كلامها، بينما تراجعت هي قليلاً إلى الوراء محتضنة نسختها كما في المرة الأولى:

– أنا قلت لك إن هذه روايتي. تهمني كثيراً. ولأنها كذلك، أريد أن يكون إهدائي خاصاً، وأن لا تكتب عليها أي شيء كما تعودتَ أن تفعل مع الغرباء. أحتاج إلى قليل من الحميمية الخاصة بي.

خبأ دهشته بصعوبة عندما رآها تتشبث بالكتاب كمن يقبض على شيء يخاف أن يضيع منه. رأى أصابعها الناعمة الطويلة وهي تقبض على الرواية كما في المرة الأولى وهي تحتضن كفه وتقبل يده. الأصابع معبر نحو سر صاحبتها وسحرها.

– أفهم من هذا أنك لا تريدين أن أوقع لك الرواية؟

– لا. ليس الآن. وفي غير هذا المكان. ستوقعه لي في وقت غير هذا. ألا يقول التجار إن الزبون سيد؟ أنا سيدة الآن. أشعر أن هذه النسخة تشبهني. سأراك حتماً، وستوقعها لي عندما نلتقي مرة أخرى. تسمح لي بالانصراف؟

ثم التفتَتْ نحو إيفا:

– عذراً سيدتي، فقد سرقتُ من وقتكما الكثير.

ثم قبلت يده من جديد وانسحبت واضعة في كفه بطاقتها

الخاصة كما في الأفلام الرومانسية متشابهة الحبكة.

– دعها معك ربما احتجتَها عندما تعود إلى باريس.

فكر أن يسألها أكثر ولكنها بدت منشغلة بالمغادرة. التفتت نحوه للمرة الأخيرة:

– متى تعود إلى باريس؟

– غداً. بعد الظهر على أكثر تقدير إذا تركني وكيلي الأدبي.

– ممتاز، سنلتقي حتماً هناك.

رأى ابتسامتها الجميلة التي كشفت عن أسنان بيضاء ناصعة، مسطرة في استقامة مذهلة. تأمل بطاقتها المذهبة، لا اسم فيها سوى عنوان نزل باريسي.Mode de Paris 7 rue des loups. Cristal Hotel & Crown، ورقم تلفون ثابت خمن أنه رقم تلفون النزل. عندما قلب البطاقة، سبقته ابتسامته المعهودة إذ بدا له حسها الأدبي والإنساني جميل. شعر بملمس لغته، لكن الجملة لم تكن منتزعة من إحدى رواياته كما تصور: Puis-je faire de toi mon territoire et t'appartenir pour de bon[١٤]?

– جميل. شكراً.

– أنا في باريس لمدة أسبوع، اسأل عني في نزل كريستال

---

١٤ هل يمكنني أن أجعلك وطني وأنتمي إليك إلى الأبد؟

هوتيل. بعدها سأسافر إلى دبي، ولندن، وسيدني وبرلين، ونيويورك، وجاكرتا التي علي أن أتصالح معها، قصة طويلة. دعانا الأمير وحيد وابنه حميد خان لآخر تشكيلة حرير. رحلة قد تدوم مدة طويلة. نحو الشهر، ونختم الكل بطوكيو؟

– حتى أندونيسيا؟ كثير عليك؟

– لا نعرف عن هذا البلد الشيء الكثير مع أنه النموذج الإسلامي الأكثر نجاحاً. عرف كيف يزاوج بين الإسلام والحداثة. تخيل، في بلد أكثر من ثمانين بالمائة من سكانه مسلمون وخمسة بالمائة بروتستانت، وإثنان بالمائة هنود، وواحد بالمائة بوذيون، والباقي تسعة بالمائة يضم الأقليات اليهودية والأرثوذوكسية، وجدوا مسلكاً لوضع المواطنة في المقام الأول، حتى قبل الدين.

– ما علاقة ذلك بعملك؟

– يملكون أكثر المصانع تطوراً لصناعة الأقمشة الحريرية النادرة وغيرها. اشتغلت «موديليست» مع والدي في مؤسسة صغيرة في جاكرتا، كانت تسوق إلى العالم العربي والإسلامي ألبسة يحولها خياطو والدي إلى موديلات حجاب جميلة، بألوان زاهية. كنت عندما أرى ألوان المدينة المتحولة على أجساد النساء، أحس بأن يد والدي كانت كبيرة. فقد غير وجه

المدينة، من اللون الرمادي إلى اللون الزاهي. أما اليوم فكل شيء تغير، أنا أصبحت أسير مع مؤسستي الباريسية التي اكتشفت سوقاً كبيرة في أندونيسيا في الفاشن- إسلام، في محلات عرض واستعراض راقية مذهلة ومليئة بالألوان. تعودوا على وجودي في جاكرتا مرة في السنة على الأقل. أصبحت مثل طائرهم الخرافي غارودا[١٥].

فجأة رأى بريقاً من الذكاء شعَّ في عينيها. أراد أن يسألها عن تفاصيل أخرى ولكنه تراجع.

دفعت ثمن الكتاب ثم غادرت المكان بسرعة.

ظلّ هو مشدوداً إلى سؤاله الأول منذ أن رآها: أين رأيتها؟ لابد أني رأيتها في مكان ما، تمتم؟ ابنة صديقة ما تريد اختبار حواسي وذاكرتي؟ امرأة التقيت بها في معرض آخر؟ وجه من وجوه الفيسبوك التي تطل عليه من حين لآخر كلما حاول أن يدخل عالماً وجد نفسه فيه بسبب إحدى صديقاته التي ورطته فيه؟ ليس وجهها؟ أغلب وجوه الفيس بوك النسائية، العربية وجوه مستعارة مما يسمح لها بقول كل الجنون الذي في أعماقها، نادرة هي الوجوه الحقيقية.

قبل أن تنغمس في أمواج البشر المغادرين للمعرض، التفتت

---

١٥ Garuda.

نحوه للمرة الأخيرة، كأنها فعلت ذلك عمداً ليحتفظ نهائياً بكل قسماتها وابتسامتها الهاربة وملامحها الهادئة، ثم انطفأت نهائياً من المشهد.

أعاد النظر في البطاقة التي كانت لا تزال في يده: شارع الذئاب؟ لمعت فجأة في ذهنه وبشكل حاد، قسماتها الطفولية العنيدة. قبل أن يفاجئه صوت اخترق كل الحواجز الورقية في شكل همسات متقطعة ولكنها كانت شديدة الوضوح: التفتنا نحو بعضنا بعضاً في الثانية نفسها. توقفتْ، فتقدمت نحوها. قامتها لا تتجاوز صدري. أدهشتني بطول حاجبيها وطفولة ملامحها[١٦]...

صرخ بجنون أرخميدي[١٧]: عرفتها... عرفتها... واوووو هي... لوليتا... هي... لا أحد غيرها... لوليتا.

اندهش من اندفاعه الغريب الذي يحدث له للمرة الأولى. تحسس حيرته وهو يحاول أن يفهم ما حدث له:

– «أليس غريباً أن تلتقي بامرأة تخرج أمامك من كتاب قرأته منذ ثلاثين سنة والتصق بذاكرتك كعقرب الصخور البحري؟ تقف أمامك خارجة من رحم اللغة، رامية عرض الحائط بكل الأغلفة والأغطية التي كانت تحبسها وراء قوقعة

---

١٦ Vladimir Nabokov: Lolita. Gallimard p:35.
١٧ Archimédien.

صلبة، وتتحول إلى كائن بشري من لحم ودم. هي لوليتا، بعدما خرجت من مراهقتها بسلسلة من الصدف المجنونة.»

أصبح متأكداً من أن لقاءهما الأول، وربما الأخير، كان في كتاب نابوكوف. كانت صغيرة عندما صادفها لأول مرة مسجونة بين الكلمات والورق. لم تكن قد تخطت بعد عتبات الطفولة. عمرها لم يتجاوز الثلاث عشرة سنة. لكنها كانت أكبر من سنها. «كمشة» من البارود. بدا له كأنه ناداها، ولكنها لم ترد على صرخته المكتومة والخجولة. حتى عندما رفع صوته للمرة الثانية والأخيرة، مقطعا اسمها مثلما كان يفعل عشيقها وزوج أمها: همبر همبر، لم تردّ:

– لو... لي... تا....... لو... لي.... تا....

لم تلتفت صوب الصوت، ولكنها غرقت حتى انتفت وسط الجموع البشرية المتزاحمة نحو بوابات الخروج. لكن الكثير من الزوار استغربوا صرخته التي رنت في آذانهم بقوة مرتين متتاليتين قبل أن تذوب وسط صفارات المغادرة التي ترددت أصداؤها في كل زوايا الصالون الذي بدأ يفرغ من زواره.

توقف فجأة كمن يكتشف متأخراً سر حماقته الكبيرة. شعر بأنه كان يصرخ في الفراغ، وراء امرأة ورقية بلا جسد ولا هوية، تنام بين مئات الجمل المشحونة، وآلاف التراكيب

الجديدة والقديمة، وملايين الحروف المتعانقة والمتنافرة، ومليارات المقاطع الصوتية التي يحدثها تطاحن الحروف فيما بينها وهي تلتصق مع بعض وتلتحم في الكلمة الواحدة، قبل أن تنفجر مترامية مثل انفجار شمسي في كل الأمكنة.

– «مجرد وهم جميل يظهر في الوقت الذي يشاء، ويختفي لحظة يريد.»

هز رأسه. أحس بنفسه في دائرة الخبل والجنون. تذكر جملة هاربة من إحدى رواياته القديمة التي ضاع منه عنوانها: الأدب الجميل مثل الحب الخاسر، لا يسعد فقط، ولكنه يجنّن صاحبه ومتلقيه، أحياناً.

حتى عطرها انسحب نهائياً. عبثاً تابعها بعيني طفل يتيم. كانت قد ضاعت نهائياً في عمق الحركة. ربما عادت إلى وضعها الأول الذي جاءت منه: امرأة الكتاب ليس إلا. لوليتا نابوكوف.

-٢-

عندما فتح عينيه للمرة الأخيرة، في بار مارتيم[١٨]، وجد أمامه إيفا، متسمرة في مكان كتمثال يوناني قديم، تنظر إلى وجهه الذي ملأته سعادة فجائية تشبه سعادة الفراشة الغارقة في الألوان المبهمة. توغلت في عمق عينيه بنظرتها الزرقاء الصافية التي لا تخطئ في افتراضاتها. ثم أحنت رأسها فغطى شعرها الجميل وجهها بكامله، كأنها لم تكن معنية بما كان يدور حولها من قصص. حتى كأس الروم التي شربها في بار مارتيم مع إيفا، لم تفعل شيئاً سوى أنها أشعلت بسرعة داخله، فأيقظت كل حواسه من جديد. لم يعرف ماذا حصل له؟

عندما التفت نحو إيفا من جديد، كان المطر الدافئ يهطل من عينيها مع أسئلة تشبه الفراشات الليلية التي تلتصق بزجاج القناديل المشتعلة. كانت بجانبه، لكنها كانت بعيدة.

لو... لي... تا...

لوليتا؟ ما الذي دفع به إلى أن يناديها بذلك الاسم وهو لا يعرف اسمها الحقيقي؟ ما الشبه الغامض بينها وبين لوليتا؟ عطرها المجنون الذي دوّخه حتى قبل أن تدخل؟ فوضاها

---

١٨ Martim hotel.

59
الإصدار «٥٩» مارس ٢٠١٢

الطفولية؟ سحرها الغريب؟ نظراتها الصافية الخجولة والشيطانية في الآن نفسه؟ أحدثت فيه فجوة لا يعرف إذا كانت مصدراً للسعادة أم للألم كما تعودت دائماً؟ حاول أن يمحوها من مخيلته، أن يطردها كما يفعل كاهن مع جسد سكنه الشر، لكنه لم يفلح. كأنه دخل في كماشة كانت أكبر منه.

لم يذب حضور لوليتا مع الكأس الأولى من البيرة البيضاء، ولا مع الروم، ولا حتى مع الويسكي دوبل، ولكنه شعر بمغص يشبه التمزقات الداخلية.

كانت إيفا هادئة. تنظر إليه بعينين غارقتين في المبهم. لم يفهم ما الذي حدث لهما فجأة؟ قبل لحظات كانا يتصيدان الفرص ويبحثان عن أجمل حيلة تنتهي بهما في سرير واحد كالعادة. يوجد شيء طفولي في علاقتهما يستيقظ كلما التقيا. يشتهيها أحياناً بجنون، لكنه لم يتجرأ مرة واحدة على أن يقول لها ذلك إلا عندما تقودهما سكرة نحو دفء جميل، وقتها ينفلت منه بركانه الملتبس من الكلمات والصور المعطرة. كان النزل الذي تقيم به إيفا بعيداً عن نزله. فهي جاءت من برلين حيث تقيم، بكل أناقتها وثقل بورجوازيتها وخجلها. افترقت مع صديقها منذ أكثر من سنة لسبب غياباتها المتكررة وحبها الشديد لعملها. هي أيضاً كانت تشعر أنها أهملته كثيراً مما

دفع به إلى أن يعيش مع غيرها.

كانت إيفا تعرف جيداً أن يونس مارينا بقي طفلاً على الرغم من قسوة الحياة وحرائق السنوات العصيبة. لا شيء يهمه إلا ما يملأ قلبه دفئاً وحرية. ما يشعل حواسه التي تأبى الموت، يشعل ما تبقى فيه من جاذبية لا تعرف سرها ولكنها تريدها. تحتاج إليها. ربما كان الإحساس بالأمان الذي يورثه في جليسه كما تقول له دائماً في عزلتهما، وهي تدفن أناملها الرقيقة في عمق شعره الذي ابيّض فجأة، عندما يتعبان من عمل الترجمة. ربما هذا ما يجعله قريباً من قلبها لدرجة أن تغفر له كل حماقاته.

– هل تدري يا مارينا أن الإحساس بالأمان هو أهم شيء بالنسبة لأية امرأة في مجتمع لم يقطع علاقته بذكورته؟ الإحساس بالفراغ واللاجدوى مؤذيان إلى أقصى الحدود. ما يجعلنا عشاقاً حقيقيين هي نشوتنا بأننا أصبحنا جزءاً من ضرورات الآخر. المشكل أننا نعيش حالة من اللاتوازن حتى في حميمياتنا. في مجتمع ذكوري نحتاج فيه إلى جهد مجنون لكي نصل إلى أعماق من نحب ونشتهي.

– المرأة حبيبي ترفض أن تظل ثانوية وعلى السطح. تصور العقلية. تخيل؟ حتى الله مصاغ ذكوريا في لاوعي البشر في كل

لغات الدنيا، الأمر الذي يجعلنا في الكثير من الأحيان بعيدين عنه. من يتخيل الملائكة إناثاً؟ جبرائيل؟ ميخائيل؟ عزرائيل؟ كيف يعيش الملائكة بلا إناثهم؟ لابد أن تكون حياتهم جافة. أحتاج حبيبي إلى ملائكة مسكونين بالهشاشة وليس السلطة، عندما أشكوهم أحزاني وجروحي، يحنون رؤوسهم بحب وصمت مثلما يفعل العشاق المتواضعون.

– في هذه القضية بقي الإنسان وفياً لميراثه، وعبداً لحيوانيته المرتبطة بالتسلط والقوة، ولم يُرَبِّ حواسه الخفية التي تبني إنسانيته العميقة. حاسة الكتابة واحدة منها؟ أشعر بشيء غريب تجاهها، لكني بمجرد عودتي إلى الحياة العامة أجد صعوبة في التأقلم مع اليومي.

– جميل أن تكون الكتابة هي الحاسة التي توقظ أشياءنا الدفينة الرائعة، وربما تذكرنا أيضاً بوحشيتنا المقيتة، وبأدفأ نقطة فينا أيضاً .

لم يكن يونس مارينا بحاجة إلى إقناع إيفا، ولم تكن هي أيضاً بحاجة إلى إقناعه، فقد كانت فسحة الكؤوس المتتالية، كافية لأن تعيدهما إلى دفء جسديهما، ولو داخل قلق ظل يملأه، وداخل تيه لم تستطع لجمه. يحدث أن يتقاطعا في الليالي الباردة كشهبين مشتعلين للحظة، قبل أن يفترقا

بسرعة حارقة خيطاناً من رماد.

لأول مرة ينام مع إيفا، ويخونها بلا تردد ولا حزن. يكره ذلك، لكنه مارسه وبانتشاء جميل. لا يعرف ما معنى الخيانة التي يتحدث عنها الأزواج، لم يعشها ولكنه، يعرف أنه عندما ينام مع امرأة فهو لها وليس لغيرها أبداً. لكن، في هذه المرة، نام شبح لوليتا اللذيذ بينهما، وتمدد بكل جنونه وعبثه. في تلك الليلة لم يفارق لوليتا مستعيراً جسد إيفا التي لم تمنعها سنواتها الأربعون من أن تكون امرأة ندية وجميلة، وممتلئة بالأشواق.

عندما نامت على صدره وهي مستلقية بلذة، همست بكلمات سرعان ما اندفنت في عمق الليل:

– شكراً حبيبي، كنت جميلاً ورائعاً... ياااااه كم كنتَ حلواً ونبيهاً...

– وأنتِ أيضاً كنت مدهشة يا إيفا.

قالها بعفوية وربما بآلية تعود عليها كلما التقيا. صمتت قليلاً وهي تعبث بشعيرات صدره. لم يكن يبدو عليها أي قلق أو غضب. كانت عيناها البحريتان صافيتين. همست مرة أخرى بصوت بالكاد يسمع:

– ... يبدو أنها سمعتك ولم ترد؟

– من؟ لم أفهم؟

فجأة تغير لون عينيها وأصبح رمادياً، بلون بركة عكرة:

– لا تؤذيني حبيبي ثانية بتجاهلك، فأنت بهذه الطريقة تستغبيني. لا يا مارينا، فهمتني جيداً.

– فهمت ولم أفهم...

–لا حبيبي، فهمت جيداً. لوليتا؟ ناديتَها بأعلى صوتك. سمعك الجميع إلا هي؟

– لا أدري ماذا حدث لي وقتها؟ على كلّ ليس مهماً؟ كنت مجنوناً ربما. أدهشتني بأسئلتها وتصرفاتها الغريبة. كان الشبه بينها وبين لوليتا مخيفاً. اعذريني لأول مرة أواجه امرأة بهذا الشكل، لا لكونها جميلة وساحرة، ولكن لأني خلتها خرجت فجأة من كتاب؟ للمرة الأولى أرى امرأة من بياض الورق وحبر الكتابة، تنفلت من عمق كتاب، وتتحول إلى كائن حي يشبهنا في كل شيء، بل يتجاوزنا.

– تريد رأيي بصدق؟ لوليتا لم تكن بكل هذا البهاء، ولا بهذه الدهشة، حتى أنها كانت أحيانًا رثة ودون العادي. بل وغبية تقول أي كلام. أنت ابتدعت هالتها. صناعة ذهنك لا أكثر. هي تعرفك جيداً طبعاً. مناوِرة محترفة. لم أفهم كل كلامكما بالعربية، ولكن هذا النوع من النساء أعرفه جيداً.

– هل تصدقين؟ لا أدري ولا أعرف حتى القاسم المشترك بينها وبين لوليتا.

– هي كانت تعرف جيداً أنك أنت من كان يناديها.

– على كل حال...Ce n'est quand même pas une garce[١٩]

Presque[٢٠] –. لكني لم أقل هذا. قد يكون ذلك جزءاً من لعبة الإغواء؟ هي مثل لوليتا تماماً، تجد لذة كبيرة في تركك معلقاً في الهواء، بين الحب والكراهية. أصعب عقوبة تسلط على رجل مثلك أن يظل معلقاً بين غُصَّتين؟ الجنون والعقل، وبين امرأتين أيضاً .

–نسيتُها حال خروجها. لو تزوجتُ لكانت ابنتي في سنها.

–لكنك لم تتزوج، وهي لم تكن ابنتك...

– مفهوم. غيرة؟

– لا. لستُ حتى منزعجة منك أو منها. «خليك» في حريتك، أحلى وأجمل. لكني أضعك أمام صورة تشعر بها عميقاً لكنك ترفض سلطان مرايا الداخل.

صمت. تبعثرت الكلمات التي كانت قبل قليل على لسانه. بدا كل شيء ضيقاً بما في ذلك الغرفة التي كانا فيها، واللغة

---

١٩ فهي ليست على كل حال مومساً.
٢٠ تقريباً.

التي كانا يتحدثان بها.

تمدّدت أكثر على جسده بكل طولها، ثم مسحت على رأسه بدفئها المعهود. وضعتْ أصابعها على فمه قبل أن تتمتم مخترقة عينيه بخزرتها الزرقاء.

– يا الله حبيبي غيّر هذا الوجه، لا أحبه. لا تشغل بالك. لا شيء سيجبرك على الكذب. عادة سيئة إذا التصقت بك. لوليتا سكنتك مثل الصاعقة. يحدث أن نعيش حالة يصعب تبريرها أو فهمها. الصدفة أحياناً تكون قاسية... ربما قاتلة؟ أعرف هذا النوع من النساء، لا يرتاح إلا إذا شعر بأنه محبوب ويترك الآخرين على الحافة القاسية، عندما يتأكد من حبهم. يأخذ كل شيء ولا يعطي شيئاً. ويمكن أن يتحول في أية لحظة إلى قاتل عندما يخسر رهانه.

شعر كأن كلام إيفا كان بسيطاً وجارحاً. عرّاه عن آخره. إضافة إلى خيانته لها مع لوليتا، مستعيراً جسدها، كان يكذب. أحس بخجل لأنه يعرف جيداً أن أسوأ خيانة مع امرأة وأقساها وأكثرها ظلماً، هي أن تستعير جسدها من أجل امرأة غيرها. وإيفا معه في عزلته الحميمية، في قمة عنفوانها، تتنهد وأنفاسها تتقطع، لم ير شخصاً آخر سوى لوليتا بسحنتها الطفولية وهو يتمتم في أذنيها بأحلى كلمات التلاشي،

ويستمع إلى همس قلبها وحواسها. كانت لوليتا تتحرك في دمه وتملأ كل حواسه، حتى تلك التي تعود أن يمنحها لإيفا كلما جمعتهما صدف الترجمة والحياة. كان معها في دوار التيه الجميل والتمادي في غي الجنون الذي يحرر الجسد من كل خوفه وماضيه وحتى جاذبية كل ما يحيط به.

- لستَ مجبراً حبيبي على الكذب، لا شيء يستحق ذلك. نحن في النهاية أصدقاء، أجمل ما يجمعنا الكتابة والأحرف والخروج نحو بعض الجنون عندما نشعر بالحاجة الماسة لبعضنا. الخيانة ليس في أن تهزك امرأة عابرة، ولكن عندما تسكنك وترى كل محيطك من خلالها. هذا صعب عليّ قبوله.

ذبلت فجأة نظرة إيفا الزرقاء الناعمة. هل قالت شيئاً قبل أن تغمض عينيها للمرة الأخيرة، قبل أن تنسحب فجراً على أصابع رجليها وتركب قطار برلين منكسرة بشكل عميق؟ هل انتابها جرحها الداخلي وهي تضع يدها على فمها لكي لا تصرخ بكل قواها الباطنية المدفونة؟ رآها فقط ليلتها وهي تلتفت صوب الحائط الذي بدا بارداً أكثر من اللازم. ثم سمعها وهي تغمغم قبل أن ينام على وجه لوليتا الناعم كفجر ربيعي هارب.

- الصدفة أحياناً تكون قاسية حبيبي... وربما قاتلة؟

تذكر وهو في فراشه، «الكارت» الذي وضعته لوليتا في عمق كفه كمن يدس سراً أو قنبلة موقوتة، والكلمات المبهمة التي كتبتها بالفرنسية، على ظهر الكارت: Puis-je faire de toi mon territoire et t'appartenir pour de bon? كانت حروفها تشبهها في أناقتها، رقيقة ولكن بها يقيناً مخيفاً. كانت تلك ورقتها الأولى التي لا يدري كيف ذكرته بشيء ملتبس وهارب، ينام في أعماقه.

سبقته ابتسامة مشفوعة بجملة رقصت في داخله.

- «تسألينني يا مهبولة؟»

- هي لم تسألك، قاطعه صوت إيفا بحزن وهو منكسر على بياض حائط الغرفة. لم تسألك لأنها كانت تعرف جيداً أنك علقت بها بقوة، منذ تلك اللحظة الغامضة التي ضيَّعك فيها عطرها. كتبت لك لتربطك بجنونها. تعرف جيداً حساسيتك المفرطة. لغتك تخدعك، ولا تستطيع أن تتفاداها. كلماتك تضع عشاقك على حافة الوهم القاتل. احذر. لوليتا ليست عادية. مثل الذئبة، قد تأكلك يوماً بلا أدنى تردد، وتأكل نفسها معك. أدركتُ ذلك من عينيها، بحواس امرأة تشم الخطر من بعيد.

- إيفا تضخمين حدثاً عابراً. ليست أكثر من قارئة من قارئات الصدفة الكثيرات. وقراء الصدفة ينطفئون بسرعة.

أدهشتني حيويتها وجرأتها فقط، وربما شبهها بلوليتا أو على الأقل هكذا تخيلتها.

– المشكلة ليست فيها حبيبي، ولكن فيك. من حقها أن تصاب بك كما حدث لي قبل سنوات. أفهمها جيداً. لكنك في النهاية أعرَف الناس بأنها لن تكونَ امرأة عابرة في حياتك. أنا مثل أية امرأة عادية تعرف بحكم التجربة وحاسة شمها الحادة، من يريد سرقة مساحتها الخاصة. أخاف عليك من لوليتا. تفاداها حبيبي. أنت لا تعرف هذا النوع من النساء. يمكن أن تكون امرأة الأقدار القاتلة The fatal women.

قالت إيفا للمرة الأخيرة، دون أن تبعد جسدها الملتصق بالحائط البارد.

- «Yes my angel, the fatal women.»

لم يقل يونس مارينا شيئاً، لكنه كان أكثر الناس إدراكاً أن كلامها لم يكن عبثاً.

فجأة غاب وجه إيفا نهائياً.

أغمض عينيه من جديد. عدّل السماعتين في أذنيه. أصبح الصوت نقياً وواضحاً أكثر هذه المرة.

منذ أن وضع رجليه في فرنسا التصقت به باريس وإديث بياف كعقرب الصخور.Je t'aime... je t'aime à en crever[٢١]صوتها يخترقه بلا استئذان. كلمات الأغنية تتدفق في دمه كسائل حار يطوّح به بعيداً خارج القطار السريع الذي كان يبتلع المسافات في صمت يكاد يكون كلياً.

أنت في كل مكان، في جسدي.

أرتعش برداً، أشكو من الحرارة...

أشعر بشفتيك على جسدي.

مستسلمة أمام حبك، فأنت تسكنني.

– «ياااه يا يما. تاريخ الأشخاص مثل الظل الباهت يا عزيزي، يركض وراء صاحبه حتى النهاية، كلما تخفى عنه وجده وراءه، يقتفي خطاه باستماتة كبيرة حتى يدركه، ولا شيء يمحوه أبداً «l'histoire nous rattrape .

٢١ أحبك... أحبك لدرجة التلاشي فيك.

لم يدر من أين جاءته تلك الجملة الإسمية الثقيلة، لكنه متأكد من أنه سمعها في مكان ما. في تلك اللحظة، لم يكلف نفسه عناء التساؤل عن مصدرها.

أضواء المدينة قد اشتعلت عن آخرها. بدت فرانكفورت حفنة منزلقة من الأنوار. شلالات من الضوء الهارب. لم يبق في ذهنه الشيء الكثير من الوجوه التي صادفها في المعرض، إلا ملامح الشاب الألماني ذي الأصول التركية التي سرعان ما تبعثرت مثل رماد النجوم المحروقة، ووجه لوليتا الطفولي المليء بالأسئلة الغامضة الذي تماهى فجأة مع أنوار المدينة. تساءل كيف يمكن أن يتحول شخص لا نعرفه إلى جزء من الضوء الذي ينير عتمات الداخل الذي يشبه حالة تيه بلا نهاية؟ من أين جاءت؟ كيف نزلت على حوافه الهشة أصلاً؟ متى شقت داخله بكل هذه القوة اللامتناهية لتنبت فيه بقوة؟ حتى لوحات المعرض المقام في متحف داس ستيدل[٢٢] للفنون القديمة والحديثة، الذي أصرَّ على زيارته قبل العودة إلى باريس، لم تمح ملامحها التي ظلت عالقة بعينيه مثل عطرها الذي التصق بكل ما كان يحيط به. كانت كالخيط الناعم، تتسرب من بين الألوان والخطوط الشفافة التي كان

٢٢ Das Städel Frankfurt am Main.

يحدثها القطار في سرعته. ولا حتى وجه إيفا الذي فقد فجأة سحر ملامحه قبل عودتها منكسرة إلى برلين. لا يعرف كيف انسحبت من الفراش كالسارق. رأى ظلها الممتشق في غفوته الفجرية وهي تمشي على رؤوس أصابعها لكي لا توقظه وتخرج دون أن يثقل عليها بأسئلته، أو تثقل عليه بانشغالاتها وتدفع به إلى تبريرات هو يكرهها وهي لا تريد سماعها.

أغمض يونس مارينا عينيه المتعبتين. تهادى في مهاوي إديث بياف. لم يسمع شيئاً إلا صفير القطار السريع TGV الرابط بين فرانكفورت وباريس وهو يشق الظلمة بقوة كبيرة ساحباً في إثره الأنوار في خط مستقيم وكأنه يجرها هي والبيانات والأشواق الخفية، مثل الظلال الهاربة، قبل أن يدخل في انتظام سرعته العالية.

مدد كرسيه قليلاً إلى الوراء. أحسّ ببعض آلام ظهره تستيقظ فجأة. تزحف قليلاً على كامل عموده الفقري ليجد الوضعية المناسبة. يشعر بهذه الآلام منذ أربعين سنة، منذ أن قضى ستة أشهر في مكان مغلق، في ماخور عيشة الطويلة، من أجل فعل كان بمثابة جريمة لم يقدّر مخاطرها. كان سيجن لولا الكتاب الذي وضعه أحد الرفاق بين يديه. قال له لحظتها:

– « اقرأها. رواية عالمية مهمّة، ستفيدك لا محالة. الظّلمة

في عزّ النهار[٢٣] لكاتبها آرثر كوستلر».

ثم قال له معتذراً وهو يسلمه الرواية:

– «أنت تعرف الإنجليزية ولا مشكل لغوي لديك. هي موجودة بالفرنسية أيضاً ولكنها مع أحد الأصدقاء الذي غاب فجأة في هذه الأيام العصيبة.»

أغمض عينيه قليلاً، فعاودته كلمات المرأة التي سهرت عليه في المخبأ دون أن يرى وجهها إلا ليلة واحدة قبل خروجه:

– «لو كنتَ فقط أكبر قليلاً، كنت ما خليتكش تروحْ طفل صافي عند أمك، للأسف أنت وديعة عندي، والوديعة يجب أن تُحفظ.»

كاد أن يقول لها وهو يرى جسدها المصقول بنعومة: لست طفلاً. لم يكن عمرها هي أيضاً أكثر من ٢٥ سنة. يتذكر حركتها عندما التفتت نحوه بشكل فجائي، ودار معها شعرها الناعم مشكلاً نصف دائرة من النور، تحت الشمعات التي قاومت الليل كله. كانت مدوخة، بعينيها الجميلتين الضاحكتين:

– «كم عمرك يا الغزال؟»

وكأنه أدرك «ملعنة» السؤال. أجاب دون أدنى تفكير.

– «تجاوزت العشرين؟»

---

٢٣ العنوان الأصلي للرواية: Darkness at Noon لكاتبها Arthur Koestler. عنوانها بالفرنسية يختلف عن الأصل الإنجليزي: الصفر واللامتناهي Le zéro et l’infini

ضحكت مرة أخرى:

– «أكبر منك حبيبي. أنا عمري خمس وعشرون سنة بالضبط.»

ثم غابت بسرعة حتى لا تثير انتباه أي شخص في المحيط. وثق من ابتسامتها المشرقة وسؤالها أنها ستعود، وليس كما في المرات الماضية، تدخل وتخرج دون كلام. في آخر تلك الليلة التي أصبحت اليوم بعيدة. سمع خطواتها المسروقة، ثم رأى ظلها يتقدمها، بشعرها الطويل الذي ارتسم جزؤه السفلي تحت ضوء الشارع الليلي الذي يخترق غرفته، على الستار الأبيض والحائط المنفتح على النافذة. أراد أن يشعل ضوء الممر، مدت أصابعها الناعمة إلى فمه: تمتمت:

– «ششش. ما تشعلش الضّو .هكذا مليح. تعال، كلهم نيام. معي شمعة. »

سحبته بنعومة من أصابعه. أشعلتها. رآها لأول مرة بلباسها الشفاف الذي انكسر عند الكتف الأيسر وهي تتفحص كتاب آرثر كوستلر الذي وجدته في طريقها. قرأتَه؟ سألته؟ سأنهيه قريباً، ردّ عليها. واصلت باندفاع أكثر:

« – عليك أن تنهيه بسرعة، لتعرف أن الإنسان ليس كياناً هائماً في الفراغ، ولكن مقاومة مستمرة ضد الإذلال. ظل قوياً

حتى النهاية ولكن سلطانهم كان قاسياً وأكبر جبروتاً.»

شعر بنعومة في كلامها، في وجهها نصف المضاء بشمعة، أصابعها، شعرها الذي غطّى في لحظة من اللحظات وجهه كلياً. انتابه دوار جميل وهو يتأمل تفاصيل وجهها التي كانت تهرب منه كالضوء.

همست في أذنه في جو نصف مظلم:

– هل تعرف أين أنت؟

– لم أسأل يوماً عن ذلك. أوصوني بأن لا أسأل. أنا أطبق ما طلب مني.

ثم فجأة أدرك حماقته:

– إذا كان الأمر هكذا سأنسحب أيضاً .

– عذراً، أردت فقط أن أقول لك ما حدث بالضبط.

– أحسن للجميع. لا أحد يعرف أنك هنا.

– وأنت لماذا خبأتِ وجهك عليَّ طوال هذه المدة التي لم أر فيها إلا يدك وأصابعك حتى أصبحتِ دليلي في كل شيء. كنت في البداية أتعامل مع الإناء الذي تسلمينه لي، ولكني مع الزمن أصبحت أجد لذة في أن ألمس أصابعك وأنا آخذ منك الإناء. ويبدو لي أنتِ أيضاً .

– نعم وإلا ما تركتك تلمسني. أنا لا أقبل أن يمسسني أحد.

كل الذين يأتون، إلى هذا المكان، يدفعون، يعبرون جسداً ميتاً لا يملكون فيه أي حقّ إلاّ حرق رغبتهم ثم ينتفون في الطبيعة، كل ليومياته القاسية.

شعر بارتعاش يعبر جسده مثل الصّعقة الكهربائية... يأتون، إلى هذا المكان، يدفعون، يعبرون جسداً ميتاً لا يملكون فيه أي حقّ... أراد أن يسألها مرة أخرى أينه؟ ولكن سؤاله بدا له محرجاً، وربما خارج اللحظة.

فتحت مرش الدوش ثم سحبته من يده بعذوبة وهي تتمتم بصوت خافت:

– غدا سيسرقونك من جديد، وأحتاج أن أسلمك لهم كاملاً معافى، ونظيفاً كما جاؤوا بك، إلا مني، هههههه. عليّ أن أطمئن بأنك كامل ولا شيء ينقص فيك... هههه...

استسلم لها كطفل يتلذذ بملامس أصابع أول امرأة في حياته: أمه. أدخلته تحت المرش وبدأت تعبر جسده بشفتيها. تيقَّن ليلتها أن الحب ليس حرفة حارقة عند بعضهن، ولكنه قَدْر لا يُحد من الجنون. القدرة الخلاقة على تخطي الحدود التي ترسمها الأعراف والأديان، وإلا سيكون عادياً ولا يتجاوز لحظة التفريغ المعتادة حيث تستقيم رغبات البشر على خط مستقيم، واحد. عندما انتهت من غسله بشفتيها وهي تضحك بنعومة:

- «قلت في خاطري أول ما رأيتك، لن يسبقني الماء إليك. أحمّمك أولاً بقبلي. وبعدها أسلمك لهم، تقريباً، مثلما ولدتك أمك. تقريباً... هههه...»

كانت ضحكتها دافئة، وصوتها محسوب بحيث لا يتجاوز حدود الغرفة. عندما لمسها في دفء الفراش، همست في أذنه وهي في حالة استرخاء كلي.

- «اشتهيتك مثل مجنونة. أنت لم تر إلا أصابع يدي، وأنا كنت كل ليلة أراك بكل طولك وأتحسس أناملك وهي تعبرني زاوية، زاوية. وخفت أن تذهب دون أن أمسّك. أن أشمّك. أن أحبّك ولو لليلة واحدة. اليوم تجرأت وكأني متأكدة من قبولك.

- أنا لم أكن أطلب أكثر من ذلك. كنت ضيفاً. لم أتخطَّ هذا الحد إلا يوم لمست أصابعك ولم تمانعي.

- هههه. من يقول لك إني لم أقصد ذلك؟

- فهمت في المرة الثالثة عندما بقيت يدي على أصابعك للحظات، كانت تطول في كل مرة أكثر. ثم من أصابع اليد الواحدة إلى أصابع اليدين.

- لا أدري ولكني كنت مطمئنة. شيء في داخلي كان على قناعة بأننا سنسرق لحظتنا الصغيرة. أحسست بكل شيء من أصابعك. ولهذا كنت أفعل ذلك عمداً وأسمعك صوت زواري من رجالات العقيد حتى لا يؤذونك، فهم لا يشكّون فيَّ أبداً.

– الأصوات إذاً كانت تأتي من عندك. أتذكر بذاءتها: أولاد القحبة. راح نحيوا لهم قلاويهم ونقليوهم. ما تخافيش. العقيد قادر على شقاه. خفت. في مرة من المرات فكرت أن أهرب، ولكنني لم أفعل لأنني تلقيت تطمينات مكتوبة من الرجل الذي اقتادني إلى هذا المكان. كنت خائفاً من أن تسلميني للرجال الغامضين الذين كانوا يزورونك في أوقات راحتك.»

– لكن يا شاطر من كان يوصل لك الأكل والشرب، والجرائد اليومية وبعض الرسائل المكتوبة؟ هل تظنني بهذه الغباوة؟

– كنت أعرف يد امرأة فقط؟

– من كان يستلم مقالاتك ويسلمك الجريدة السرية التي تكتب فيها؟ وأنت هنا في هذه الحفرة التي لم يجدها غيرك من الذين اقتيدوا ليلاً، الله وحده يعلم إلى أين؟

– أصابع امرأة. أصابع علقت عليها الحياة وبعض الأحلام الهاربة.

– ألم تقرأ حناناً وحباً غامراً فيها؟

– في الأول لا، كان ممنوعاً عليّ لمسُها.

– من منعك؟ ربما كنتَ اختصرت علينا المسافات.

– أخافوني. آخذ الأكل أو البريد أو الجريدة السرية وأنسحب. ولكن يوم لمست أصابعك لأول مرة، تغير كل شيء. أنت أيضاً

ساعدتني بتواطئك الجميل.

– لم أتواطأ، كنت أشتهي ذلك حقيقة. خيانة غير مؤذية لأصدقائنا.»

حيرته كلمة أصدقائنا. أراد يومها أن يسألها ولكنه تراجع خوفاً من أن يفقدها.

شعر بالدوار اللذيذ. يتدحرج في فضاءات بلا حدود مثل الذرّة الضائعة. لم يسمع إلا صوتها المتقطع وبياض عينيها الذي كان يغرق شيئاً فشيئاً... عمري... روحي... ياااه ما ألذّك؟؟؟ أحسك فيّ بكاملك. بطولك وعرضك.

لم يعرف كيف مرّ الليل. كلما نسي نفسه كانت تعيده إلى وعيه.

– «يجب أن تظل هنا. الغياب خسران للرؤية. تأملني. خذني في داخلك. امتلئ بي مثلما أفعل أنا الآن. خذني في عينيك وفي قلبك. اللذة بلا حب مذاقها بارد مثل الموت.

– أنا معك عمري. ممتلئ بك حد الهبل.

– أعرف أنك مادة خام حبيبي. نتعلم الجنس مثلما نتعلم الأكل. لا تتسرع. التسرع يقتل الحب. في الجسد شيء آخر عليك أن تراه بالصبر والمكابدة والصعود نحوه، وإلا ستكون شبيهاً بالآخرين. أتعرف الفرق الوحيد والأهمّ، بينك وبين من يأتيني

كل يوم؟ ليس فقط في أنك تأخذني ليلاً وبلا مقابل، وهو يأتيني في عز النهار، ثم يعود إلى انشغاله اليومي بعد أن يدفع ثمن ذلك، هو يشتريني وأنا أريدك. أشتهيك. وربما أحبك.

– ربما...»

عبرته بشفتيها. شعر بها قريبة وتتضاءل ثم تغيب كغيمة. كان كلامها ينهمر مطراً دافئاً ذكّره بأمطار الكرايبي وجبل الكبريت[٢٤]. وضعت الحلمة الموردة بين شفتيه، تماماً كما يُفعل مع رضيع يتدرب على المسك بثدي أمه.

– معك الآن أشعر أني ملكة. أنا في الواقع مجرد «مومس» مع الآخرين، وهذا يسهل الأمر عليَّ وعليهم. كل واحد يعرف وظيفته وحدوده، وحتى الوقت المسموح به ومساحات الجسد التي من حقه أن يمسسها. مع من أحب، العلاقة ستتغير بقوة. يصبح جسدي كله بين يديه. وكل شيء لذة، بما في ذلك أنامل اليد، الشفتان، النهدان، الزندان، وكل التفاصيل الحميمية. عليك أن تتعلم أولاً كيف توقظ جسد امرأة تحبك. هو لا يشبه أي جسد آخر حتى ولو كانت صاحبته مومساً محترفة.

كان متمدداً بجانبها. ظلها يجتاحه شيئاً فشيئاً. أيقظته كل حواسه مرة أخرى. تأملها ملياً. شعر بعطر أنفاسها. مد أصابعه

---

٢٤ جبل بركاني في غوادلوب La Guadeloupe واسمه جبل الكبريت La Soufrière

المرتعشة إلى جسدها. تأوهت طويلاً. شعر بكل البرودة التي تعقب اللحظة الأولى، تنسحب وتتضاءل بخوفه من أن يكون غير قادر على حبها ويخونه يقينه برجولته. كانت مستسلمة له كغيمة دافئة. شعر بقربها الكبير وكأنهما عاشقان قضيا كل طفولتهما في حضني بعضهما بعضاً. فجأة سمع الأناشيد القروية اللذيذة، التي تقولها النسوة والرجال معاً في الجلسات السرية، وفي الأعراس، تأتيه من بعيد محملة برذاذ نسائم الفجر.

«يا لالة يا مولاة الدار،
سرتك كاس بلاّر،
نعمّرها بالويسكي والريكار
وخلّ تشعل فيَّ النار..»

ثم أخذ أصابع يديها ومصها واحداً واحداً كما أرادت. أصبح يعرف أن على رؤوسها الناعمة منتهى الحواس والمتعة. جسداهما كانا مساحة حية للاكتشاف والشوق. ثم نامت على ظهرها وقادته إلى كل جنونها النائم تحت شعرها.

ثم فجأة رآها مثلما حلم بها ذات ليلة. جالسة في لباسها الشفاف المائل نحو لون بنفسجي باهت، مال قليلاً على مستوى الجهة اليمنى، من الكتف والصدر بشكل أبرز الجزء الأيمن من

نهدها. كانت متكئة على الحائط. في يدها كتاب آرثر كوستلر، ولا يعرف إذا كانت تقرأه أم تتأمل خطوطه فقط. عمقت الشمعة كل الزوايا المظللة من جسدها. قال لها كمن يهمس:

– الظلمة في عزّ النهار، رواية جميلة؟

– نعم. كنت أقرأ كثيراً قبل أن أهرب إلى هذا المكان.

– هربتِ إلى هذا المكان؟ لم أفهم؟

– قصة طويلة. ربما سأحكيها لك يوماً إذا اشتقت إلي، وعبرت من هنا. صُدف الحياة جميلة ولكنّها أحياناً قاتلة. كل اللواتي هنا، يحملن على ظهرهن خيبة رجل تافه لم يكن قادراً على الدّفاع عن حبه حتى النهاية. هنا على الأقل أشعر ببعض الأمان. ولكن...

– وماذا بعد؟

– قد تشاء الصدفة القاتلة يوماً أن يزور المكان من يعرفني، فيخبر أهلي، فيبعثون من يغسل العار بالدم. يحدث معي أحياناً أن أرى في كل عيون الزبائن قاتلاً محتملاً. أو على الأقلّ مشروع قاتل ينتظر فرصته فقط. ولهذا نشيخ بسرعة بين حياة مسروقة وانتظار مخيف.

– ماذا فعلتِ لتقفي على هذه الحافة؟

– قلتُ لك منذ البداية قصة طويلة ولا أريد أن أسمّم بها

ليلة جميلة مغتصبة بقوة من الحياة. أنتَ مازلتَ شاباً، اذهب في جنونك إلى أقصاه ولا ترهن حياتك بزواج تافه، أو امرأة تستعبدك باسم ورقة لا تساوي الحبر الذي كتبت به. الأمر لا يستحق حبيبي. الحياة قصيرة، وحظ جميل نحتاج أن نقدّره حق قدره. تعبت من حياة لا أحبها، يقتلها التكرار والخوف المستمر. لو يقبلون مني أن ألَتحق بأحد أديرة المدينة، سأفعل وأبقى هناك حتى آخر العمر أخدم الفقراء والمتعبين وأتأمل الحياة بدون الخوف من قاتل يمكن أن يخرج من الفراش الذي أنام فيه معه. في لحظة من اللحظات رأيت فيك مسيحي الذي مر من هنا ليعيد لي بصري الذي سُرق مني، طفولتي، ويملك جرأة الصراخ في وجه القتلة: من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر؟ لكني بسرعة أدركت أنك أنت أيضاً ضحية تعيش شططاً أكبر من سنّك الطفولي. ما ذنبك لتتحمل هموم مومس هي في النهاية زايد ناقص، ملك مشاع لكل العابرين. أستطيع أن أقسم لك اليوم وأنا لا أعرف إذا كنت ساراك ثانية، أن جسدي ظلّ دائماً بكراً، ولم أسلمه لشخص غيرك. أنا نفسي لا أعرف لماذا؟ للمومس أيضاً مسبقات لا يعرفها إلا من تحبه أوتشتهيه.

كانت تبدو تحت الشمعة التي وصلت إلى نهاياتها، في

عز نقائها وألقها. لا يعرف العلاقة التي دفعت به لاعتبارها كتفاحة غواية لم يصلها أي شخص، حتى شيطان الغواية، لم يأخذ منها إلا قشورها. انتابه الإحساس أنه لم يكن يملك أية لغة، لأن كل كلامه بدا له هزيلاً وميتاً. عندما نظرت إليه بعينين دافئتين، رأى نوراً شبيهاً بالوميض يخترقه ويتمادى في عمقه حد التلاشي. أراد أن يسألها على الأقل عن اسمها ليتذكّرها كلما ضاقت به الدنيا. ولكنه لم يفعل. فهي أيضاً استقبلته ولم تسأله عن أي شيء يخصه، لكنه كان متأكداً من أنها كانت تعرف عنه الشيء الكثير.

تمتمت وهي ترى الشمعة الذائبة التي كانت في نزعها الأخير:

– «شفت؟ الفجر خادع، لا يأتي إلا ليذكرنا بأن يوماً جديداً سيبدأ وعليّ أن أستعد له. يا الله حبيبي سيبدأ وقت طابور الزبائن. الجمال هنا لعنة. لا أطلب منك أن تحبني، ولكن ضعني في قلبك فقط. احفظني في عينيك لن أكلفك الكثير. سأستيقظ فيك يوماً، من يدري وتأتي لتراني إذا بقيت حية.

– من يدري؟ ولكن... أين نحن؟

– ألم تعرف بعد؟ ما تخافش حبيبي. أنت الآن على الحافة بين الجنة والنار، لا ملائكة تقلقك، ولا شياطين يسرقون منك

ألق الحوريات. كنتُ حوريتك الهاربة لليلة من جحيم الجنة ونعيم جهنم. بعد قليل سأكون فراشاً للعابرين، وقشة في مهب الريح. لا تهمّ التسمية، ولكنك الآن في المكان الوحيد الذي يشبه أمكنة العبور، يلتقي فيه الجميع: الفقير والغني، المدني والعسكري، البشع والجميل، الذكي والبليد، المثقف والأمّي، النظيف والمتسخ... إنه No man's land يا روحي. هنا يتساوى الجميع، لا أحد يسأل عن أحد، ولا أحد منشغل بالآخر. كلهم يأتون لأداء الوظيفة نفسها، بشكل يكاد يكون متشابهاً، ثم ينسحبون فرادى وجماعات.»

عندما أراد أن يسألها مرة أخرى ليحفظ وجهها نهائياً، كانت قد اختفت أو كادت، في المعبر الضيق الذي يصعد نحو الطابق العلوي. التفتت نحوه، بان تحت انكسار الظلّ شعرها الأسود المنسدل ونصف وجهها، بينما بقي النصف الآخر في عمق الظلّ. أدركتْ من حيرته سؤالَه.

–« لا تشغل بالك عليَّ. اسمي مريم. مريم ماجدالينا Marie Madeleine mon ange. المجدلية قبل أن يسرقها المنافقون، من فراش سيدنا المسيح. سمّيني مريم إذا شئت...

– ...

– أو خلّيك من مريم، ماجدالينا أجمل، فأنا أحبّه لأنه

يشبهني في كل شيء.

– جميل. أنا أيضاً أحببته.

– أعرف أنّك ستحفظني في قلبك، وسأكون مقاسك في علاقتك مع أية امرأة. لا تقبل في الفراش بأقل مما أعطيتك وإلاّ ستكون بليداً، ههههه. تعرف حبيبي، هناك أشياء فينا لا تموت أبداً. تظل تحفر فينا حتى آخر العمر. تمر عليها سيول الحياة والسنوات القلقة، وتظل متشبثة على الأطراف. اللحظة التي تُسرق فيها عذريتنا. المرأة الأولى التي تخترق عذرية جسدك باختيارك هي امرأة ذاكرتك الأبدية. احفظ هذا جيداً وقلْ إن مهبولةً كانت ضائعة على حافة طريق الحياة، قالت هذا. لم تكن حكيمة، كانت أقل من امرأة في عرف السفهاء الذين لا يعرفون شيئاً عن المرأة إلا ثقباً تضعه تحت تصرفهم عند الحاجة ينهشونه، بينما تصطف هي مع الملائكة وتتأمل المشهد وكأن الأمر لا يعنيها مطلقاً. تعجبني لوحة أصل العالم[٢٥]؟ تعرفها؟ أحدثت ضجة كبيرة.

– لا. لا أعرف عنها شيئاً.

– حتى أنا لا أعرف عن اللوحة الشيء الكثير. أهداني صورة عنها رجل عابر حطّ به الرحال في بوردل[٢٦] عيشة

٢٥ L'origine du Monde.

٢٦ ماخور. من الفرنسية: Bordel

الطويلة. أمه كانت فرنسية ولم يفهم يوماً لماذا يريد الأهل قتلي. قال لي يومها إن المرأة مركز العالم. منها خرج ملايين البشر، لماذا يصرون على النفاق؟ نسي العمل الذي دخل من أجله وراح يشرح لي اللوحة مصراً أنها لغوستاف كوربي[٢٧]، عكس ما يدعيه أشباه النقاد. وهو فنان من القرن التاسع عشر. قاد التيار الواقعي إلى درجة الاستفزاز، وفتح الأبواب على مصراعيها، على موضوعة الإيروتيك، للرسامين والمصورين اللاحقين. أظهر في أصل العالم، ما خبأه ماني[٢٨] في لوحته أولمبيا، وخبأ ما أظهره ماني أيضاً ، مستفزاً بذلك حالة النفاق في العالم التي أصبحت معمّمة. عندما نلتقي في المرة القادمة سأحكي لك عن هذه اللوحة، وكيف منع الكذابون ظهورها.»

اندهش من معرفتها الكبيرة ومن حفظها التفاصيل. أراد أن يسألها أكثر، ولكنه بدا لنفسه غبياً.

انطفأت بعدها كالبرق، ولم تبق منها إلا علامات باهتة من نور المكان الذي توقفت فيه للحظة قبل أن تنطفئ في ظلال البيت.

شعر يومها بأنَّ كل كلمة قالتها ماجدالينا، كان حكمة متقدة بالحياة. بعد قرابة نصف القرن، لم ينس أي تفصيل

---

٢٧ Gustave Courbet ١٨١٩–١٨٧٧.

٢٨ Olympia de Manet.

حياتي من تلك التفاصيل التي أصبحت اليوم غائمة. هي امرأة الذاكرة، لأنها كانت أول من اخترق عذريته بلذة لم يذق طعمها من قبل أبداً. لم تكن ماجدالينا مومساً عادية. لم يعرف حتى اسمها الحقيقي، ولم يحتفظ إلا بما افترضتْه هي نفسها اسمها. كانت المرة الوحيدة وهو في سقف اللذة، التي رأى في عينيها كل الألوان المستحيلة. قوس قزح بملايين الألوان المتدرّجة.

طوال الشهور التي قضاها في الحفرة لم يتذكر إلا شيئين قصة سموم حزيران القصيرة التي أخذها منه الشخص الذي اقتاده نحو السفينة الثقيلة، بعد أن أخرجه من حفرته، والليلة التي سرقها من الحياة بخيانة صغيرة مع ماجدالينا. كتب بعدها، في الصباح الذي جاء فيه الرجل النحيف لاستلامه والزجّ به على ظهر السفينة الثقيلة، قصة أخرى سمّاها ماجدالينا، استعاد فيها تفاصيل المرأة التي سلمها جسده لتسرق منه عذريته الطفولية التي لم يعد في حاجة إليها، إذ شعر وهو عند عتبة المغادرة، أنه كبر فجأة وتخلى عن طفولته نهائياً. احتفظ بالقصة طويلاً. وظلّت تصحبه في كل معابر الحياة الضيّقة. كلما عثر عليها بالصدفة أعاد قراءتها. غابت حتّى كاد أن ينساها، ثم عادت ذات يوم لتجتاحه كموجة عاتية. لم تكن القصة إلا مطية لاستعادة وجه ماجدالينا. بحث

عنها طويلاً قبل أن يجدها، في جيب معطفه الخشن الذي لا يلبسه إلا أربعة أشهر في السنة، في نهاية الخريف وفي عز الشتاء. نوفمبر، ديسمبر، يناير، فبراير. على الرغم من أنهم أوصوه بأن لا يحمل معه أية وثيقة يمكن أن تورطه وهو على ظهر السفينة. يعرف نفسه جيداً. يموت ولن يقول كلمة واحدة عن ماجدالينا.

خارج القطار الذي كان يلتهم المسافات بجوع كبير، كانت السكينة تلفّ الأمكنة المضاءة قليلاً. لا يكاد يلمسها بعينيه، ويحدد بعض ملامحها حتى تنسحب مثل سحاب ليلي فلا يرى إلا علامات منزلقة من وراء زجاج القطار السريع.

من جديد، عاودته آلام الظهر المزعجة. ربما لأنه أطال الجلوس، في الوضعية نفسها، جلوسه دون أية حركة. قام. مشى قليلاً في البهو الموصل إلى عربة الكافتريا. لم تكن بعيدة إلا بقاطرتين عن مكان جلوسه. طلب قهوة. انزوى في الركن المطل على الخارج المبهم. لم ير شيئاً في ظلمة الخارج إلا وجهه منكسراً على الزجاج الثقيل. بدا له كل شيء غارقاً وسط سكينة لا شيء يخترقها إلا تلك الأضواء الهاربة التي لا يدري إذا كان مصدرها مدناً يعبرها القطار دون التوقف في محطاتها، أم من القطار نفسه الذي كان يخترق السواد بسرعة

لم يعد يقدرهـا إلا من حفيفها الكبير.

شعر يونس مارينا براحة وانطفاء آلام الظهر. عاد إلى مكانه. تحسسه قليلاً كمن يبحث عن أريح مساحة. ثم جلس. تمدّد قليلاً، لكن آلام الظهر عاودته. تحرّك في مكانه. مال قليلاً إلى اليمين. إلى الشمال. إلى الأمـام. إلى الخلف. إلى اليمين الخلفي. الشمال الأمامي. حتى استقر على الوضعية الأقل شططاً وأذى وأكثر راحة. حاول بعدها أن يثبت نفسه نهائياً ولا يتحرك أبداً.

تسمر. شعر بلذة غريبة وراحة استثنائية. مدّ يده، محافظاً على وضعية الجسد نفسها، وأطفأ لمبة القراءة. أغمض عينيه. ثم حاول أن ينام قليلاً.

... لم ينَمْ.

-٤-

لم يقل شيئاً.

تفحّص الشرطي الألماني وجه يونس مارينا ملياً، قبل أن يغرس عينيه في جواز سفره. استغرب الوضع قليلاً. من المفروض أنه في فضاء أوروبي منزوع الحدود والجمارك والشرطة. لكنه تقبّل الأمر بشكل عادي. منذ العمليات الإرهابية في مدريد ولندن، يحدث أحياناً أن يُراقَب المسافرون في عمق القطار، وأثناء الرحلة. يريدون تحسيس الناس بالمخاطر دون أن يعيّشوهم في حالة رعب. أصبح الإرهاب لا يعني الشيء الكثير عند أغلب المسافرين، فقد تعود الناس على الحياة بمخاطرها. يحتاجون إلى أن يُحرَّكوا من حين لآخر من الداخل. أو على الأقل هذا ما بدا له وهو يتأمل عيون الشرطيين المتقدة والمليئة بالأسئلة.

على العكس من صديقه الذي كان يراقب الجواز، قال الشرطي الثاني ليونس مارينا بابتسامة مشرقة وجميلة، معتذراً بلغة فرنسية مكسورة ولكنها مفهومة:

- تعرف الظروف الصعبة التي نعيشها جميعاً. أعتقد أني رأيتك في مكان ما؟ في معرض فرانكفورت توقع كتابك الجديد؟

هزّ يونس مارينا رأسه بتثاقل:

- نعم. صحيح. كنت في معرض فرانكفورت.

ثم دقّق الشرطي في الاسم، في الجواز الذي كان لا يزال بين يدي صاحبه:

- يونس مارينا. كنت متأكداً من أني لست مخطئاً. رأيتك في التلفزيون أيضاً .

شعر يونس مارينا بنوع من الراحة. هز رأسه بالإيجاب.

- عذراً على الإزعاج... أنت تعرف سيد مارينا الأوضاع. نرحب بك في ألمانيا، ونتمنى أن نراك قريباً في برلين أيضاً وليس في فرانكفورت فقط. لك قراء هناك حتماً.

قال الشرطي الطيب، بينما انهمك صاحبه في مراقبة وثائق بعض الركاب الذين يختارهم بنظره وحاسة شمه التي لم تكن صائبة دائماً.

- أتمنى ذلك. كل الشكر سيدي.

لا يدري وهو يخترق النظرة الزرقاء الباردة للشرطي الأول، لماذا تذكر قطارات الشؤم المحملة باليهود في عمليات الترحيل الكبرى نحو محارق أوشويتز. رأى عيون الأطفال وهي تتراقص خوفاً، ولعثمة الركاب الذين فقدوا كل شيء، حتى القدرة على الكلام والصراخ. بين يوم وليلة أصبح الذين

كانت لهم حياة وأصوات كثيرة، شبيهين بالصمت واللاشيء.

حفيف القطار يزداد نعومة كلما قويت السرعة أكثر. الخارج لم يتغير. مظلم وكأن القطار السريع كان يسير في فضاء سماوي بلا حدود ولا ملامح. مسطح بلا أي نتوء.

عاد يونس مارينا إلى غفوته من جديد. تهادى شيئاً فشيئاً في الفراغ اللذيذ بعدما هدأت آلام الظهر التي أيقظها الشرطي ذو العينين الزرقاوين.

كان البياض اللدن يلفه من كل الجهات، وكان يونس مارينا يغرق فيه شيئاً فشيئاً من شدة التعب وآلام الظهر التي سكنت مع الوضعية الأخيرة التي اختارها.

فجأة سمع العقيد وهو يهمهم، وكان الناس يحتفلون بانتصار الحلفاء على النازية:

«Ce jour-là, j؛ai vieilli prématurément. L؛adolescent que j؛étais est devenu un homme. Ce jour-là, le monde a basculé. Même les ancêtres ont bougé sous terre. Et les enfants ont compris qu؛il faudrait se battre les armes à la main pour devenir des hommes libres.[٢٩]»

---

٢٩ في ذلك اليوم شخت قبل الأوان. المراهق الذي كنته، أصبح رجلاً. في ذلك اليوم تدحرج العالم. حتى الأجداد تململوا تحت التراب. وفهم الأطفال أنه يتوجب عليهم حمل السلاح ليكبروا رجالاً أحراراً. (الكلام للرئيس الأسبق، المرحوم هواري بومدين)

مع ذلك لم يجد يونس مارينا أي مبرر مقنع ليغفر للعقيد جريمته وانقلابه العسكري ضد الرايس بابانا. كان عليه أن ينتظر سنوات عديدة، وأفول جزء كبير من العمر ليبحث له عن مبررات فقط. ومع ذلك يشعر ببعض الشبه معه وإن اختلفت الأسباب والظروف. هو أيضاً كبر في يوم واحد. يوم انقلاب ٦٥ الذي دخل فيه في عمق لعبة لم يكن مهيأ لها. هل يعقل أن يرهن العمر على لعبة لا يتقنها؟ مجرد لعبة لم يدرك مخاطرها قبل أن تتحول إلى عقوبة عمر.

كان عمر البلاد المستقلة حديثاً، ثلاث سنوات. صيف سنة ١٩٦٥ بدأ مبكراً وحاراً. تذكر أنه قرأ في كتاب ما، قبل أن يكتب مقالته التي شردته عبر مدن الدنيا، أن البلاد التي تفتح عهدها بانقلاب، تفتح أيضاً شهية القتلة والمغامرين والساسة المأجورين. تَبْني في أحسن الأحوال، وعلى أمَدٍ مرئي، عشاً للجوع والقتلة. لا تنشئ أبداً أية مساحة للفرح. لم يهتم كعادته بقائلها ولكن الجملة أعجبته، فافتتح بها بداية مقالته.

مثل غيره، ظن يونس مارينا أن الدبابات التي نزلت في صباح ١٩ يونيو ١٩٦٥، وأحاطت بالملعب لم تكن إلا مشهداً طارئاً الهدف من ورائه تصوير فلم عن الثورة التي لم يمر على انتهائها إلا ثلاث سنوات. كانت الدبابات وهي تحتل ساحة

الشهداء، والإذاعة والتلفزيون، والملعب الكبير الذي كان يتفرج فيه الرايس بابانا مقابلة كرة قدم ضد البرازيل، تبدو كأنها لعب منتظمة تنتظر من يحركها.

عندما أخبره صديقه بجدية الانقلاب ضد الرايس بابانا، لم يصدق وحاول أن يقنعه بأن المسالة لا تعدو أن تكون فرقة بونتي كورفو[30] التي كانت تصور فيلم معركة الجزائر. لكن في المساء نفسه اتضح كل شيء وصعد العقيد ليعلن التصحيح الثوري. لم يفكر طويلاً، فقد وجد نفسه فجأة يكتب مقالة عن رئيس لا شيء يجمع بينهما إلا كونه كان صديق والده في أيام الثورة، وأنه كان ابن مدينته: مارينا. وكان يرى فيه شيئاً خارقاً من فرط ما سمع عنه من قصص غريبة. وهو صغير تخيله شيئاً خارقاً، ويوم رآه أصيب بخيبة أمل لأنه كان يشبه جميع البشر، بأنف وعينين ورأس وشعر وقامة فارعة ونظرة ملعونة تخترق خجله الباطني. قضى ليلة دون توقف ولا استراحة يكتب شيئاً لم يكن يعرف شكله ولا الزمن الذي سيستغرقه. عندما قرأه صديقه موسى لَخْمر في اليوم التالي، قال له أنا سأنشره لك في جريدتنا السرية التي نشأت مباشرة بعد الانقلاب. حتى عندما أعاد قراءة مقالته

---

[30] مخرج إيطالي أخرج فيلم معركة الجزائر الشهير. Ponte Corvo

لم يجد فيها ما يدهش سوى أنه كتب شيئاً أحس في لحظة من اللحظات الهاربة، أنه كان متعاطفاً مع شخص يشبه والده الذي مات في الثورة. يتذكر بالضبط ما قاله في مقالته الغريبة: «الانقلابيون»، التي لا يعرف بالضبط إن كان هو كاتبها قبل أن يأخذها منه صديقه موسى لحمر لنشرها في الجريدة السرية، أم غيره. عندما جاءه بها منشورة شعر مارينا بشيء غريب هو مزيج من الخوف والفرح، هو الذي كان يحلم دائماً بأن يكون صحفياً أو كاتباً يعبر الكرة الأرضية على متن الطائرات العملاقة، لكن الأمر بدا له دائماً بعيد المنال. شيء واحد آلمه سرعان ما أدرك قيمته لاحقاً هو التوقيع. فقد أُجبر على اسم مستعار. بحروف مستعارة. الحروف الأولى من اسم رئيسه: أ.ب. في الأيام التي تلت صدور مقالة: «الانقلابيون»، قال له شخص شعره أبيض كان يرافق لحمر، لم يعرف اسمه إلا عندما وصله خبر موته، سنوات طويلة بعد خروجه من أرضه. مسح على رأسه مثلما كان يفعل معه والده قبل أن ينتهي تحت التعذيب في ربيع الموت.

– «والله يا وليدي ظننتك شيخاً كبيراً وأنا أقرأ ما كتبته في صوت الشعب السرية، وها أنت شاب مليء بالحياة. مقالتك مباشرة ولكنها في الصميم. الحزب سيسعد بأمثالك؟

- أي حزب يا سيدي؟

تساءل يونس مارينا، بعفوية.

- كل شيء في وقته. كل شيء في وقته. سيقول لك صديقك لحمر.»

كلما سأل لحمر أجابه: لا تشغل بالك. كل شيء في وقته.

يتذكر جيداً كلمات الرايس بابانا.

- «عندما مات والدك، كانت أشجار اللوز يومها قد نورت، والكثير من الأزاهير خرجت من أعماق التربة. كيف يموت الناس في فصل الحياة؟ كان رجلاً جميلاً وقوياً وعملاقاً مثلك، ههههه.»

ضحكته لاتزال ترن في رأسه. كانت من قلبه.

حفظ الجملة عن ظهر قلب وحدّد بدوره، في رأسه شهور الموت، بشهور الشتاء. ثلاثة أشهر مفتوحة أمام الموت ليبتلع من يشاء. الناس أنفسهم يتمنون الانطفاء في هذا الفصل لقسوته ولصعوبة تحملهم له. حتى الصيف نزعه من قائمة شهور الموت لأن البحر الذي يحوط القرية والجبل يمنح الناس فرصة جميلة للحياة.

في المرة الثانية تجرأ الرجل ذو الشعر الأبيض على قول شيء أكثر من كلمة: كل شيء في وقته التي يستعملها كثيراً

ليخبئ سراً مهماً. على الرغم من أنه كان خائفاً من أن يكسر حماسه.

– «شوف يا ابني، كتابتك مدهشة. أنت رائع. لي طلب صغير فقط. قلل من الإنشائية. فهي على الرغم من مظهرها الجميل إلا أنها خادعة. اذهب نحو القصة ببساطة وبشكل مباشر وسترى بنفسك التحول والقوة واتضاح الرؤية. هذه المرة قمت بنفسي بكنس البلاغة الزائدة، في المرات القادمة حاول أن تفعل ذلك بنفسك. لستَ في حاجة إلى صور كثيرة. اذهب نحو القصة التي تعرفها جيداً.

– هذا ما تعلمته.

– بعض ما تعلمناه يحتاج إلى كنس حقيقي بلا تردد. أقرأت شيئاً لبعض الكتاب الأجانب؟ هل في رأسك بعض الأسماء؟

– فلوبير. زولا. ديكنز، غوركي الذي سلمه لي لحمر مع مجموعة صغيرة لغوغول.

– ألا توجد بين هؤلاء ولا امرأة واحدة؟ جورج صاند مثلاً؟

– لا.

– يكفي. أنا لا أختبرك. هل تجد كلاماً زائداً في نصوصهم.

تأملهم جيداً وستكتشف أنك لا تقل موهبة عنهم. يجب فقط أن تقول ما تريد قوله بلا نعوت كثيرة تثقل الكلام وتفقده حركته. لا تغضب مني، الشعرية يمكن أن تتأتي من المعنى وليس من لصق المترادفات. ثم عليك أن تستقر على اسم مستعار لتحمي نفسك من الانقلابيين أو من كلابهم وذئابهم.»

استغرب يونس مارينا قليلاً من هذا الرجل الذي يملك قوة غريبة تصعد بك عالياً، ثم تنزل بك إلى الحضيض، وقبل أن تفتح عينيك على اليأس، يكون قد سحبك مرة أخرى نحو سماء مرصعة بالنجوم.

طلب منه أن يواصل الكتابة وأن لا يتوقف أبداً. والغريب أنه صحح له كل الزوائد ولكنه لم يسأله في أي يوم من الأيام إذا ما كان يقول الحقيقة أم يلعب بها. مع أنه كان أول من يعرف أن كل ما كان يقوله ليس شرطاً أن يكون هو الحقيقة.

مارينا، مدينته ومدينة الرايس بابانا المشتركة، وفرت له مادة خصبة عن طفولة الرئيس وحياته وصداقاته ونضاله وسجنه. في مقالته الأخيرة روى طفولة الرئيس وكان كلما عجز عوضها بطفولته هو. فكر طويلاً في كذبته ولكنه سرعان ما استكان لحريته مادام لم يتلق أية ملاحظة، ثم أن الناس يحبون ما يكتبه الصحفي أ.ب. أصر عليه لحمر أن يجد اسماً

مستعاراً يحميه أكثر. وكأن كل الأسماء انقرضت. كلها بدت له سخيفة وأقل تعبيرية من اسمه. اقترح عليه صديقه أيضاً الكثير من الأسماء، لكنها كلها بدت له باردة وبلا معنى. فجأة، في ليلة من ليالي الخريف الثقيلة، رأى حلماً غريباً. شخص يلبس الأبيض، سمح ووقور، وملامح آسياوية قريبة من وجه جده يناديه: يوووووونس... يوووووونس... يوووووونس... وعندما لم يلتفت نحوه، لأنه لم يشعر بأنه كان معنياً بالاسم، هزّه من كتفيه بشيء من العنف:

– «اسمع يا السي محمد. عندما أناديك عليك أن تجيب، فهمت؟ أنت معرفتنيش لكني أعرفك جيداً.

– لكن يا سيدي اسمي ليس يونس. اسمي... اسمي... أ.ب.

– أهلا بالألف باء. ما تلعبش معاي الكاش كاش[٣١]، اسمك يونس وليد مارينا.

– يونس وليد مارينا. غريب؟

– ما غريب إلا الشيطان. ما تخافش لست مخبراً، أنا دلاّل خير لا أكثر.»

في الصباح كان قد وجد اسمه الذي نزل عليه كالوحي الصاعق ليلاً. يونس مارينا، Jonas Marina أعجبه إيقاع

٣١ لعبة التخفي. من الفرنسية cache-cache

الاسم بالعربية والفرنسية أيضاً. مجرد لعبة. الأسماء المستعارة هي تسلية أكثر منها تحفيز لشيء ما، أو حماية حقيقية، ورغبة مبطنة لمحو الانتساب إلى قبيلة أو عشيرة أو عائلة على الفرد أن يبقى عبداً لها حتى الموت، وهي من يختار له قبره وزوجته ويتحكم بقوة في أنفاسه. الغريب أن الاسم أصبح أكثر تداولاً في المقاهي والمحلات العامة للمدينة من الحرفين اللذين كان يجد الزوار الكثير من العناء في ذكرهما.

الكثير من المعارضين للانقلاب ورواد مقهى النجمة الذين يأتي أغلبهم من مصنع الخزف والآجر، ظنوه في البداية اسماً لامرأة. حتى أن هناك من يقسم برأس كل الأولياء الصالحين، أنها عشيقة السيد الرايس بابانا[٣٢] أيام الثورة وممرضته الخاصة، التي تعيش في سرية مطلقة وتكتب عنه خوفاً من الانقلابيين. التفاصيل التي بالمقالات لا يمكن أن تصدر إلا عن امرأة عاشرت الرايس بابانا. كان ينزوي مع قهوته الباردة، ويضحك في داخله، ويتلذذ لسحر لعبة لم يكن يدرك مخاطرها، وأن اللعبة نفسها التي مازح بها قدراً مجنوناً، ستنقلب عليه يوماً ما، وتسحبه نحو فجيعة كانت أكبر من سنه.

لم يزده ذلك إلا توغلاً في جنون اللعبة. كتب عن الرايس

---

٣٢ عامية جزائرية، وتعني الرئيس أبونا. تسمية كانت تُطلق على أول رئيس جمهورية للجزائر المستقلة: أحمد بن بلاً.

بابانا ومعاناته في السجن، وكيف يتعامل معه الانقلابيون. وأكّد في مقالته أنهم كانوا يريدون قتله في صمت وعزله. للعقداء سياسة غريبة في ذلك. يأخذون الشخص ثم يسكتون عنه مثلما يفعل الموت، حتى ينساه الناس، وبعدها يفعلون ما يشاؤون به. يمزقونه... يمنحونه هدية للكلاب... يأكلون لحمه...

يقول في مقالته الأخيرة التي حركت ألسنة رواد مقهى النجمة بقوة غير معتادة، إنه رأى الرايس بابانا في مكان معزول لم يوضع فيه حتى القتلة. لكن هذا الأخير كان ذكياً. فقد حارب الظلمة والعزلة والخوف بطريقته الخاصة. كان لا يثق في الحراس. قاوم العزلة بصحبة ذبابة صغيرة شاءت الصدفة أن يلتقي بها في زنزانته. كان كلما وُضِع الطعام أمامه خرجت من ظلمتها وخوفها وجاءت لتقاسمه طعامه وخلوته. تسرق من خبزه وحسائه من الطاولة القديمة. لم يمسسها يوماً بسوء، ربما ذلك ما أعطاها ثقة في النفس في أن تدور في كل الأمكنة، من وجهه، حتى طعامه، يده، أصابعه. كلما شبعت رقصت قليلاً. تلعب برجليها وجناحيها ورأسها وعينيها الثقيلتين اللتين لا يحبهما كثيراً، ولكنه تعود عليهما. على الرغم من أن البداية لم تكن موفقة بينهما. نشَّها كما تعود أن يفعل مع الحشرات غير المرغوب فيها قبل أن يدرك أنه في

حاجة إلى وجودها، لتملأ على الأقل سكونه، وتعطيه القناعة بالألفة. غابت مدة ثم عادت من تلقاء نفسها بحذر ولكنها سرعان ما استسلمت لطيبة الرايس بابانا. كان يتأملها طويلاً وهي تقاسمه طعامه. كانت دائماً هي السباقة للطعام، كأنها كانت تحميه من أكل مسموم، على الأقل هذا ما تصوره الرايس بابانا. سماها لالة مينة على أمه، كثيرا ما يكلمها في لحظات انكساره.

– «يا لالة مينة، ربي يحفظك ويخليك، وفوق جناح السماء يعلّيك. أنت لستِ ذبابة فقط، أكبر من ذلك. وسيطي لكي لا أسلم في حقي في الحياة التي يريدون انتزاعها مني.»

مع الزمن هي أيضاً تعودت عليه. كلما بدأ حديثه جالساً تحت خيط الضوء المنبعث من السطح ليقلل قليلاً من وحشة المكان، واجهته بثقة المستمع، وبقيت هناك ساعات طويلة لا تتحرك. من حين لآخر تحرك جناحيها ورأسها ورجليها، ثم تعود إلى وضع المستمع. عندما ينتهي، تمسح بأرجلها العديدة وجهها وجناحيها الصغيرين، قبل أن ترفع رأسها نحوه وتذهب لتنام، تنسحب من المكان وتتخفّى في غار صغير مباشرة، في الحائط المضاء بخيط الشعاع المتسرب من الخارج.

كانت الذبابة رفيقه الوحيد في حفرة الموت. تعوّد عليها لدرجة أنه كان دائماً يتساءل ماذا لو تموت يوماً مثلاً؟ عندما

لا يسمع طنينها الواضح حتى في الظلمة، يشعر بأنها مريضة أو خرجت أو ربما... ماتت. يتردد في ذكر كلمة موت الثقيلة عليه. حتى لحظة النوم، يبحث عنها بعينيه قبل أن يقوم من مكانه ليتأكد من أنها على حافة غارها الصغير. وأحياناً يكتفي بسماع طنينها قبل أن يتخيلها بجانبه تبحث لها عن مكان بجواره. أو يناديها هو بنفسه لتقاسمه فراشه عندما يشعر بالوحشة الكبيرة:

- «لالة مينة... الفراش واسع، خذي لك أي مكان تريدين النوم فيه.»

يشعر بها وهي ترف عند رأسه، قبل أن تستقر ليس بعيداً عن وسادته.

كانت لالة مينة هي من خفّف على الرايس بابانا الشهور الأكثر قسوة وظلمة. قاومت معه طويلاً عزلة الزنزانة إلى اليوم الذي بحث فيه عنها صباحاً ليوقظها كما تعود أن يفعل، عندما ارتسم الشعاع الحاد المتسرب من الأعلى على الحائط الخشن، فلم يجدها في مكانها المعتاد. ثم فوجئ بها معلقة في عش عنكبوت لا يعرف كيف نشأ، ولا العنكبوت من أين جاءت؟ حزن كثيراً لأن الصّمت زاد قسوة واتساعاً في الزنزانة. ثم رتب خطة للانتقام من العنكبوت. قضى أياماً متتالية متشابهة بلا

جدوى، قبل أن يرى العنكبوت البشعة وهي تخرج من ظلمة غاره وتشرع في أكل النصف المتبقي من جسد الذبابة الذي ظل معلقاً مدة طويلة. وكأنها لم تشبع، فخرجت في البداية برأسها فقط وبدأت تتفحّص المكان بملاقطها الحادة في انتظار ضحية جديدة. انتظرها حتى أصبحت بعيدة كلياً عن غارها. في يده بلغته العتيقة التي جاءته بها والدته لالة الزهراء في زيارتها الوحيدة. عندما أصبحت العنكبوت خارج غارها بكامل جسمها البشع، وبسرعة برقية، ضربها بلا رحمة، وبكل ما ملك من قوة، حتى لا يخطئها، فألصقها في مكانها لتتحول مع الوقت إلى لطخة سوداء. ثم ذهب ليرتاح وهو يشعر بأنه حقق انتصاراً استثنائياً على أكبر ظلم عاشه في الزنزانة. قوة الضربة الجافة جاءت بالحارس الذي فتح كوة الباب، ليتعرف على مصدر الضجيج الفجائي، وسط السكينة القلقة. ضحك عندما رأى الرايس بابانا وفي يده بلغته. التفت نحو صاحبه وهو لا يستطيع أن يكتم ضحكته التي أرجع صداها بهو السجن الطويل كالصراط المستقيم.

- «شفت؟ الرايس بابانا راح فيها. ضربها بهبلة. أعتقد أن وصفة العزلة نجحت.

لم يضحك الثاني وهو يرى الرئيس من وراء الكوة منكفئاً

على نفسه، في وضع جنيني، ومثير للشفقة.

- هذا هو الرايس بابانا، أكاد لا أصدق؟ لقد نحف كثيراً. والله يحزنني؟ لا يمكن أن يُفعل به هذا، الأفضل أن يُقتل إذا كان قد أوصل البلاد إلى الخراب أو اتهم بالعمالة، أو يُطلق سراحه إذا لم يفعل ما يؤذي البلاد والعباد؟

- بيني وبينك التهمة غير واضحة. خلينا منه. كانوا حابين يقلعوه، قلعوه. ما تحوس تفهم. اللي رقد مع يمَّا هو بابا، كما يقول المثل الشعبي، ولن أحاول أن أسأل لا عن فصله ولا جنسه، ولا حتى عن ربه.»

ثم انتفيا داخل البهو الطويل.

أصيب الرايس بابانا بكآبة طويلة دفعت به إلى التفكير في أسهل وأقسى الحلول: الانتحار. مرض. لم يتجرأ على أن يقول للطبيب عن سبب آلامه وكآبته. مريض بسبب ذبابة أوجدتها الصدفة، كانت تؤنسه؟ سيعتبره مهبولاً ويُقاد في اليوم التالي إلى مستشفى الأمراض العقلية. أصبح يشكّك هو نفسه في ملكاته العقلية. لم يخرج من وضعه الذي كسره بعمق إلا عندما دخلت عليه بالصدفة فراشة بيضاء وهي ملتصقة بصحن الأكل. نحيلة. لم تأكل شيئاً. بمجرد أن أصبحت في القاعة التصقت يوماً كاملاً بالسقف. كلما اشتعل الضوء دارت

حوله قليلاً قبل أن تختفي. وكأنها لم تكن معنية بأي شيء آخر سوى بالنور الهارب. لا تُحدث أي صوت. حتى عندما يقترب منها لا يسمع إلا رفرفات جناحيها قبل أن تستكين. عمرها كان أقصر من عمر الذبابة. سرعان ما احترقت بسرعة والتصقت بحرارة زجاج اللمبة التي كان السجانون يشعلونها ويطفئونها وقت ما يشاؤون. يوم احتراقها شم رائحة جسدها الهش الذي تطاير منه الكثير من الغبار الأبيض بسبب ضرب أجنحتها في كل الاتجاهات قبل أن تستقر. لم يكن الرايس بابانا قادراً على إنقاذها لأن اللمبة كانت عالية وملتصقة بالسقف. التصقت يوماً كاملاً قبل أن تسقط من تلقاء نفسها وتتفتت. تحولت إلى رماد. شعر بمغص في بطنه. تقيأ يومها كثيراً، وساد الصمت والبياض الغريب والسواد والرطوبة التي لا يراها إلا من خلال الرسومات التي تحدثها على الحيطان. كتب قصيدة عنها في ورقة طائشة سرعان ما أكلها عندما أخرجوه للاستنطاق من جديد.

لم يكن يونس مارينا يعلم أن قصصه وأوهامه وخرافاته عن الرايس بابانا ستشد الناس إليها بقوة. حتى هو لا يعلم إذا كان ما يرويه حقيقياً؟ وإذا كان كذلك، فأين سمعه؟ اختلط عليه الصحيح بما تخيله. كان يستلذ بسماع التعاليق في

مقهى النجمة. يشرب قهوته الباردة في الزاوية كالعادة، ثم يسمع، ومن حين لآخر لا يستطيع كتم ضحكته.

لا يعرف رواد المقهى عن يونس مارينا سوى كونه ابن شهيد كان صديقاً للرايس بابانا. فقد كبرا مع بعض في مدينة لالة مارينا، كما كانت تسمى.

بعد أن شبعوا من الحديث عن عشيقة الرايس بابانا التي حولوها هم أيضاً إلى حقيقة تشبه كل واحد فيهم، بدأوا يؤمنون بأن الذي يقف وراء المقالات الغريبة والدقيقة عن يوميات الرايس بابانا في السجن، لابد أن يكون اسماً مستعاراً لصديق قديم في الثورة يعيش معه في الزنزانة، في وضع أكثر حرية وإلا كيف يمكنه معرفة كل هذه المعلومات؟ كان رواد المقهى يشعرون براحة كبيرة، لأن الرايس بابانا أصبح له من يوصل أخباره من الداخل. بعضهم ذهب بعيداً في الحكاية وارتاح لفكرة أن من يسرب المعلومات لابد أن يكون أحد العقداء المتخفين والمقربين من الرايس بابانا.

استمر في طريقته ولم يغيرها حتى عندما سجن العقيد الكثير من أصدقاء الرايس بابانا. ينزل هو إلى السوق الشعبية المكتظة بالباعة والمشترين. هناك يخرج ورقة المائة دينار الكبيرة وقد لفت في أعماقها المقالة. كل شيء يمر بسرعة أمام

بـائع الخضر أو السمك أو اللحم. ثم يفترقـان.

مقاله الأخير ذئـاب العقيد كـان أكثر حدة من كل مـا سبق. تحدث فيه عن الشخص الـذي كـان مكلفاً بتعذيب الرايس بابـانـا. دخل يونس مـارينـا في عمق المعذب وحربـه النفسية ضد الرئيس، ليقوده نحو الجنون بعد أن فشلوا في طرقهم السابقة. وصل إلى حد تخيل الرئيس وهو يسأل زبـانيتـه:

– «لماذا تفعلون هذا مع رئيس لم يفعل شيئاً يسيء إلى البلاد، أعطى زهرة شبابه لتحريرهـا؟

ساد الصمت لحظات قبل أن يرد عليه الرجل البدين لأن الخمسة الذين كانوا معه كانوا كلهم ضعافاً. كان يحمل على كتفيه رموزاً عسكرية تشير إلى رتبته العالية. كان يتصبب عرقـاً:

– مـأمورون.

– ضد أول رئيس للجمهورية؟

– أنـت الآن لا شيء يا سيدي الرايس بابـانـا. أقـل من حشرة.

تذكر الذبابة وكاد يقول إن الحشرة أنبل منكم.

– أعرف أنكم مـأمورون وأعرف أنكم بشر ومؤمنون بـالحق أيضـاً .

– الحق هو ما يخرج من فم العقيد. ما عداه كذب وبهتان.

– العقيد ليس محقاً. ظالم. إلى اليوم لا أعرف السبب الذي سجنني من أجله.

– لا يهم يا سيدي الرايس بابانا. نحن ذئاب العقيد. كبرنا في حضنه وهو حمانا من موت أكيد. يأمرنا أن نجلس هنا بالقرب منك، نجلس. أن نلحس بولك وننظف «خراك». نفعل بلا تردد. أن ننبح في وجهك طوال الليل والنهار، نفعل. أن نعريك ونلبسك بلا سبب، نفعل. يأمرنا بالعض، نعضك. يعطينا إشارة طحنك وسحقك، لن نتردد لحظة واحدة، نفعل ذلك بلا أدنى ندم، بل ربما بلذة. أن نأكل لحمك ونفتفت عظامك، أن نشويك، نقليك، نذيبك في محلول الأسيد، نفعل أيضاً ولن نترك أية علامة تحيل إليك. لا شيء يمنعنا من ذلك إلا أمره. أن نفرمك ونحولك إلى كتلة لحمية تشبه الكفتة، ثم ندفع بك إلى الأسواق ليأكلك الجياع الذين كنت تدافع عنهم، نفعل ولا نسأل عن البقية... هل تعرف لماذا يا سيدي الرايس بابانا؟

يجيب بخجل وبذعر ارتسم على وجهه:

– لا. لا أعرف، أنا أصلاً لا أعرف مبرراً لوجودي في هذا المكان، فكيف أعرف الباقي؟ لو طلب مني العقيد أن أترك الكرسي لغيري كنت فعلتُ، أليس هو من فرضني؟ وُضِعت في

هذا المكان برضاه. كان يمكن أن أذهب أيضاً برضاه. أنا لم أفعل ما يؤذي هذه الأرض.

– لم تفعل ما يؤذي، هذا أمر آخر ستناقشه عندما تقف عارياً أمام التاريخ، يهمك أنت والعقيد، ولكنه لا يهمني أنا وجماعتي. سنفعل كل ما يأمر به العقيد، لأننا كلابه وذئابه أيضاً ، وإذا لم نفعل، ستفعل بنا كلاب أقوى وأضخم منّا الشيء نفسه وربما أسوأ مما نقوم به معك. أمك لم نرحمها لأنه كان يجب علينا أن نثبت أننا كلاب وذئاب حقيقية وليس من كارتون.

– ولم ترحموها. لم تكن تحمل إلا حبها لابنها.

– نتلقى الأوامر من جهة عالية ربما كانت أقوى من العقيد نفسه. طُلب منا أن نعرّي لالة الزهراء كما تسميها، قبل دخولها إليك، فعلنا وزدنا من عندنا قليلاً ليعرف الجميع صرامة العقيد. عند الباب، قبل إدخالها عليك، عريناها. رأينا جسدها المتآكل بفعل الزمن. تأملناها، تضاحك بعضنا. لا تستغرب، حواسنا التي نملك ماتت منذ زمن بعيد، وحلت محلها حواس أخرى شبيهة بحواس بعض الحيوانات التي لا سلطان لها على غرائزها، أغلبها من فولاذ، لا يحركها أي شيء. تبادلنا الدوران حولها، تشممناها، وهي تصغر وتضمر، حتى شعرنا

بها تنتفي وتتحول إلى شيء، وتنسى أنها كانت أمّ رئيس البلاد نهائياً. أغمضتْ عينيها على بكاء مر. شعرتْ بنفسها أنها أصبحت فجأة لا تساوي بصقة في الطريق، لا شيء، وهذا ما كنا نودّه. تهديم الخصم في ثقافتنا هو أن يشعر أولاً أنه وحيد ولا شيء يحميه من العزلة والموت الأكيد. بعدها فقدتْ وعيها. لم تكن تهمنا لالة الزهراء في شيء إلا بقدر ما أنها أمك فقط. ثم أدخلناها عليك وهي لا تستطيع أن ترى وجهك وتنظر إلى عينيك من شدة الخجل، كمن ارتكب جرم زنا المحارم. أنت لم تكن تعرف، ولكنها كانت تبدو عارية أمامك، لا يستر جسدها إلا خوفها عليك. نحن لم نفعل شيئاً سيئاً سوى أننا قمنا بواجب ظل يؤرقنا تطبيقه بالشكل الذي يرضي العقيد.»

لم يغير يونس مارينا من عادته أبداً، على الرغم من الوقت الذي مر على لعبته التي جنح فيها بخيالاته إلى أبعد الحدود، معتمداً أيضاً على ما سمعه من الناس الذين عايشوا الرايس بابانا، أو على ما تقوله الجرائد والمجلات التي كان يستلمها من رفاقه لقراءتها سرياً. كلما نشر مقالة، ارتكن إلى مقهى النجمة كعادته يستلذ بما يسمعه من تعليقات. يومها شرب ثلاث كؤوس شاي محلّى، أي كأسين أكثر على المرات الماضية، إذ كان يكتفي عادة بكأس واحدة يطيل فيها ويمططها كما

يريد. لاحظ وهو يشرب كأسه الثالثة أن تأثير المقالة الأخيرة كان كبيراً في الناس، أكثر من المرات السابقة. الكثير منهم أصبح على يقين أن ما كان يحدث متأتٍ من عين قريبة من المكان. من سجن الرايس بابانا.

- «لا يمكن أن تصدر تفاصيل سرية مثل هذه إلا من شخص من النظام نفسه.

- قد يكون واحداً من رجالات الرايس بابانا، أحد رفقاء الطريق، متنكراً في زيّ ذئاب العقيد، وهو الذي يسرّب هذه الحقائق المثيرة ليفضحهم.

- خليه... مليح... سيعريهم وسنعرف على الأقل سيرة الرايس بابانا الذي لم يكن سيئاً إلى هذا الحدّ. لن يجرؤوا على قتله بعدما فُضِحوا نهائياً، وإلا سيشكل ذلك فضيحة دولية تسحب منهم ما تبقى من شرعية ثورية؟ الفضيحة عندما تخرج من أيديهم، تصبح مخيفة.»

لم ينس يونس مارينا في أي يوم من الأيام أن بطاقة الهوية الوطنية la carte d'identité nationale هي دليل صاحبها، ورجل دون هوية هو شخص غير موجود، ويمكن أن يُردَم في أي مكان دون أن يعلن عنه. الهوية حماية لصاحبها. الرايس بابانا لم تشفع له هويته التي تمثل بلداً

بكامله. منذ انقلاب العقيد على صديقه الرايس بابانا، تعود يونس مارينا أن لا ينساها. يرجع أحيانا من منتصف الطريق فقط لأخذ هويته الوطنية والخروج إلى الشارع. مارينا لم تعد مدينة عفوية كما كانت، يلتقي فيها الناس حتى آخر الليل، يشترون الخبز والدجاج المحمر واللحم المشوي، أو يشربون شاياً في مقهى البلدية الذي تركه وذهب نحو مقهى العمال: النجمة، منذ أن أصبح مقهى السيكرية المفضل. السيكرية[٣٣] معروفون بألبستهم التي تميزهم وتشبه إلى حد كبير ألبسة رجال الغيستابو. شيء من اللاشعور الجمعي يتحكم في هذا اللباس، يحدده الهندام والرائحة الغريبة، واستقامة مبالغة في الجسم. معطف طويل. تروا كار[٣٤]. وجوه باردة وعيون فارغة، لا شيء فيها يوحي أن بها بعض الحياة، إلا شرارات قلقة لا تستقر على شيء. كلما شم بعض رواد مقهى النجمة رائحتهم، غيروا أحاديثهم، وغرقوا في سلسلة من النكت البذيئة، يستلذ لها هو ويضحك في زاويته قبل أن ينضم لهم وهو يحاول أن لا يكتم ضحكته أمام أحد العمال الذي يناديه:

– أرواح يا صاحبي سرّح مسجونك. الدنيا بخير وأنت قالبها غم على روحك.

---

٣٣ أصل الكلمة من الفرنسية secret، أي السر والقصد منها الرجال السريون. الأمن السري.
٣٤ Trois-quart

- عادة يا عمي موح. نحب نكوم لوحدي.

- أرواح يا صاحبي واسمع للكلام اللي يفتح عينيك عن النساء... المرأة يا وليدي...

ثم يغرق معه في قصة نسائية لا بداية لها ولا نهاية.

يتذكر جيداً أنه قبل أن يظهر اسمه يونس مارينا، في القائمة المغضوب عليها، بل المحكوم عليها غيابياً، على واجهات محافظات الشرطة وبعض محطات القطار والحافلات، كان لا يفكر في شيء آخر إلا في مقالته القادمة التي يكتبها بلذة في دماغه قبل أن يحققها على الورق. تأمل الإعلان الذي علق في محطات النقل العمومي والقطارات، والحائط الخارجي للبلدية الذي ينفتح على شارع التحرير حيث كان يوجد في المكان الذي تحول إلى فراغ، تمثال الأموات الذي لم يكن به ما يوحي بشيء استعماري، وكان يمكنه تركه كعلامة لهمجية الاستعمار. شعر في أعماقه بمغص قاس. لقد قدموا للاستعمار خدمة جليلة لم يحلم بها أبداً بعد أن أفرغوا ذاكرة الأجيال المتعاقبة وعوضوها بخطاب ميت، وبأحجار الوديان.

اقترب أكثر من الإعلان في محطة النّقل العمومي. قرأ:

« إن الله لا يضيع أجر المحسنين. تطلب السلطات العسكرية من كل من رأى أوتعرف على العميل المسمى: يونس مارينا،

ومجموعته التي يشتغل معها، وهو من سلالة الحركة والخونة الذين يتحركون بأوامر أسيادهم من وراء البحار، أن يعلم السلطات عنه أو يتصل بأي مركز أمني أو أية ثكنة عسكرية قريبين منه. السرية مضمونة. لقد استكثر الخونة على بلادنا استقلالها، ولكن يد الدولة ستضرب بقوة الفولاذ والنار.»

فكر ملياً وهو يقرأ الإعلان ويتأمل الصور بارتخاء وكأن الأمر لم يكن يعنيه. حتى أنه في أعماقه شعر ببعض السعادة لوجود اسمه ضمن القائمة. صديقه حميد في الاتحاد الطلابي، بأقل من ذلك، حُكم عليه بالإعدام. هرب إلى وجدة، ولكن السلطات المغربية سلمته بعد أقل من أسبوع، لذئاب العقيد فنهشته وكسرت عظامه قبل أن توصله إلى السجن. شعر بحزن عميق لم يخرج منه إلا عندما أيقظه شخص من ورائه وهو يهزه بعنف من كتفه:

– «قل لي يا الشباب، هل عرفت أحدهم؟ هل لديك قريب من هؤلاء المحظوظين؟

التفت نحوه وهو يتحسس رائحته التي تشبه رائحة الذئاب والدجاج معاً. عرفه من لباسه وخزرته الباردة التي شعر بثقلها على ظهره. لا يدري من أين جاءته في اللحظة نفسها ردة فعله القوية وفطنته: اهبل تعيش. أو دير روحك مهبول تشبع كسور[٣٥]:

٣٥ تظاهر بالجنون تشبع خبزاً.

– نعم خويا؟ لم أفهم؟

– هل تعرف أحداً من هؤلاء؟

– وهاذوا شكون[٣٦]؟ كنت أنظر إلى وجوههم وأقول لنفسي هل أستطيع حضور سهرتهم؟ فرقة موسيقية. البركة. لم يذكروا مكان الحفل؟ أنا أيضاً حاب نفرج على خاطري، قتلتني الخدمة. كل النهار وأنا منكفئ على فمي. توحشت الشيخة الريميتي[٣٧].

– لم أفهم، قال الرجل. ثم أضاف:

– واش تخدم؟

– إسكافي. الصبابيط. أحب الأحذية النسائية. قبل ما أدخل فيها المسامير. أشمها. يااااي. أية رائحة زكية. أتخيل نعومة الأصابع والقدمية. أتحسس جلد الحذاء. أشبع حواسي به، ثم أسمّره أو أصلحه. أحذية الرجال... يا لطيف؟ ما عندك ما تشم.

– تتقعّد بي؟ تسخر من عقلي؟

– حاشا يا سيدي. قلت لك أنا كوردوني[٣٨]، ولكن يمكنني أن أحلم. الظاهر أنها فرقة موسيقية، أليس كذلك؟ فرقة متكاملة ولكن بلا شيخات[٣٩] الراي.

---

٣٦ وهؤلاء من هم؟

٣٧– مغنية شعبية وواحدة من أهم مؤسسي فن الراي.

٣٨ الكلمة من الفرنسية Cordonnier وتعني الإسكافي، الكندرجي.

٣٩ مغنيات شعبيات.

هز الرجل رأسه بيأس:

– يا حمار؟ هذه ليست فرقة موسيقية؟ هؤلاء أعداء الثورة. باعوا البلاد ورهنوا الاستقلال.

– الفرقة الموسيقية اسمها: أعداء الثورة؟ والله لم أفهم يا سيدي. فرقة أعداء الثورة؟

– رحْ طر من هنا. كنت أظن نفسي أحكي مع ابن آدم وليس مع دابة.

– ما بها الدابة يا سيدي؟ هي أيضاً خلقها الله.

– وقيل ما رَحْش تَفْرا معك[٤٠]. أنت حمار وأنا وقتي ضيق.»

يتذكر أنه يومها غادر المكان والعرق ينزل على قلبه. لا يعرف حتى من أين جاءته تلك السخرية ولا أين كانت متخفية؟ غادر المكان دون أن يلتفت وراءه حتى لا يتفطن الرجل الغبي إلى أنه هو يونس مارينا. في الطريق، لم يستطع أن يكتم ضحكته وسعادته. فانفجر يضحك وحده أمام بعض المارة الذين أشفقوا على جنونه. فقد شعر فجأة بأنه لم يعد ثانوياً في مدينة مارينا. فقد أصبح مؤذياً لذئاب العقيد، بل ويحسب حسابه مع أنه ليس أكثر من صدفة. ربما كانت سادية متخفية فيه، ولكنه لم يمنع نفسه من الانتشاء. فقد عرف في القائمة

---

٤٠ لن تنتهي على خير معك.

مجموعة منها الرجل ذو الشعر الأبيض الذي كان يصحح له الأخطاء والبلاغة التي قلل منها لأنه هو أيضاً اقتنع بعدم جدواها. كان مطلوباً بصورته الحقيقية. شعره يفضحه في أي مكان. أغلب الوجوه كانت معروفة إلا بعضها القليل وهو. فقد ظل وجهه عبارة عن ظل أسود. مجرد ظل لطفل لا أحد يعرف سره ولا قسماته الرقيقة، ولا هشاشته الخفية.

يوم ألقي القبض على صاحبه المباشر موسى آيت محند لحمر الذي عرف منه في وقت لاحق، معنى الكلمة التي قالها له الرجل ذو الشعر الأبيض: الحزب يستحقك، فشعر بخوف لأول مرة، وهو الذي كان يضحك دائماً من اسم صديقه:

- يا صاحبي أنت زبّلتها. لقد تأخروا في سجنك؟

- ما فهمتش.

- اسمك وحده يحمل فرضية اضطهادك. موسى... آيت محند... لحمر... من اليهودي إلى المسلم البربري، إلى الشيوعي. تهمة واحدة تكفي لإعدامك في أرض العقيد.

نصحه بعض الأصدقاء بالابتعاد عن مقهى النجمة. أدرك بحاسته الحيوانية والبدائية، بأنهم سيأتون نحو أمه. وسيأخذونه. وموسى على الرغم من قوة شخصيته، ونضاله، لن يقاوم طويلاً. قبل أيام قليلة من اعتقاله أكد له عن جدية

المخاطر المحدقة بهم:

– شوف يا خويا. إذا حدث ما لا أريده، أرجوك أن تتخفى. أحرق كل الأوراق والمجلات الممنوعة التي سلمتها لك. أنا جبان وجسدي نحيف لا يتحمل أية مقاومة. أعطيك يوماً واحداً سآكل النار والتراب فيه، ولكن بعدها سأبيعك. عندما يخبرونك باعتقالي، تصرف. اهرب. إلى أي مكان. أبعد عن نظرهم. ذئاب العقيد لا ترحم. ستُطحن إذا عرفوا أنك أنت من يقف وراء كل المقالات الخاصة بحياة الرايس بابانا.

لم تكن أمه مرتاحة. جلس في الصباح الباكر مواجها لها. لأول مرة يتأمل خطوط وجهها التي تعمقت وزاد عددها. أحست بأن يونس مارينا كان يخبئ شيئاً خطيراً.

– ذكرتني به. اللطف يا ربي.

– من يا يمَّا؟

– أبوك الله يرحمه. كلما داهمه الخطر، أجلسني قبالته وحكى لي ما يملأ قلبه.

– لا يوجد أي خطر يا يما. ولكني سأغادر البيت مؤقتاً. لا تسألي عني سأكون بألف خير.

تساءلت بعفوية:

– لماذا يا حميمد يا وليدي؟

– خائف يا يمّا.

- أمك هنا وتخاف؟ من يستطيع إهانة زوجة الشهيد؟

- يا يمّا لم يهينوهن، لكنهم بهدلوهن، والآن يقتلون أولادهن. هل ترضيك يا يمًّا خدمة تنظيف المراحيض في مدرسة المدينة الابتدائية؟

- خدمة والحمد لله. مستورين. خوفتني يا حميمد؟ من هم هؤلاء الذين تتحدّث عنهم؟ ممن تخاف؟

- أنا نفسي لا أعرف يا يمّا جوهرة.

ثم استدرك عندما تذكر قصته الأخيرة.

- خائف من ذئاب العقيد يا أمي.

- ذئاب العقيد؟

كأنه قرأ كل شيء مسبقاً. انزوى في غرفته وأغلق الباب وراءه. الفاصل الزمني لم يكن كبيراً. أحرق كل شيء وهو يرمي الرماد في المرحاض، ويطلق الماء وراءه ثلاث مرات. رآهم ينزلون من سيارة مدنية. السيكرية لهم رائحة. عرفهم. سلم على رأس أمه وهو يتمتم: بقاي على خير يا يمّا. نرجع إن شاء الله. نشوفك على خير. عانقته وهي تضع الكوفية الحمراء في عنقه.

- أعرف أنك لا تحب الكوفيات ولكنها صنعة يدي. كبيرة وستقيك من برد هذا الشتاء القاسي. ربي يحفظك يا وليدي حميمد من كل أذى... ربي يحفظك.

ثم تماهى في ظلال الدروب المجاورة التي كان يعرفها جيداً.

لم يكن أمام أمه، يمّا جوهرة، إلا أن تنكر كل ما عرفته بحاسة شمها. كانت تعرف بعض وجوه المجموعة التي دخلت عليها بشكل فجائي. سألها الشاب الوسيم الذي كان يتقدم المجموعة:

- يمّا جوهرة واش راك؟ مليحة؟

- نحمد ربي يا وليدي. وأنت واش راك؟ ويماك، أختي رقية؟ الله يعظم الأجر في جدتك.

- كانت كبيرة، عاشت بزاف. الله يرحمها.

- كما كان الحال، الروح عزيزة يا وليدي وحارة.

- معك حق. واش راه الزين ديالنا. غزال لالة مارينا؟

- حميمد؟ ربما راح للملعب. مهبول على الكرة. منذ أن خرج لم يعد.

- الملعب مغلق. قالها بشكل جاف. ما تعرفيش وين ممكن يكون راح.

- علمي علمك يا وليدي، ربما راح للقهوة مع أصحابه؟ هل هناك شيء خاص؟.

حاسة شمها بقيت حية ومتقدة مثلما كانت في زمن

الثورة عندما جاءها أفراد من الأمن الفرنسي بلباس مدني، قرأت الخطر في عيونهم كحيوان. كانوا يبحثون عن زوجها. ظلوا معها نصف يوم بلا جدوى. ولكي تغير من حديثها، سألت الشاب عن أمه من جديد:

– واش راها أختي رقية؟ سلم لي عليها.

– لا باس. الحمد لله.

كان برد ديسمبر قاسياً. سألها من جديد:

– طيب لماذا غاب حميمد فجأة؟ مش من عوائده؟ خايف من شيء؟

– خاف من ذئاب العقيد. هكذا قال. خرجت من فمها بعفوية وبنوع من السخرية، وهي لا تدري وقع الكلمة على الأشخاص الذين كانوا ينتظرون ذلك:

– ذئاب العقيد؟

– وليدي يسخر أحياناً. لم يكن جاداً طبعاً؟ أي عقيد. لا يعرف أي عقيد حتى والده الشهيد لم يكن أكثر من ضابط صغير في جيش التحرير الوطني. يمزح عادة مع جارنا الحاج مريزق، صاحب الكلب الضخم، مجاهد كبير في الثورة لا أحد يعرف رتبته العسكرية. لكن كل الناس يعرفون عدد الجراحات التي تلقاها أيام الثورة وبقي حياً. حميمد كان يسميه العقيد

59
الإصدار «٥٩» مارس ٢٠١٢

ليستفزه فيرد عليه: جندي في الثورة أحسن من عقداء طايوان. كلما التقى به، قبل أن يصبح عليه:

. Comment va mon colonel aujourd'hui[٤١]? ثم يضحكان مع بعض ويذهب كل واحد لسبيله. هذا الذي أعرفه.

– ستعرفين يا يما جوهرة عن أي عقيد يتحدث ابنك، بكل تأكيد ليس الحاج مريزق المهبول.

– لا يا وليدي، الحاج مريزق رجل طيب ومستقيم، حياته كلها خسرها على هذه البلاد. أنت شاب ويجب أن تقدر جهد الذين سبقوك.

– واش من جهد يا يمّا جوهرة، شوهوا صورتنا أمام الخارج. قلنا تهنّينا من الحركة[٤٢]، فوجدناهم في فراشنا وطرقنا وحياتنا؟

–؟؟؟ ؟؟؟ ؟؟؟

توقفت الكلمات في حلقها كالشفرات الحادة. أصيبت بالخرس عندما مدّوا أياديهم قبل أن يخرجوا، على الصور المعلقة على الحائط. نزعوها بعنف وبحقد لمع في عيونهم الحادة والصفراء كالبرق. مزقوا بوستر الشيخة الرميتي[٤٣] الذي صاحب خروج أسطوانتها نوري يا الغابة، التي تتحدث

---

٤١ كيف هو سيدي العقيد اليوم؟

٤٢ الخونة.

٤٣ سيدة الأغنية الشعبية الجزائرية (الرّاي) الأولى، منذ الخمسينيات.

عن المجاهدين والشهداء. صورة الرّايس بابانا وهو يبتسم بصحبة رفاقه الخمسة، يوم حولت بهم الطائرة التي كانت تقلّهم من المغرب. الذي جرحها بمرارة قصوى، صورة زوجها الشهيد الوحيدة، في جلابة وبرية يظهر من تحتها رشاش فرنسي، من عيار ٤٩، التي قضى معها يونس مارينا ليالي كثيرة وهو يلصق مزقها ويرممها.

ثم سحبوها في سيارتهم وهي لا تعرف بالضبط لماذا؟ حتى عندما سألت بِحَيْرة كبيرة: لوين رايحين يا وليدي؟ لم يجبها أحد من الشباب. رُميَتْ في حفرة باردة كالقبر، وبقيت فيها شهوراً متتالية لا أحد يعلم ما حدث لها بالضبط. عندما خرجت ورآها الناس لأول مرة، لم تخرج من السجن ولكن من مستشفى الأمراض العقلية. قيل إنها أصيبت بمس من الجنون، فأصبحت تتعدى على المارة. فحاولت الدولة إنقاذها والحفاظ على صورة الشهيد الذي تحمل اسمه، بإدخالها إلى المستشفى، لكن وضعها كان قد استفحل. يرددون بغباوة ذلك ما عدا الأقلية. فقد فقدت عقلها وسمعها ولم يبق من نظرها إلا القليل. لم يستوعب الحاج مريزق جارها ما سمعه عنها. كان متأكداً من أنها فقدت عقلها بسبب التعذيب، وأن حكاية المستشفى لا تعدو أن تكون مجرد مسرحية سخيفة. لقد رآها وهم يسحبونها

من بيتها، لأنه هو من فتح باب بيته على حميمد ليخبئه من شرهم بعد أن بقي معلقاً في الزاوية الخلفية. كان يغلي في داخله بعد أن اشتعل دمار الخيبة فيه: كيف توضع في حفرة باردة زوجة شهيد لم ينشف دمه، لم يفعل شيئاً سوى أنه عض على الحديد كي لا يموت غيظاً؟ كيف يُحلَق شعرها في آخر عمرها؟ ويُخترق جسدها ليصبح مزرعة للقتلة؟ بكى طويلاً عندما رآها تقف أمامه، وتتحسس ملامحه وهي تبكي: شفت يا خويا مريزق واش داروا فينا؟ احذر من ذئاب العقيد فإنها أسوأ منه، وبلا رحمة. لم يتمكن من السيطرة على دمعاته المنكسرة. في أحد الصباحات العاصفة خرج ولم يعد. يقول الذين رأوه إنه مر على قسمة الحزب، سلم بطاقة انخراطه. ظنوه مجنوناً عندما صرخ في وجوههم: لا أنا منكم ولا أنتم مني. ثم على مقرّ منظمة المجاهدين، أرجع لهم الأوسمة والشهادات والأوسمة التي مُنحت له على مدار السنوات الثلاث اعترافاً بجهوده ونضاله. ثم على الثكنة العسكرية، في وسط المدينة والملتصقة بمستشفى المدينة، ترك فيها رتبة مقدم التي اكتسبها في جيش التحرير بجدارة. وبعدها غاب نهائياً ليس فقط من بيته ولكن من مدينة مارينا كلها. بينما ظلت يمّا جوهرة تدور في الشوارع تسأل المارة عن زوجها الذي خرج

ولم يعد. عن ابنها الذي سرقته ذئاب العقيد. الذين يعرفونها جيداً كانوا يبكون كلما صادفوها في الطريق. بعضهم يعطيها ألبسة وآخرون يغطون رأسها قبل أن يستعيدها موسى آيت محند لحمر بعد خروجه من السجن، ويأخذها إلى بيته مع زوجته وأولاده. فبقيت عنده حتى ماتت بين يديه. كانت دائماً تسأله عن زوجها، مرة واحدة سألته عن ابنها الذي سرقت الحفرة الباردة ملامحه:

– ربي يحفظك وليدي لحمر، قل لحميمد أن لا يأتي، إنهم يبحثون عنه. ذئاب العقيد تريد قتله.

– ما يكون إلاّ خاطرك يمّا جوهرة. ارتاحي أنت فقط، والباقي علي. سأتصرف بما يريحك.

– وإذا ركب رأسه وحب يجي؟ أعرف أنه عنادي. قل له أن يأتي مباشرة عندك. إلى الدار .ذئاب العقيد تنتظره هناك. وقل له أن يوقظني من نومي لأني اشتقت لبسمته.

وعدها أن يفعل. طلبت منه أن يرفع رأسها قليلاً. حاول أن يسندها بيديه المرتجفتين. حاول أن لا يظهر خوفه عليها. كانت هشة إلى أقصى الدرجات. نظرت إلى وجهه ملياً. لم تتكلم. تنهدت طويلاً ثم همدت. وعندما بحث عنها، كانت الحياة قد فارقتها.

المرة الوحيدة التي مر فيها موسى لحمر على باريس في مهمة علاجية ميؤوس منها، زار يونس مارينا في بيته وكانت المرة الأولى والأخيرة. منه عرف كل التفاصيل التي ظلت تحرقه في قلبه. كان ذلك بعد إطلاق سراحه بناء على منشور مجلس الوزراء والمرسوم الرئاسي الخاص بالمعتقلين السياسيين. يتذكر لحمر التاريخ جيداً. بالضبط في ٢٨ ديسمبر ١٩٧٨. بعد ١٣ سنة من السجن، و٦ أشهر و٨ أيام.

زاره موسى لحمر الذي أقسم أن لا يغادر مدينة مارينا إلا عندما يغادرها العقيد نهائياً، في باريس. العقيد عانى الأمرين قبل أن يرحل عن هذه الدنيا. الغريب أنه عندما توفي شعر لحمر بمرارة كبيرة لأنه فقد خصماً عنيداً. العقيد كان نحيفاً ولكن بنيته قوية. بدأه مرضه الغريب بعد رحلته إلى دمشق في ٢٠ سبتمبر ١٩٧٨، وقد لاحظ عليه وزيراه المقربان تعبه غير العادي، وصفرة وجهه. الفحوصات الأولى بينت وجود خلايا سرطانية في المثانة. اختار أن يعالج في الاتحاد السوفياتي. فبقي هناك من ٢٩ سبتمبر إلى ١٢ أكتوبر. زاره خلالها أخوه ببطاقة سفر من مال الخزينة العامة، فانزعج العقيد وطلب أن تخصم تكلفة سفر أخيه من راتبه. عندما أخبره الأطباء بخطورة الوضع الصحي، طلب أن يعاد إلى أرض الوطن. أُدخِل

بعدها إلى المستشفى الوطني العام، لينطفئ في ٢٩ ديسمبر ١٩٧٨ ويُدفن في مقبرة الشهداء. حضر دفنه أناس كثيرون، حتى بعض الذين عانوا من جبروته.

– على كل الصفح لا يحتاج إلى نقاش طويل، ولكنه قيمة انسانية داخلية. إما أن نشعر بها أو لا. نجهد أنفسنا أحيانا لنجبر القلب على التسامح لكن شيئاً فينا يظل قلقاً ومعلقاً بذاكرة الرماد.

لاحظ يونس مارينا يومها أن لحمر شاخ بسرعة. جسده بدأ يخذله في وقت مبكر. كان منكسراً. يمشي بشكل معوج وبساقين منفرجين. عندما سأله هل يمكن أن يساعده على العلاج. ضحك لحمر بمرارة.

– لا يا عزيزي حميمد. جيت نشوفك فقط وأملأ قلبي بملامحك الطفولية التي لم تتغير كثيراً للمرة الأخيرة، وأعتذر منك. كل ما حدث لك من آلام كنتُ وراءه. أنا من ورطك يا عزيزي. ظننت أننا يمكن أن نغير العالم بسهولة كبيرة ونسينا أن القتلة كانوا أشرس. لم نكن نحمل إلا أفكارنا، وكانوا يحرقون كل شيء يفكر. كانوا يا عزيزي أسوأ من غوبلز[٤٤]، يحفرون حفر الموت لكل من يخالفهم، ويفصلون القلب عن

---

٤٤ وزير الإعلام والدعاية النازية خلال الحرب العالمية الثانية Paul Josef Goebells صاحب المقولة الشهيرة: كلما سمعت كلمة ثقافة، تحسست مسدسي. ظل وفياً لهتلر ولمشروعه حتى النهاية إذ انتحر هو وزوجته بعد أن سمّما أبناءهم الستة، مباشرة بعد انتحار هتلر وزوجته إيفا براون.

حنينه وأشواقه وذاكرته، ولم يكتفوا بتحسس مسدساتهم كما كان يفعل غوبلز الذي كان يتحسس مسدسه كلما سمع كلمة ثقافة، ولكنهم ذهبوا إلى استعمال هذه المسدسات مثل الذي يلعب، وساروا على هدي شعار: كل من ليس معنا، فهو ضدنا. المهم... سعدت برؤيتك. السرطان انتشر والسلام وأنا تعبت أيضاً منه. المشي المعوج لن يُصلح. الحياة نفسها أصبحت ثقيلة جداً. لا تحزن يا حميمد. انس صديقك لحمر المليء بالحياة والنشاط. هذا ما تبقى من لحمر الذي ركض معك في كل مكان. لم أكن أتصور أن جسدي سيقاوم القتلة. يوم ألقي القبض علي سألوني عنك كثيراً. تحملت أربعاً وعشرين ساعة دخلت بعدها في حالة غريبة وهي فقدان الإحساس من شدة ألم التعذيب. لم يحصلوا على أي شيء مني. كنت أضحك في أعماقي عندما يسألونني عن الشبكة التي ينتمي لها يونس مارينا، وعن الجهات التي تموله وتسرب له المعلومات، وأقول: يااااه لو يعرفون من هو يونس مارينا؟ طفل مليء بالحياة. لا يقول إلا ما يملأ قلبه نوراً وتمادياً في الأشواق. رفضتُ تكفل وزارة الصحة. قلتُ لهم من الأفضل أن تحتفظوا بتلك النقود لغيري، فهي لن تنفعني. لقد استفحل الضر ولم يعد شيء يجدي إلا توديع الحياة ببعض المصالحة مع الذات. كل ما تراه من

انكسار في مشيي واعوجاج في مشيتي، كان بفعل القناني والخوزقة. ماذا تصلح في تمزقات منتهية؟

– لماذا تركت الأمور تستفحل إلى هذه الدرجة؟

– حصل وانتهى. أقسمت أن لا أغادر البلاد إلا اذا مات، غريمي، العقيد. وها هو قد انتهى. لم آت إلا عندما دُفن. الله يرحمه، ويغفر له أيضاً. اتضح يومها أن الشعب كان يحبه ولم يعد لرأيي أي جدوى. قبلت بالحكم، لأنه يبدو أنه هو أيضاً تغير قبل موته بقليل. مشكلة الوطنيين، يمكنهم أن ينتقلوا بسرعة من المناضل إلى الطاغية الصغير.

– سامحته بعد كل هذا؟

– سامحته. لم يكن أمامي سوى ذلك، أو أحمل حقدي معي إلى قبري. أنا أريد أن أرتاح يا صديقي من شطط الدنيا. تعبت. حقيقة تعبت.

– كأني لا أعرفك؟

– كلنا تغيرنا يا عزيزي. ثم هل يوصل الحقد إلى راحة البال؟ لا.

– قلبك طيب. أنا لم أستطع. لقد سرق مني وطني وماما جوهرة، وعمي مريزق ووووو... وحياتي وحياتك. تعذيبه لك وحده يجعلني غير قادر على التسامح معه.

- لو كنتَ بأرض الوطن كنتَ عذرته. الرايس بابانا نفسه في تصريح لمجلة لبنانية مباشرة بعد خروجه من السجن، وجد له كل أعذار الدنيا. الناس تغيروا بعدك يا حميمد. الدنيا وقسوة الحياة، غيرت العقيد أيضاً . حماقاته لا تحصى، لكن انتسابه للفقراء ووطنيته كانا صحيحين.

- حتى هتلر كان وطنياً على طريقته يا عزيزي. أنا أمامك الآن، أعيش وأحاول أن أحب الحياة قدر المستطاع؟ هربت إلى هذا المكان كأي قط خائف لا من الموت، ولكن من المبهم. أصعب شيء هو أن تواجه شيئاً مبهماً وغير مرتقب. الموت في هذه الحالات أرحم. كل شيء يأتيك أسوأ مما تنتظر.

- لكن لا يمكنك أن تسقط عليه حقه في وطنه وحبه له.

- وطنيتهم الزائدة تسقطهم دوماً في الفاشية والطغيان ولا يستيقظون من أوهامهم إلا بعد فوات الأوان. بعد أن يسموا البلاد والعباد بنارهم القاسية. وعندما يفتحون أعينهم يكون الكرسي قد التصق بمؤخراتهم حتى الموت. يحكمون باسم الشعب ويقتلون من يخالفهم باسم الشعب أيضاً .

- أنا عفوت عنه لأنني في حاجة إلى تهوية الذاكرة حتى أموت مرتاحاً. الذاكرة المثقلة متعبة.

- الرجل الطيب، صاحب الشعر الأبيض؟ هل تعرف أني

أهديت له ولك كتاب: ذئاب العقيد.

- قرأته. أشياؤك كلها تصلنا. عمي أحمد الذي كان يصحح لك نصوصك؟ لم يظهر من يوم أخذه رجال الأمن العسكري. قيل إنه أدخل في حمام مغلق، يصعد منه بخار الأسيد الذي يسلخ اللحم قبل أن يأكل كل شيء ولا يبقي إلا العظم. الله أعلم ماذا حدث له، ولكنه انطفأ نهائياً. سألت عنه كثيراً وتأكد لي لاحقاً أنه قتل، ودفن في مكان سري.

- كيف نسمي هذا كله؟

- الخوف. أخطر شيء يصيب بلداً هو الخوف. الكل يخاف من الكل.

ثم صمت ورشق بصره في الفراغ.

لم يبق موسى لحمر في باريس إلا شهراً واحداً. في الأسبوع الأخير الذي سبق عودته وموته، تعشى عند يونس مارينا للمرة الثانية. وودعه. لم يرحمه المرض الذي كان يأكله من الداخل وجره وراءه طوال عشر سنوات سجناً. قال وهو يحضنه بعمق وكأنه يفعل ذلك للمرة الأخيرة:

- الدنيا تغيرت يا حميمد كثيراً. ومارينا أصبحت مدينة كبيرة. لماذا لا تعود إلى أرضك؟

- كل شيء تغير، لا البلاد تعرفني ولا أنا صرت أعرفها.

– لقد أصبحت كاتباً كبيراً ولا أحد يتجرأ على أن يمسك. والمنفى قاتل يا عزيزي.

– هل تتذكر؟ أنت تريد أن تتخلص من ذاكرة وربما دفنتها حية، أنا أريد أن أتخلص من ذاكرتي ولكن بي رغبة محمومة لأسالها لماذا كل هذا الضياع وهذه الفداحة.Pourquoi ce gâchis? au profit de qui?وأضع عيني في عيني قتلة أمي وعمي أحمد وعمي مريزق وغيرهم، وروحي، وأسألهم سؤالاً واحداً، وربما بدوت لهم سخيفاً في سؤالي: لماذا كل هذا؟ بماذا استفدتم؟ أريد إجابة. لا أكتفي بالأقدار ولا مشكلات ما بعد الاستقلال. اللاعقوبة هي التي تشجع القتلة على التورط في القتل.

– ومع ذلك عليك أن تكون أكبر منهم.

– يا لحمر خويا يبدو أن سنوات الفرقة وسعت الهوة بيننا. أغفر عندما يقفون أمام القانون. لقد سرقوا مني أجمل عمر. لم أعد بحاجة لهم، ولكني بحاجة إلى ترميم الكسر العظيم الذي تسببوا به فيَّ.

– كسروا بلاداً بكاملها يا عزيزي. ومع ذلك، عليك أن تخرج من هذه الدائرة المغلقة. المنفى دخلتَه من لعبة لم تقدر مخاطرها وعليك أن تخرج منه بعقل، وإلا ستطحنك اللعبة

التي بدأتها إذا تماديت فيها، حتى النهاية. ماذا نساوي أمام بلاويهم السابقة؟ حتى الشهداء لم يسلموا منهم.

– وهذا مبرر آخر لكي لا نغفر لهم. أن نسمعهم. أن يسمعهم الجميع.

– بعد أكثر من خمس عشرة سنة من استقلال البلاد لم يرتح شهداؤنا الذين يطرزون الشوارع والمدارس، والمواقع الحكومية، والاحتفالات الدينية والوطنية. الشهيدان عميروش والسي الحواس؟ تصور؟ بقيت رفاتهما في ثكنة علي خوجة، في مرتفعات العاصمة، خمس عشرة سنة قبل أن يجدوا لهما الطريق إلى مقبرة الشهداء؟ لماذا؟ حتى قائد الدرك الوطني، عندما سُئل، لم يقل لماذا أبقاهما في الثكنة تحت أمرة قيادة الدرك، كل هذا الوقت؟ كل الإجابات ستظل معلقة، بعضها سيُفكُّ كلياً، وبعضها الآخر جزئياً، والباقي سيموت في بحر التاريخ مثلما تموت الحروب الظالمة والعادلة أيضاً .

– جريمة. قوة العقيد متأتية ليس من جبروته فقط ولكن أيضاً من أسراره وغموضه. وكل من يأتي يضيف عليها من أساطيره، ويمضي. لماذا كل هذا؟

– سأكون أسعد إنسان إذا منحوك إجابة تعيدك إلى ترابك.

– أعود لمن يا لحمر خويا؟ أمي ماتت.

- أمك ماتت بين يدي، مع ذلك البلاد تنتظرك.

أحنى رأسه جمع كل قواه للمرة الأخيرة لكي لا يموت حنقاً.

- بلادي؟ قصدك بلادهم؟ لا أرض لي يا عزيزي إلا لغتي. بلادي دفنتها في قبر أمي. ينامان اليوم تحت التراب نفسه والشمس نفسها وفي القبر نفسه، ويتظللان تحت الشجرة نفسها. الأم هي أكثر من امرأة عادية. الحبل السري الذي يربطنا بتربة الأرض. هل تعرف أي موت تموته عندما تحرم من أمك حتى وهي ميتة؟ هل تدري أني غفرت لقاتلي والدي، قلت هي الحرب أكبر من البشر أحياناً؟ كيف أغفر لمن منعني من السفر نحو رماد أمي؟ أحتاج إلى قوة أخرى غير هذه. اخترت قدراً آخر، هو الكتابة لكي أشفى من الوطن ذاته.

شعر موسى لحمر بقسوة الكلمات وحدَّتها وهي ترتشق في عينيه، تسبقها خطوط قاومت طويلاً قبل أن تنزل على وجهه. ثم التفت نحو فراغ شعر بمرارته التي تشبه التيه مصحوبة بعنف المبهم الذي كان يرتسم في كل مكان. لم يقل شيئاً في ذلك المساء الباريسي البارد. كان عارياً حتى من نفسه. عندما عانقه للمرة الأخيرة شعر يونس مارينا برغبة قصوى في البكاء على صدر لحمر الذي قاوم حتى الموت ليمنحه حياة

كان يمكن أن تتوقف في لحظة إلقاء القبض عليه. فقط، حتى يسمح له بالهرب والابتعاد عن مواقع الخطر. تمنى الاعتذار منه لأنه سرق جزءاً كبيراً من سعادته، ولكنه لم يرد أن يثقل عليه. كان لحمر منهكاً. شعر برغبة قصوى للتعلق أكثر بالكتابة.

فاجأه موسى لحمر في غفوته:

– ربما كنت محقاً.

– ربما كنتَ أنت المحق. رد يونس مارينا.

ثم غاب لحمر بسرعة وراء الزجاج الثقيل لمطار أورلي. لم يلتفت وراءه.

بقي يونس مارينا في مكانه مسمّراً للحظات طويلة. حتى الشاي المسكَّر الذي طلبه وتعوّد أن يشربه، برد، مثلما كان يفعل في مقهى النجمة عندما ينسى نفسه ويغرق في أحاديث الناس وهم يستعيدون قصة الرايس بابانا كما قرأوها في الجريدة السرية. مرت أمامه كل الوجوه الطيبة، قبل أن يوقظه وجه عمي أحمد، صافياً وهو يقف على رأسه:

– جهدك كبير يا يونس، ولكن قلّل من الإنشاء يا ابني. الإنشاء يضيع المعنى. اكتب مثلما تشعر وتحس. اللغة متوّهة، لا تتركها تهرب بك حيث تشاء هي، وليس حيث مشيئتك. قاوم غيها. لو كانت امرأة لقلتُ لك اذهب وراءها وأعطها كل ما

تملك، ولكنها وَهْمٌ ساحر وخطير.

في البداية شعر باضطهاد عمّي أحمد، فبذل جهداً كبيراً لكي لا يكرهه أو يتركه. مع الزمن تأكد من أن ملاحظاته كانت حقيقية. تخلص بصعوبة من الزوائد فأصبح نصه صافياً. هكذا قال له لحمر أيضاً.

عندما رشف الرشفة الأخيرة من الشاي البارد، شعر بآلام حادة في صدره، وبدمعات ساخنة وهي تحرق خديه. رأى فجأة عمّي وهو يستر وجهه بيديه عبثاً لتفادي مرشات الأسيد، التي كانت تنزل عليه وتعري عظامه شيئاً فشيئاً، قبل أن تتهاوى العظام الواقفة، وتتفكك كل روابطها، وتتحول في رمشة عين إلى كومة بيضاء من العظام. كومة صغيرة لا شيء فيها يثبت أنه عمي أحمد، الرجل الجميل والطيب ذو الشعر الأبيض الذي كلما اخترقت شمس المساء نوافذ مقهى النجمة، لمع كالفضة.

– من فضلك Your ticket please. Votre ticket de voyage SVP[٤٥].

نزع السماعتين. أيقظه صوت العامل وهو يطلب منه بطاقة سفره. ثقبها مرتين ثم أعادها له وواصل حركته في بهو القطار السريع.

---

٤٥ بطاقة سفرك من فضلك.

خرج يونس مارينا نهائياً من غفوته التي حلقت به طويلاً في خوف نبت فيه. نظر آلياً إلى الوقت الهارب. لا تزال أمامه ساعة بكاملها. فوجئ بتعب الظهر قد زال نهائياً على الرغم من اعوجاج جسده في نومه على كرسيه، ووجه لوليتا الذي انطفأ من عينيه، وتحوّل إلى مجرد غمامة هاربة، لا لون ولا رائحة، ولا عطر أيضاً .

« كذبة صنعت مني كاتباً؟ صدفة قاسية واستثنائية، رمت بي نحو المنافي، سرقت مني حياة ومنحتني أخرى؟ وصدفة أسوأ تضعني الآن على رأس المهددين بالموت؟ »

عاد يونس مارينا إلى سماعتيه. ثم اندفن من جديد في أغاني إديث بياف.

الفصل الثاني:
انتظار على حافة النهر

-١-

عقارب الساعة المعلّقة على الحائط تتحرك بثقل كأن قوة ما تجذبها إلى الوراء. لا شيء سوى السكينة القلقة وبعض النقرات على آلة قديمة للكتابة، آتية من زاوية ما داخل البناية الآجورية الثقيلة التي تشبه قلعة ضخمة تنتظر، عدواً غامضاً يأتي ولا يأتي.

الحركة في مركز الشرطة انعدمت كلياً للحظات.

عندما رن التليفون الأحمر كانت الساعة قد تخطت منتصف الليل بدقيقتين. شعر دافيد إيتيان بسعادة كبيرة لأنه كان يريد أن يذهب إلى النوم. فقد ظل متيقظاً في انتظار المكالمة التي تحرره من الزمن الذي يشبه كتل الرصاص. طبيعة دافيد إيتيان. لا يريد أن يترك أي شيء للصدفة. أحسَّ بثقل في رأسه بسبب الشقيقة التي كلما تجاوز العاشرة ليلاً، استيقظت فيه بقوة لدرجة أنه يشعر بعدم القدرة على تحمل الآلام.

فتح العلبة الصفراء المرمية على مكتبه. أخرج قرص دوليبران[٤٦]. شربه. ثم مدّ يده بسرعة نحو السماعة.

– نعم عزيزي... روجي... معك دافيد. مرحباً.

– RAS لا شيء يثير الانتباه. رجع الهدف من فرانكفورت

---

٤٦ Doliprane.

بكل الخير. قد تكون التهديدات مجرد محاولات عمياء للتخويف.
ولكن...

– الأفضل يا عزيزي روجي أن نفترض الأسوأ على أن نظل في الفقاعة المريحة ونفاجأ بعدها بكارثة. لا يوجد إذاً ما يوجب تسجيله أو ملاحظته؟

– كل شيء عادي. وصل في آخر قطار سريع باريس – فرانكفورت. انتقل قبل قليل من محطة الشرق بلا أي إشكال. عاد وحيداً كعادته إلى بيته. لا شيء في محيط البيت. كل الأمور تبدو عادية.

– يمكنك يا روجي أن تدخل أنت وفريقك. شكراً.

– على كل حال ما زلنا في محيط البيت. نبقى قليلاً وبعدها نلتحق بك في المركز.

– الحياة كلها ارتبكت منذ التهديدات الغامضة. أتساءل إذا لم يكن من الأجدى إخبارهم جميعاً بكل المخاطر المحدقة بهم بالتفصيل الممل ليتخذوا حذرهم هم أيضاً ؟ تقرير الشرطة الألمانية لا يقول شيئاً مهماً. لقاء جميل حضره عدد كبير من الزوار الذين كانوا يريدون توقيعه. بقاؤه مع مترجمته إيفا الليل كله. باستثناء مشادة خفيفة بينه وبين شخص من أصول تركية. أسأل نفسي كيف يفعل الإنجليز مع سلمان رشدي في

حالة شبيهة، وكيف يسيرونها. تعرف كل شيء عن الضحية وعن العدو، وفي الوقت نفسه لا تعرف شيئاً لأن الجريمة يمكن أن تحدث في أية لحظة. أعتقد أنهم تعبوا من سلمان رشدي، وتعب منهم هو أيضاً ، ولهذا فضل الانتقال إلى نيويورك ليعيش ما بقي من عمره. حالة منهكة للجميع.

شعر إيتيان دافيد بالتعب ولكنه يعرف أن في جسمه خزاناً صغيراً يحتفظ فيه بمقاومة التحمل. لم يصل بعد إلى هذه الدرجة، لكنه يشعر بنفسه قريباً جداً منها. منذ أكثر من شهر وهو يسير على الوتيرة. نفسها ألم الرأس قلّ كثيراً. ربما كان الشعور وحده بوجود كأس الماء والقرص كافيين لإيقاظ الرغبة في شرب دوليبران. يحدث معه ذلك كثيراً في عمله وخارجه.

– روجي... مازلتَ هنا؟

– نعم. كما قلت يا سيدي يجب عدم ترك أي شيء للصدفة. المشكلة أية سقطة ستعيد النظر في جدارة وسائلنا الأمنية وقوتها في مواجهة وضع استثنائي كهذا. وضعه سمح لنا بقراءة بعض أعماله. ننسى أحياناً أننا لسنا مجرد قراء عاديين.

– كيف ألفريد؟ معك.

– نائم في السيارة. هو هو لم يتغير. يقول: مسلمون يقتتلون فيما بينهم، لماذا نحشر أنفسنا في ما لا يعنينا؟ ليس عنصرياً، ولكنّ كلامه دوماً على الحواف. يقوم بعمله جيداً.

– طيب. يمكنكم إخلاء المكان متى شئتم.

ثم تهاوى دافيد إتيان على كرسيه.

دخلت ماري بوجهها المحمر وهي تحتج كعادتها. ضحكت عندما رأت كتاب عرش الشيطان في طبعته الفرنسية Lص arche du diable على مكتب دافيد. تفحصته بسرعة دون الوقوف عند أوراقه.

ضحكت بملعنة كعادتها:

– ذات يوم تصاب بالسكتة القرائية وترتاح نهائياً من شطط ما تقوم به.

– هذا الكتاب أكبر من رواية. يدخل في مهام التحقيق.

– هل قرأتَه؟ سمعتُ عنه الكثير. ولا أدري إذا كان بالفعل يستحق كل هذا الاهتمام؟

– قرأتها. رواية جيدة وجريئة اعتمدت على وثائق حقيقية. هذه هي الرواية التي حكم عليه بالإعدام بسببها. تصوري في أي عصر نحن؟ كيف يمكن أن يكون كتاب سبباً في هلاك إنسان؟

– الكتّاب متشابهون في العالم كله. يكذبون ثم يصدقون كذباتهم. يخلقون مشاكل حول أنفسهم، ثم يظلون يدورون حولها.

– وبفضلهم نعمل أيضاً عزيزتي. ثم ليس مارينا من خلق هذه المشاكل. نتقاسم معه المصالح. نحميه بموجب القانون، وهو أيضاً طعم نافع لنا لتفكيك الشبكة الإرهابية التي تكونت منذ مدة قصيرة بواسطة الخلايا النائمة. ليس من السهل أن تجد سمكة كبيرة مثل مارينا.

– أعرف فقط أنه من المفروض أن أكون الآن بين ذراعي عشيقي أستمتع معه بالوقت الجميل. أفضل بكثير من هذا الضجيج الذي لا ينتهي حول قضايا لا تهمنا في شيء.

– أكثر مما تتصورين. كل ما يحدث، بلادنا في دائرته.

– أنا لا أفهم لماذا كل الأقليات مرتاحة، وقبلت أن تتجاوب مع ثقافتنا وتعيش فيها بسلام إلا هم. لماذا المصائب الكبرى لا تأتي إلا من السود أو العرب أومن المسلمين؟ أقول أحياناً يجب أن يكون القانون أكثر صرامة مما هو عليه.

– لا أعتقد يا ماري أن الآسيويين ملائكة كلهم؟ هل تعرفين أن أكبر سوق للماركات المقلدة والمخدرات وراءها الجماعات الآسيوية، والصينية تحديداً التي تنظرين لها بمثالية؟ تجولي

قليلاً في ساحة إيطاليا[٤٧] وطولبياك وسَتَرين.

– ولكننا لا نسمع عنهم شيئاً.

– أعرف أنه لا ملائكة في الأرض، لكني أعرف أيضاً أن كل ما يحدث أمام أعيننا له تفسير. طيب اسألي نفسك لماذا نسمع عن العرب والمسلمين كثيراً ولا نسمع عن الآخرين إلا قليلاً؟ هل الأمر صدفة أم يُراد له ذلك؟

– لكنهم هم من أدخل مرض الإرهاب إلى أراضينا الآمنة.

– في الظاهر نعم. لكنهم ليسوا هم من أتى بالنازية؟ وليسوا هم من صنع الغيستابو، والفرق الحمراء وبندرهوف... والقائمة طويلة. للآخرين مسؤولية ما حتماً، لكننا نعيد إنتاج مآسينا يا ماري كلما اشتدّت الأزمات وغابت الحلول لمشالكنا.

صمتت ماري للحظات، كأنها كانت تبحث عن إجابة لقلقها:

– توافقني عزيزي، أنه من حقنا أن نرتاح قليلاً؟ لا يمكن أن نقضي العمر كله في الذّعر.

– ومن قال إن مصائبنا لن تعود ثانية؟ يبدو لي أننا مقدمون على فترة أكثر من السبعينيات إذا لم تجد الحكومة الحلول الحقيقية. انظري من حولك، حتى في أكثر البلدان تقدماً وتحضراً. السويد، سويسرا، هولندا، الدانمرك، كل جهة

٤٧ Place d'Italie.

تصنع تطرفها وعنصرييها الذين يلصقون كل شيء بالغريب أو الأجنبي. حذار يا ماري، يمكننا في فورة حماسنا ضد الآخر، أن نخطئ في الضحية؟

– أراك تدافع باستماتة عن أناس أشك في إخلاصهم لبلدنا؟

– نحن دولة يا ماري ولسنا عصابة أشرار تمارس قناعاتها الخاصة. ماري، المشكل أكثر تعقيداً. اخرجي من الثنائية القلقة، التي تفترض الخيّرين من جهة، والأشرار من جهة ثانية، وسترين بشكل أوضح أن الأشرار والطيبين هنا وهناك.

صمتت ماري للحظة، ثم ابتسمت كمن اكتشف سراً مبطناً.

– هل تعلم يا دافيد أن والد يونس مارينا حمل السلاح ضد فرنسا، ونحن نحميه اليوم؟ لا أبدع شيئاً، أنت من أراني ملفه؟

– أجل، أعلم. لكن ماذا تقولين عن فرنسي قاوم النازية شاءت الظروف أن يجد نفسه يعمل في برلين؟ انتهى ذلك التاريخ يا ماري؟ هل ألوم والدك لأنه كان مظلياً في الجزائر، وأدى ما عليه في حرب أثبت التاريخ أنها لم تكن عادلة، أم ألوم والد يونس مارينا الذي استعمل سلاحه للدفاع عن

أرضه؟ لمَ اختار مارينا المكوث في بلد كان من وراء اغتيال والده في التعذيب؟ هذا سؤال حقيقي. سيأتي يوم ما ويوضع كل شيء على طاولة النقاش المرّ. يحتاج المرء إلى قوة داخلية وإلى تحمل كبير ليتمكن من تجاوز معضلات التاريخ الفردية التي يحملها في قلبه وعلى ظهره. يجب أن لا نلوم الناس على قناعاتهم يا ماري. ما رأيك في المفتش أحمد؟

– المفتش أحمد لا يشبه الآخرين؟ وُلِد هنا، وكَبِر هنا أيضاً ، وتشبع بثقافتنا.

– وهل تحرمينه من حقه في أن يكون كما هو؟ لا يريد أكل الخنزير؟ ويريد أن يكون مسلماً مؤمناً، أو حتى بوذياً أو منتسباً لأية ديانة أخرى؟ ما الضرر في ذلك؟

– لا ضرر... لكن... متعبة جداً يا دافيد. منذ سماعنا خبر محاولة اقتحام بيته في غيابه، أصبحنا لا ننام. وفي حالة استنفار كلية؟

– الأمر أكبر من مجرد محاولة اقتحام لم ينتج عنها أي شيء في النهاية، حتى ولو توصلوا إلى كسر المفاتيح. قد يكون ذلك من فعل عصابة سارقين لا أكثر. المشكل أنهم حاولوا الدّخول إلى البيت دون أن يعترضهم شيء. السؤال ماذا كانوا يريدون في النهاية؟

- كثير يا إيتيان. نظل نركض من مكان لمكان ولا أدري جدوى ذلك؟ في دائرتنا ثلاثة كتاب، إيراني وجزائري، وفرنسي أسلم في وقت مبكر، وأربعة فنانين مغربي وإيراني وأفريقي وشيشاني، ونحّات كبير من مالي، أحد أعرق الشخصيات في وطنه، اختار المنفى هرباً من بطش لاكْمِي أيضاً.

- يحتّم علينا العمل الجاد أكثر ولا نترك أي شيء للصدفة. الصدفة قاتلة أحياناً يا ماري. الآن نامت المدينة، بإمكانك أن تذهبي للراحة قليلاً، أنا أيضاً لن أطيل البقاء هنا. لا يوجد شيء مهم. روجي طمأنني ولا يوجد ما يبقينا هنا.

- تصبح على ألف خير.

- عزيزتي ماري، أرجو أن لا تكوني قد غضبت مني؟

- مطلقاً يا دافيد. تعرف أني أحبك وأسامحك دائماً لأنك في عمقك تنظر لي كواحدة من مجانين اليمين المتطرف أو من حركة نيو- نازي[٤٨]. أنت تعرف أني لا أحب أفكارهم البائسة، ولكني كآلاف الفرنسيين خائفة مما يحصل أمام أعيننا.

- لا أنا ولا أنت من يتحكم في أمراض التطرف، حالة من الجنون الأعمى. كلما تأزمت الأوضاع فرضت العنصرية نفسها كحل لكل المشكلات. أوروبا كلها تستيقظ كل صباح على رئيس حكومة أو وزير يرفع عالياً كذبة الأجنبي.

٤٨ النازيون الجدد: Les News Nazis

فكّر أن يثير أمامها تصريحات وزير الداخلية التي سمعها قبل قليل في راديو أوروبا[٤٩]، ولكنه تراجع، لا المكان مناسباً ولا الزمان أيضاً . تكاد تسقط من شدة النوم. عندما سمعه يتحدث عن فرنسا للفرنسيين لم يصدق نفسه؟ تذكر لحظتها جده الذي أكله أفراد أوشويتز. تساءل في أعماقه من هم الفرنسيون الذين يتحدث عنهم الوزير؟ المسيحيون؟ اليهود؟ المسلمون؟ البوذيون؟ الأوروبـيـون؟ الساميون؟ الهنود؟ الآسيويون؟ الأفارقة؟ العرب؟ القادمون من ثقافات أخرى ويمارسون شعائرهم؟ من هم؟ فرنسيون من درجة ثانية وثالثة وعاشرة؟

ولكن ماري سبقته إلى الحديث الذي كان يريد تأجيله:

– لا أعتقد أن وزير الداخلية، أخطأ حينما قال «إن الفرنسيين يشعرون أن ما يُفرض عليهم من مظاهر، لا يتجاوب مع قواعد حياتهم الاجتماعية. أصبح لديهم الإحساس أحياناً أنهم ليسوا في بلدهم؟ مواطنونا يريدون أن يختاروا نمط حياتهم، لا يريدون أن يُفرض عليهم أي نمط[٥٠]» كلامه قاس لكن ليس بعيداً عن الحقيقة. رؤيته الخاصة أوصلته إلى هذا الموقف.

---

٤٩ Europe1.

٥٠ «Les Français à force d›immigration incontrôlée ont parfois le sentiment de ne plus être chez eux, ou bien ils ont le sentiment de voir des pratiques qui s›imposent à eux et qui ne correspondent pas aux règles de notre vie sociale», déclare-t-il. «Nos compatriotes veulent choisir leur mode de vie, ils ne veulent pas qu›on leur impose un mode de vie» Claude Guéant . ministre de l'intérieur (Europe1).

هناك بعض الأحياء لا ندخلها إلا بصعوبة، يفرضون فيها منطقهم وكأنها ساحات محررة؟ كثير.

ابتسم ثم حكّ على رأسه كمن يسترجع فكرة لم تدر أين تستقر، عادته عندما يبحث عن كلماته:

– لا أدري إذا كان اليمين المتطرف سيقول أكثر من ذلك. تعرفين يا ماري أين يكمن الخطر، أن يصبح ما كان[٥١] مزالق لغوية خطرة، كلاماً عادياً؟ وتصبح العنصرية واللاّسامية حديثاً مبتذلاً. ما كان يعاقب عليه القانون، أصبح المشرّع يجد له كل الأعذار. اسألي والدك وسيقول لك. كان من رواد الجزائر فرنسية. وقف مع صالون ضد ديغول حتى اللحظة الأخيرة، وسجن على قناعاته. كان جندياً ولكنه كان معجباً بصالون. تخيلي ماذا قال الوزير نفسه وهو يحاول أن يشكر رئيس الجمهورية؟ قال بالحرف الواحد: «من حسن الحظ أن رئيس الجمهورية ترأس الحملة الصليبية لتجنيد مجلس الأمن في الأمم المتحدة وبعدها جامعة الدول العربية والوحدة الأفريقية[٥٢].» حالة كريهة جداً من رجل لم ينصب إلا منذ أيام. من يوم ما عُيّن، وهو يراكم الحماقة تلو الحماقة.

---

٥١ إذاعة فرنسا للأخبار.

٥٢ Heureusement, le président a pris la tête de la croisade pour mobiliser le Conseil» de sécurité des Nations unies, et puis la Ligue arabe et l›Union africaine» . Claude Guéant . ministre de l'intérieur .

- نتحدث غداً. مشتاقة لحبيبي الذي ينتظرني بفارغ الصبر في الخارج. بااااي عزيزي دافيد.

- أوكي. ليلتك سعيدة ماري. سعيد بوقوفك معنا حتى آخر الليل. صحبتك جميلة لأنها على الأقل تحرك صمت القبور الذي يحيط بنا. أنا أيضاً سأنهي بعض الترتيبات وأخرج. أتذكر فعلاً كتاب صحراء التتر[٥٣] الذي كتبه في الأربعينيات دينو بوزاتي[٥٤]. الانتظار أقسى من الحرب ذاتها. انتظار العدو الذي يتحول إلى مجرد تسلية في انتظار الموت. الليوتنانت جيوفاني دروغو[٥٥] ينتظر عدواً في قلعة باستياني[٥٦] كان كل يوم يكبر فيه قليلاً، حتى هزمه وقتله أكبر الأعداء السريين: المرض.

قالها دافيد إيتيان مع ابتسامة ماكرة لأنه يعرف جيداً أن ماري تتكلم مثلما تفكر. لا يوجد لديها غربال. تجد نفسها أحياناً في عمق أفكار الجبهة الوطنية، تدافع عنها باستماتة دون دراية. ولكنها صارمة في عملها وهذا ما كان يعجبه فيها. مشكلة ماري هي أنّ الشرطي كثيراً ما يتحوّل لديها ويسترن، عليه أن يفرض نفسه بالقوة، لأن الرخاوة لا مكان لها في

---

٥٣ Il deserto dei Tartari (١٩٤٠)

٥٤ Dino Buzzati.

٥٥ Lieutenant Giovani Drogo.

٥٦ Ford Bastiani.

الوسط الأمني. قبل أن تحول إلى الفرقة المضادة للإرهاب، قضت ماري مدة خمس سنوات في الأحياء والضواحي الباريسية، في كليشي-سوبوا[٥٧] تحديداً. وعاشت عن قرب حرائق حركات٢٧ أكتوبر٢٠٠٥ الاحتجاجية التي ترتبت عنها حالة الطوارئ. بدأت من كليشي-سوبوا حيث وجدت ماري نفسها وجهاً لوجه أمام الحرائق والرصاص. بقيت في رأسها صور عنف سكان الأحياء المهمّشة، ونسيت السبب الأصلي، وتمزق النسيج الاجتماعي والثقافي لفرنسا. جُرحت في الأحداث في ذراعها، برصاصة طائشة، مما عمق لديها حساً غريباً تجاه الغريب، بما في ذلك الفرنسي ذو الأصول الأجنبية.

كانت تمطر بقوة على باريس.

الظلمة والعزلة تلفّان المكان.

فجأة أحس إيتيان دافيد بالصمت وثقل المحيط، بعد انطفاء صوت ماري.

خرج لتدخين سيجارة في الشرفة المطلة على أحد تفرعات نهر السّين. رأى من أعالي مركز الشرطة، البنايات المتراصة والأضواء المتلألئة وظلمة الأحياء البعيدة التي شمّ فقرها من

---

٥٧ Clichy-sous-Bois.

بعيد. ماذا يحدث في اللحظة يا ترى؟ ناس يولدون، آخرون يموتون أو يُقتلون، غيرهم غارق في لحظة حب مجنونة أو سكر... تساءل إيتيان دافيد وهو يتأمل ماري وهي تقطع الطريق، ثم وهي تقبل صديقها الذي نزل ليفتح لها باب السيارة، ثم يغطّيها بمطرية كانت في يده حتى تركب. كانت ماري فرحة كطفلة صغيرة لا تنقصها إلا الشرائط الحمر. عصفورة مبلّلة. من فرط سعادتها، لم تلتفت إلى الوراء، ولم ترفع رأسها.

تمتم إيتيان دافيد وهو يعرك بهدوء عقب السيجارة، وينفخ دخانها الأخير بلذة متناهية.

– Sacrée Marie[٥٨]

أغلق النافذة، عاد الدفء بسرعة. انكبّ من جديد على الملف الذي كان يتفحّصه قبل مكالمة روجي.

٥٨ ماري الرائعة...

-٢-

أسبوع مر بلا جدوى. لوليتا لم تظهر.

لامس البيانو النائم بالقرب من النافذة المطلة على الساحة العامة. هو أيضاً اشتراه من سوق العتيق. لا يعرف العزف، لكن وجوده وحده في ذلك المكان يورثه إحساساً غريباً بالألفة والموسيقا. الأقراص المضغوطة التي تملأ الصندوق الموضوع على يمين البيانو، معظمها موسيقا جاز أو عزف على البيانو. وعلى اليسار مجلات الموضة التي تراكمت بسرعة حتى أصبح تراكمها واضحاً. مجلة هي[٥٩]، الفرنسية، فوك[٦٠] الضخمة، التي لا تخلو من وجه لوليتا التي اشتُقَّ لها اسم لولا. لم يستطع أن يتفادى وجهها كلما فتحها. يشعر بها قريبة، بل يلمس بروؤس أصابعه المرتعشة أنفاسها. يتساءل أحياناً في خلوته ما الذي قاده بشكل أعمى نحو مجلات لم يكن يعرف حتى أسماءها؟ كان يراها فقط تطرز المكتبات والوِراقات في الشوارع، والمطارات. كان يجد لذة في السخرية ممن يقتنونها.

فتح يونس مارينا الزجاج الثقيل. بدا له كل شيء هادئاً. لا شيء سوى ضباب الفجر الذي محا كل العلامات مخلفاً وراءه

---

٥٩ Elle.

٦٠ Vogue.

عالماً هلامياً بلا وجه ولا حدود. عاد إلى الحمام.

لا يعرف كم من الزمن مر، ولكنها ظلت هناك، حيث الدهشة الأولى. حتى تليفونها لا يجيب.

لم تتلفن هي أيضاً . ربما تكون قد نسيت كل شيء. مجرد صدفة عابرة ملأت خواءه قليلاً، ووفر لها بعض الإحساس الجميل.

عندما حلق يونس مارينا وجهه، بدل أن يشعر بالراحة كما تعود، أحس بامتعاض يأتي من الأعماق. بان الجرح الصغير الممتد من أعلى خده، لينزل غائراً في خط شبه مستقيم حتى أسفل الوجه، مختلطاً بالتجاعيد التي بدأت ترتسم، ولم تحرف الجرح عن مساره. تتقاطع معه في شكل خطوط فرعية صغيرة قبل أن تذوب مع تفاصيل الوجه الأخرى.

العمر المثقل بالخوف لم يمح ملامحه الطفولية.

مسح على الجرح القديم برؤوس أصابعه مخافة أن يوقظ آلامه. هو ميراث ما تبقى من زمن اختفى دون أن يموت. جرح الوجه لا يمَّحى، هكذا قيل له يوم تلقى ضربة الغفلة التي كادت تودي به.

تحسسه. ضغط قليلاً ليحدد عمقه. ثم انحدر به من الأعالي حتى لامس نهايته.

ما الذي يوقظ كل هذه المدافن الآن؟ عاوده وجه ماجدالينا الطفولي. همسها الأخير. لم يشبع من وجهها ولا من قلبها، ولا حتى من جسدها. الحفرة السوداء التي خبأه فيها شاب لم يعرف شيئاً عنه. أصبح واحداً منهم دون أن يكون منهم. استعاد وجوههم واحداً واحداً، بابتساماتهم وضحكاتهم وروائح تبغهم الرديء الذي التصق بألبستهم ولحمهم. لم يعرف اسم الكثيرين منهم، ولا حتى اسم صاحب الشعر الأبيض، عمي أحمد الشّايب، إلا لاحقاً، عندما مات العقيد وزار لحمر باريس. لم يعرف إلا متأخراً أن الحفرة السوداء التي تخبأ فيها لم تكن إلا ماخور عيشة الطويلة الذي يمتلئ أيام الجمعة بشباب الخدمة العسكرية، والمخبرين والناس العاديين الذين يأتون لحرق ما ربحوه طوال أيام الأسبوع مع امرأة يشتهيها خاطرهم، ثم ينسحبون بمسرة غامرة تُقرأ في عيونهم لحظة وقوفهم عند عتبة المغادرة. عندما ينزلقون في عمق ضجيج الشوارع الخلفية القديمة، بروائح أطعمتها وحماماتها وأجساد نسائها، يحاولون استرجاع تفاصيل اللحظات التي امتلكوا فيها امرأة كلياً حتى ظنوها لهم وحدهم.

عندما جاء من يُخرجه من الحفرة، لم يكن مستعداً يومها. تمنى أن يستمر بقاؤه هناك لأن المرأة التي افتضت بكارته،

وسرقت عذريته وعفويته، فتحت أمام عينيه عالماً ملوناً وجميلاً، لم يكن يعرفه. غرق في دفئه مرة واحدة ثم انسحب ليظل معلقاً عليه عمراً بكامله. تذكر يومها وهو يتردد في مغادرتها، كلمات عمي أحمد الشّايب، صاحب الشعر الأبيض، وهو ينكت على موسى لحمر الحزين بسبب قصة حب لم تعمر طويلاً: – «اسمع يا السي موسى. شطط الحب قاس. لا تترك امرأة لم تشبع منها ولم ترتو منك، لأنك ستظل معلقاً بها طوال عمرك. وستظل على خيطك حتى الموت. اشبعا من بعضكما، ثم ليذهب كل إلى سبيله إذا استحالت العشرة.» ولكنه انصاع لأمر الشاب الذي جاء ليخرجه. لم يكن يملك حتى حق مناقشته باستثناء كلمة سرية لم يفهم إلى اليوم سبب اختيارها: الذبانة تشطح، الفَكْرُون يغني. أو بالأحرى لا يعرف دلالتها. الكلمة مقطع من أهزوجة ساخرة كان يغنيها مع الأطفال، ضد صَدِيقه علي، جارهم في مدينة مارينا، في الأيام الممطرة، فيغتاظ المسكين ويشكوهم لأمهاتهم تحديداً، لأن الآباء كثيراً ما يضحكون عليه، مربتين على كتفيه: لست علي الوحيد على وجه الكرة الأرضية، أو اسخر أنت أيضاً من أسمائهم:

علي... علي...

زنطيط الحولي...

الذبـانـة تشطح...

الفكرون يغنـي[٦١]...

لم يكن عمي أحمد الشايب برفقة الشاب، ولا حتى موسى لـحمر. سأله عنهما بعفوية، فجاءه الجواب مقتضبـاً وبـارداً: هما بألف خير. فَهِمَ ببساطة أنه عليه أن لا يسأل كثيراً. سلّمه الشاب جواز سفره، عندما فتحه، لم يتعرّف فيه إلا على صورته. كل شيء كان مغايراً لهويته، بما في ذلك الاسم وتاريخ الميلاد والمكان أيضاً . قال بعفوية:

– «هذا ليس جوازي؟ هنـاك خطأ ما؟

ضحك الشاب عند مخرج الماخور بشيء من السخرية والصرامة:

– هل أنت موجود أصلاً؟ هل أنت يونس مارينا حقيقة؟ وهل أنت رجل أم امرأة؟ من تكون في نظر الذين لا يعرفونك؟ لا شيء؟ مجرد شخص افتراضي. عليك أن تظل كذلك يـا عزيزي.

– أنتم تعرفونني على الأقل؟

– من نـحن؟

شعر يونس مارينا بارتباك كبير، قبل أن يواصل الشاب كلامه.

---

٦١ علي... يا علي... يـا ذيل الخروف... الذبابة ترقص، والسلحفاة تغني.

- مثلك تماماً نحن. مجرد أشخاص افتراضيين.

- لكني يونس مارينا.

رد بشكل عفوي. ضحك منه الشاب مرة أخرى:

- جميل. إذن أنت تزوّر الأوراق؟ ما هو موجود في هويتك الحقيقية وأوراقك الثبوتية شيء آخر. سلطان حميد سويرتي؟ هل هذا هو اسمك الحقيقي؟

أحنى يونس مارينا رأسه. فهم بسرعة قصد الشاب الذي ربت على كتفه بحنان:

- نعم سلطان حميد سويرتي، هو اسمي الحقيقي. مارينا اسم الكتابة.

- لكن يا عزيزي عليك أن تؤمن بأنك أنت منْ في الجواز وإلا كلاك بوبي[٦٢]؟ أنت الآن حميد زازو، وليد عنابة وليس وليد مارينا... وإلا عرفتْ ذئاب العقيد سرَّك.

- زازو. وليد عنابة؟

ضحك.

- تضحك؟

- عفواً على بلادتي. أنا لا أعرف شيئاً عن عنّابة. لم أخرج أبداً من مارينا.

---

٦٢ مثل شعبي يعني التعرض للهلاك.

– لا تخف، كل المدن تتشابه. وستتشابه قريباً في بؤسها. أدرك فقط أنها جميلة وساحلية وبها قبر القديس أغستين[٦٣] وساحة الكور[٦٤] المليئة بالمقاهي، في وسط المدينة، ومرتفعات السرايدي الجميلة. هذه هي خارطة المدينة كلها.

لم يمنع يونس مارينا نفسه من الضحك:

– زازو... ههههه لم تجدوا غيره؟ ذكرني بأغنية عيتشك آزازو بالشوية إيوه... إيوه... الله الله.

– لا تضحك... مصدر اسمك من الأغنية ذاتها حتى لا تثير انتباه الشرطة، ولكن ضحكها.»

ورافقه حتى الباخرة التجارية الذاهبة إلى مرسيليا، قبل أن يسلمه بدوره لشخص آخر كان يعمل على ظهر السفينة. بمجرد أن مس يده، قدم الرجل البدين نفسه:

– ألفريد، مسؤول العمال على السفينة. لا أحد يعصى أوامري.

بينما انعقد لسان يونس مارينا قبل أن يقدمه الشخص المرافق له:

– زازو. حميد زازو. زازو الذي حدثتكم عنه. شاب لطيف وليس من ذوي الرؤوس الخشنة.

---

٦٣ Saint-Augustin م قسيس مدينة عنابة من ٣٩٦ م حتى وفاته في ٤٣٠

٦٤ Le cours. cours Bertagna واحدة من علامات المدينة، وكانت تسمى في الفترة الاستعمارية

- من الأفضل له وللجميع. ليس لدينا وقت نضيّعه في الحروب الهامشية.

قالها ألفريد وهو يضحك ببطنه، وليس بوجهه أو شفتيه.

- لا تنس يا زازو أن تسلّم على الأهل من وراء البحر. أخبرنا عن حالك. أنت بين أيد أمينة.

كانت الجملة الأخيرة هي آخر إرثه من أصدقاء الكتابة والحفر والخوف.

انسحب الشاب بعد أن وضع الجواز بين يدي ألفريد، واحتضنه كمن يودع شخصاً مسافراً.

أدخله ألفريد من باب خلفي في عمق السفينة. ثم رمى عند رجليه طاقماً جلدياً من ألبسة البحارة. قال له بلغة فرنسية جنوبية قريبة من نطق سكان مرسيليا:

- يا الله ما هذا التثاقل؟ secoue-toi mon ami, on a beaucoup de travail[٦٥]

كان يونس مارينا يدرك أن أحسن وسيلة لتفادي هؤلاء الناس هو التطبيق الحرفي لأوامرهم. ثم صعد على الظهر ليبقى هناك ساعات طويلة في تعلم شد الحبال وإنزال البضائع الحساسة أو القابلة للكسر. لم يكن يومه الأول بشرى خير، بل

---

٦٥ تحرك يا صديقي، عمل كثير.

نذير شؤم. لم ينتبه لأحد الحبال التي قذف بها أحد البحارة من الأعالي لشدها بهيكل الرافعة. كادت البكرة الحديدية التي كانت في رأس الحبل أن تفجر دماغه لولا ألفريد الذي ارتمى عليه بكل ثقله ليسقطه أرضاً. لم يتفاد البكرة كلياً، فقد مسحت قليلاً من خده الأيمن محدثة في استقامة، خيطاً رقيقاً من الدم، قبل أن ينتشر كلياً على الخد.

قال له ألفريد وهو يضع الكحول، ويضغط على وجهه بقوة، لإيقاف الدم:

– «تحتاج إلى عينين في القفا وإلا فلن تكون بحاراً أبداً.

– لم انتبه، ولم ينبّهني أحد.

– البحارة لا يُنبهون أحداً يا عزيزي. من عاش عاش، ومن مات يُرمى في البحر، أو يُدفن في أية أرض نزورها إذا كنا قريبين من اليابسة. نحن هنا مثل الحوت. النظام نفسه. البقاء للأصلح والأقوى. من حظك أني كنت قريباً منك، وأعرف أنك في حاجة إلى يد تحميك، وإلا لانفجر مخك. في المرات القادمة كن حذراً أكثر.

– ممتن لطيبتك يا سيد ألفريد. شكراً.

– بدون سيد. ألفريد تكفي. هكذا يخافونك من بعيد. سيسمونك لُوبَلافْري[٦٦]. سأشيع عنك قصصاً كثيرة على ظهر

---

٦٦ جريح الوجه. أصل الكلمة من اللغة الفرنسية le balafré

السفينة، عن منجزاتك الإجرامية حتى لا يقتربوا منك. الناس يعيشون هنا بمنطق القوة. في حصيلة أَجْبَنِهم سبعة قتلى وعشرين سرقة. حوتْ يَاكُلْ حوتْ، واللِّي ما يَقْدَرش يمُوتْ.

– وجهي تشوه.

– قلت لك احمد ربك أني لم أكن بعيداً عنك، وإلا لانفجر مخك مثل بطيخة صفراء. الشيوعيون من المفروض أن يكونوا شاطرين ولكنك شبه نائم. أنت لا تشبههم في أي شيء. Bouge tes fesses mon ami si t'as envie d'exister sur ce bateau[٦٧]. لا خيار لك يا عزيزي إلا المقاومة للعيش.»

حبست الكلمة في فمه.

كاد يونس مارينا أن يقول لألفريد إنه ليس شيوعياً، مجرد مجنون وجد نفسه بالصدفة في المكان الذي كان يفترض ألاّ يوجد فيه. بالصدفة وجد نفسه يكتب عن شيء يحبه. عن رجل لا يعرف عنه سوى أنه كان صديقا لوالده، وهو من دفنه أيام الثورة. تمنى دائماً أن يصبح كاتباً كبيراً أو صحفياً مرموقاً فقط ليتمكن يوماً ما من رواية قصة والده كما سمعها من الرّايس بابانا. عندما وقع الانقلاب، شعر بأنهم سرقوا منه قصة والده، لأنّ الشخص الوحيد الذي كان مؤهلاً لروايتها له هو الرّايس بابانا. عندما سجن، تبخر نهائياً حلم محاورته

---

٦٧ تحرك إذا أردتَ أن تجد لك مكاناً على ظهر هذه السفينة.

يوماً. ثم دخل في لعبة خطيرة لم يقدّر أبداً عواقبها، اعتمد فيها على جناحي خيال قاده على كل الحواف الخطيرة.

حتى عندما سأله ألفريد عن شروده، وجد كذبة سريعة:

- «أفكر في وضع رفاقي.

- الوضع خطير، لكنهم لن يستسلموا أبداً لفاشية العقداء. أنا أعرف الكثير منهم.

- لا أعرف عنهم تقريباً أي شيء. الانقلاب شتتنا.

- ما تخافش من يأتي بانقلاب سيذهب بشبيهه. سينقلب عليهم ربما من يأكلون اليوم معهم في الإناء نفسه، ويشربون معهم في الكأس نفسه. من سوء حظ الفاشية أنها تنتج نقيضها بعنفها نفسه، وربما أكثر. لن يرحمهم أحد عندما تدور الدوائر.»

لم يفهم يونس مارينا يومها كلمة فاشية التي تكررت كثيراً على الأفواه إلا بعد فترة طويلة. كانت تتراقص في أفواه أصدقائه دون أن يتوقف أحدهم عندها ليشرحها له خوفاً من الخيبة. كان فقط يدرك وجهاً من أوجهها، أنها كانت تتعلق بوصف ارتبط بالانقلابيين بشكل كبير.

على مدار الشهور التي قضاها في التحميل والتنزيل في الموانئ المتوسطية الغزوات، وهران، الجزائر، عنابة، طنجة، تونس، طرابلس، باليرمو، جنوى، وغيرها قبل أن يصعد نحو

مرسيليا، لم يناده أحد باسمه الحقيقي ولكن لُوبلاَفْرِي. فقد التصق به الاسم حتى النزول النهائي. ضحك في أعماقه لأنه في النهاية لم يكن يملك أي اسم حقيقي. اسم عائلي مات منذ أن بدأ الكتابة. اسم مستعار، حميد زازو، لم يستعمله إلا مرة واحدة أثناء العبور في مرسيليا. واسم صاحَبَهُ كل عمره لأن مصدره حلم غريب وجنون لا يُحسد عليه: يونس مارينا. حتى عندما سأل أمه يوماً، عن سر اسمه المزدوج سلطان حميد، الذي يجره وراءه منذ أن فتح عينيه، قالت له، مجرد نفحة من جدك الذي أراد أن يعطي استمراراً للسلطان حميد الذي كان أبوه معجباً به وبشجاعته. كان والد جدك صياداً للأسود وكاد أحدها أن يقتله يوماً. كان دائماً يقول: يقتلني سبع صحيح ولا يقتلني ضبع مريض. لكن لا أحد في العائلة كان ينادي يونس مارينا، باسم سلطان حميد إلا بحضور الجد الذي كان يشعر بافتخار داخلي كبير كلما نودي على حفيده بذلك الاسم. كلهم ينادونه حميمد، وهو تصغير حميد وأحمد.

فتح يونس مارينا عينيه جيداً في المرآة التي انطفأ على صفحتها كل شيء ليبقى وجهه وجرحه الذي تماهى أو كاد، مع خطوط الوجه الأخرى التي بدأت تتفرع في اتجاهات كثيرة.

جلس على الكنبة قليلاً كما تعود أن يفعل دائماً. تأمل

اللوحة «الذبابة» المواجهة له، طويلاً. كان وجه المرأة يتخذ في كل لحظة وضعاً مخالفاً بسبب لعبة الضوء والظل المسلط على اللوحة، كأن يداً ما كانت تحركه في مختلف الاتجاهات والأوضاع. لم يكن وجه الموناليزا لكن بها بعض الشبه الغريب. لمح من بعيد لطخة صغيرة تشبه التوقيع المدفون تحت كتل جديدة من الألوان الثقيلة. تحسسها بيده. شعر بالانتفاخ الذي على اللوحة. رجع قليلاً إلى الوراء. لم تكن لوحة ذات قيمة قبل أن يدخل في رأسه الكثير من أصدقائه فكرة الندرة والأهمية والقدم. فكرة أحد أصدقائه لم تكن خائبة. فقد طلب منه أن ينجز عنها نسخة مكررة وشبيهة يحتفظ بها في البيت وينقل الأصلية إلى مكان آمن، في بنك مثلاً. في البداية، لم يأخذ المسألة بجدية، لكنه انتهى بالفعل إلى الاقتناع بذلك. هذا ما أنقذها آخر مرة عندما تعرض البيت للسرقة. كلما سافر طويلاً، وضع اللوحة المستنسخة على الحائط، وخبأ الأصل في البنك. سمى لوحته الذبابة. وحده كان يعرف سر التسمية.

تذكر ضحكة إيتيان دافيد، الذي أصبح بسرعة صديقاً منذ قضية عرش الشيطان، عندما سأله عن اسم اللوحة، أجابه بلا تردد وكأنه دليل سياحي أو خبير فني:

– الذبابة. للتسمية قصة طويلة.

- ما المانع طبعاً، ولو أني لا أرى أية علاقة بين الذبابة واللوحة؟ المرأة في اللوحة أقرب إلى مومس؟ أو ربما؟ ربما كان الأمر مرتبطاً بوضع المرأة قديماً بحيث لم تكن لها أية قيمة اجتماعية... مجرد ذبابة؟

- لا يا دافيد الأمر أكثر تعقيداً من هذا كله... قصة طويلة مرتبطة بحياتي؟

- اللوحة قديمة ولستَ أنت من رسمها.

- نعم. لكن لها علاقة ما بي. مشدود إليها، لا لقيمتها الافتراضية ولكن لأن بها شيئاً غامضاً يخصني.

زيارات إتيان دافيد قصيرة جداً لا تتجاوز سؤالاً أو سؤالين، أو كأس شاي في الحالات النادرة، قبل المغادرة. يطمئن عليه. يسأله عن أية حركة مريبة يمكن أن يكون قد لاحظها. قبل أن يخرج، يتأمل اللوحة للحظات، أحياناً يكتفي بهز رأسه، وأخرى يعلق:

- الذبابة؟ لابد أن يكون خطأ ما في التسمية. على كل عليك أن تحذر على هذه اللوحة، لا تبدو عادية. سرقة الآثار أصبحت حرفة قائمة بذاتها.

كان يزعجه أنها دون توقيع لأن ذلك يفقدها بعض قيمتها.

ثم يسحب إيتيان دافيد الباب وراءه، ولا يسمع بعدها إلا وقع خطواته المتسارعة في البهو الطويل، ثم وهي تغيب في الأربعين درجة التي تفصله عن الشارع.

فجأة رنَّ التليفون.

لم يكن يونس مارينا ينتظر أحداً. ولا حتى إيتيان دافيد الذي يخبر قبل مروره ولو لدقيقة واحدة.

– آلو. نعم.

صوت امرأة خشن بعض الشيء، لكنه لم يفقد أنوثته.

– عمّو؟ Comment ça va tonton Marina[٦٨]

– عمو؟ هذا جديد عليَّ، لم أسمعه منذ زمن بعيد. مرحباً.

قال مازحاً وهو يحاول أن يستدرج الصوت أكثر لمعرفته.

– طيب يا سيدي، سلطان حميد... أو زازو... عيشتك آزازو بالشوية... الله... الله... لا... حميمد أحلى وأجمل لأنه قريب من اسم الرّايس بابانا؟ خلينا من هذا وذاك، يونس مارينا أفضلهم جميعاً، لأنه اسم كاتبي المفضل. لم تعرفني بعد؟

– أحاول ولكني بالفعل لم أصل بعد. أشعر بخجل أمامك. الظاهر أنك تعرفينني جيداً. المشكل أن صوتك ليس غريباً عليَّ أبداً.

---

٦٨ كيفك عمّو مارينا؟

– حرام عليك. نوّة. نوّة حبيبتك؟

– والله حتى الآن لم أعرف. نوّة؟ نوّة؟ نوة؟

– لو... لي... تا... مليح هكذا؟ هههههه... لوليتا يا حبيبي.

واش راها صاحبتك الألمانية التي تغار عليك؟ كانت حابة تأكلك بعينيها وأنت تحدثني.

– هاااه. فهمت. لوليتا... أخيراً؟

– توحشتني؟ ههههههه

على الرغم من ضحكتها التي تفرقعت كالملحة على جمرة متقدة، وقعت الكلمة باردة على رأسه. لم يشعر بأي تجاوب معها. لماذا لم ترد عليه عندما ناداها في المعرض بالاسم نفسه الذي علق بذهنها؟ إيفا لم تكن مخطئة. شعر بنوع من الارتباك. بهجوم مبطن ضده كانت تمارسه. ملاحظتها عن غيرة إيفا لم تكن بريئة. لا يدري بالضبط ما الذي جعله يتريّث؟ في زمن غير هذا، كان بكل بساطة، سيغلق السماعة في وجهها. لم يفعل ولا يدري لماذا؟ لا يتذكّر أبداً متى أعطاها التليفون؟ تعلم أن لا يعطيه لأحد. حتى إيتيان دافيد نصحه بوضع رقمه في القائمة الحمراء حتى يظل محمياً. جملة دافيد لاتزال ترن دائماً في رأسه بلا توقف:

–« الحذر يعني الانتصار لمنطق الحياة وليس خوفاً. إعطاء الرقم لشخص واحد، معناه قبول السير عارياً وبهشاشة. يكفي

أن تعطي رقمك لشخص، ليصبح ملكاً مشاعاً، ولتزيد المخاطر غير المحسوبة. بالرقم يمكن كشف عنوانك بسهولة.

– جربت أن لا أفعل ذلك لمدة قصيرة، فشعرت كأني une bête traquée[٦٩]. هذا الإحساس قاهر وقاس لأنك في لحظة من اللحظات تفتقد حتى إلى الشرطية الدنيا لإنسانية الإنسان.

– لكن حياتك يا صديقي لا تُعوض.الحياة هبة. مرة واحدة وبعدها كل شيء يطير في السماء.»

لا يدري القوة الداخلية التي منعته من ردة فعل آلية تعوّد عليها. غَلْقُ التليفون، وتوقيفها عند حدها. لكنها سبقته وكأنها قرأت ما كان يدور في رأسه.

– حبيبي مارينا؟ لا تفكر كثيراً، أنا هنا. بإمكانك غلق التليفون في وجهي، ولن أزعجك مرة أخرى. أنت سيد وضعك. افعل ما يروق لك وسأنسحب حالاً.

ارتبك من جديد. شعر بها مثل عين مواجهة له، تراقب كل حركاته، حتى الصغيرة منها. أراد أن يغلق التليفون ولو بشكل عنادي مبطن ولكن كلماته سبقته.

– لا، أبداً. أفكر في كلامك.

– كيفها صديقتك الألمانية؟

---

٦٩ حيوان مُطارد.

– قصدك إيفا؟ مترجمتي إلى الألمانية. هي بخير.

– أعرف أنها هي من يترجم أعمالك الناجحة. برافو... هي التي جعلت اسمك على رأس قوائم المبيعات، والموت أيضاً .

زاغت عيناه قليلاً، لكنه وجد كلماته بسهولة. حاول أن يرجعها إلى حجمها الطبيعي.

– الظاهر أنك من المدمنات على غوغل ههههه.

فجأة جاء صوتها بارداً هذه المرة كضربة سكين.

– لا لوم عليك لأنك لا تعرفني. أتابعك أنت وليس غوغل. أقرأ كتبك واستلذّ بكل ما تكتب. ربما أعرفك أكثر مما تعرف نفسك. أحياناً أتساءل إذا لم أكن مريضة بما تكتبه. تذكرني هذا العلاقة بفاغنر ونيتشه، التي خرج من ورائها بكتاب: حالة فاغنر[٧٠]. موسيقاه من القداسة بحيث تحولت إلى مرض العصر.

– أمزح.

بدا كأنه يرقّع حماقة فلتت منه دون تفكير.

– أنا أكثر من غوغل. أتابعك على القنوات العربية والأجنبية. حتى تلك التي لا أعرف لغتها. يكفي أن أراك، لأهتز داخلياً. أظل معلقة على الشاشة ساعات، في محاولة يائسة أحياناً لمعرفة ما تقوله. تخيل قبل يومين رأيتك على شاشة يابانية؟ ضحكتُ

٧٠ Le cas Wagner.

لأن التي دبلجت صوتك كانت امرأة. شتان ما بين صوتك الذي تسكنه بحة جميلة ودفء غريب، وصوتها الرقيق جداً كخيط من الماء في فراغ كبير. تناقض. صوتها كان غنائياً ولكن به الكثير من البرودة، وفي صوتك شجى يشبه الحزن الدائم، يقرّبني منك ويحسّسني بصدق ما تقوله. للغة صوت أيضاً ، نعرفه، أو نتخيله على الأقل مثلما يحدث معي. قد أقتل يوماً فقط لأني أحبك لا أكثر.

صمت قليلا. شعر فجأة بصدق كل ما كانت تقوله.

– والله لا أدري يا نوّة...

– لوليتا حبيبي. ورّطتني فيه، خلاص.

– أتساءل أحياناً إذا لم أكن لعنة على كل من أحب. حتى إيفا لم تسلم من التهديدات الكثيرة التي لحقت بي. مع أنها لا دخل لها في كل ما حدث ويحدث. مجرد وسيط. وسيط عاشق لنص ما.

– أو لرجل ما... هههههه. ولا يهمك. التّرجمة مثل الخمرة المعتقة أيضاً .

اندهش من تشبيهها الذي بدا له غريباً إلى حد لم يجد له أي منطق. على الأقل لم يسمع به من قبل. أو ربما لم يفهما بالشكل الذي يليق بكلامها الجريء.

- الخمرة المعتقة... لم أفهم؟

- في الدين الإسلامي، كل السلسلة التي تتعامل مع الخمر مذنبة: صانعه. خازنه لتعتيقه. موزعه. بائعه. وفي آخر السلسلة شاربه. الشارب هو الحلقة الأخيرة في القائمة. مترجمتك تنطبق عليها صفة الموزعة ومسهلة مروره. أنت صنعتَ الرواية. فكرتَ فيها. كتبتَها. لكنها قناتك عند الألمان لتمرير نصك إلى القراء. أي إلى شاربيك. من الطبيعي أن يغضبوا عليها ويهدّدوها.

- لا علاقة مباشرة لها بمادة الرواية.

- ربما كانت أخطر منك. من اللغة الألمانية يمكن أن ينتقل نصك نحو كل العالم الجرماني. ومنه إلى من يحب الجرمانية من أمم أخرى قد يغريها نصك، فتترجمه إلى لغاتها الأصلية. إلى كم لغة ترجمت نصوصك؟

- أعتقد أربعين لغة.

- واااو؟؟؟ أي أربعين شعباً؟ كل هذا العدد من الضحايا؟ مترجماتك نساء كلهن؟

استغرب السؤال مرة أخرى لكنه بدأ يتعود على ردود فعلها. واصل حديثه، بل استلذ له في أعماقه.

- لا. هناك رجال أيضاً . يمكن خمسة. أحدهم عمره تجاوز

التسعين سنة.

- هذا الله يرحمه بهذا السن؟ حتى ولو كان امرأة. البقية كلهن نساء؟ بعمر إيفا؟

استلذّ اللعبة ومَكرها أكثر.

- أصغر أحياناً. بالخصوص المترجمات الآسيويات. هناك بعض الترجمات بعيدة عني لغويا كالفيليبينية والكورية، وحتى اليابانية والصينية. بعض الترجمات الأفريقية لا أعرف إن كان أصحابها رجالاً أم نساء؟ وكيلي الأدبي يتكفل بكل هذه التفاصيل. يمكنني أن أربطك بعلاقة معه.

- لا ليس مهماً. سؤال طائش فقط. هل هُدِّدوا كلهم بسبب ترجمتهم عرش الشيطان؟

لم يفكر في هذا الموضوع إلا نادراً، وبألم شديد.

- في بعض الأماكن نعم. عرفت هذا من تقارير وكيلي الأدبي والملحقة الصحفية. الفيليبيني وجد مذبوحاً في بيته في جزيرة جافا. المترجم التركي والإيراني ماتا في حادث غريب ومشابه. الأول أحرق في بيته، والثاني اختنق بالغاز مباشرة بعد ترجمة الرواية.

- قد تكون مجرد صدف متلاحقة.

- ربما. أنا أجيب عن سؤالك، وأنقل لك ما قيل لي.

الباكستاني اختفى ولا أحد يعرف أين ذهب؟ بعض الأخبار تقول إنه عندما هُدّد، ذهب نحو قبيلته الباشتونية الأصلية، لتحميه. الكتب ليست دائماً متعة، قد تكون كارثة ليس فقط على أصحابها، ولكن حتى على محبيها.

صمتت قليلاً. شعر بها تبحث عن أدوات جديدة للحديث.

– هل أنت سعيد؟

– لست مكتئباً.

صمتت مرة أخرى كأنها تبحث عن جملتها الهاربة.

– أمازلتَ تحت حماية من قتلوا والدك... قصدي الشرطة الفرنسية؟

تستفزه بعنف. كأنها كبّت على رأسه دلواً من الماء البارد. شعر فجأة بتفسخ في لحمه. هربت اللغة من فمه غزلاناً مذعورة من موت قاس. أحس بفجوة عميقة تشبه الانكسارات التي تعقب الزلازل، ترتسم في كامل جسده المتعب.

تلعثم. قبل أن تكتشف لوليتا ارتباكه، فضّل الصمت.

تراءى له من بعيد والده وهو يتهاوى كعصفور أسقطه قناص ماهر من أعالي السماء. يتدحرج في عرض السماء كالريشة ليسقط على الأرض ببطء كاشفاً عن جراحات عميقة جراء التعذيب. رأى حتى نقطة الدم التي علقت بالطرف الأيسر

من بين شفتيه. ثم رأى نفسه يبكيه قبل أن يحفر له قبراً صغيراً يدفنه فيه، لم يحصل عليه طوال السنوات التي مرت. ثم وهو يقرأ عليه النشيد الوطني قبل الفاتحة.

كل الإجابات احترقت في فمه وحركت فجأة مواجعه هو الذي كان يظن أنه قام بعزائه نهائياً من والده ومع زمن محمّل بالأحقاد والدم.

بدت له لوليتا على عكس ما رآها في المرة الأولى والأخيرة، لبؤة صفراء اللون، أخرجت فجأة كل مخالبها لتبطش به مستغنية عن ألفتها التي ظهرت بها في فرانكفورت. شعر بها تخطت بسرعة كل الحدود المقبولة. مرة أخرى فكر للحظة أن يرمي بالتليفون أرضاً حتى لا يشتمها ويتقهقر نحو حالة لا يريد أن يرى نفسه فيها. كلماتها كانت ثقيلة، ربما لأنها حقيقية بعض الشيء؟ أو ربما لأنه لم ينتظرها. حاول أن يتعقل قليلاً. هي لا تعرف شيئاً. اكتفت بالجزء الظاهر لما يبدو أنه حقيقة؟

التقت نظرته بسيدة لوحة الذبابة. لم تكن سعيدة. أشاحت بوجهها بعيداً. غرق في الصمت أكثر.

لم تترك له لوليتا فرصة لتفكير أوسع.

– هاااه حبيبي؟ تصمت؟ تريد أن ترمي التليفون هذه المرة

أيضاً ؟ أن تكسره على وجهي؟ بإمكانك أن تفعل، سوى أن ذلك لن ينفعك في أي شيء. أنا بعيدة عنك، ولا تعرف حتى المكان الذي أتواجد فيه.

- ... ...

- أعتذر عمري. كنت أمزح معك فقط. ربما كانت المزحة ثقيلة بعض الشيء؟ لكن يبدو أن حساسيتك مفرطة في هذا الموضوع. هل تدري أنك تشبه أبطالك. المؤكد أنك نسيت. في ذئاب العقيد يتصرف أحد أبطالك مثل تصرفك الآن. الشفافية تتحول أحياناً إلى هشاشة، ثم إلى عطب مزمن. الصمت والرغبة في كسر كل شيء. ربما حتى في الانتقام.

استرجع ثقته وريقه الذي نشف فجأة.

- أنت تخلطين كل شيء.

- أنا لا أخلط شيئاً. أنا أمزح فقط. أستعير جملاً من رواياتك، لا شيء من عندي.

- مزاح يُذكر فيه الأموات، قاسٍ. والدي اغتاله الاستعمار البغيض. ما ذنب فرنسيي اليوم لأحملهم وزراً لا سلطان لهم عليه؟ بعضهم لم يسمع مطلقاً بما حدث إلا بشكل عابر، وبعضهم الآخر يشعر بخجل من تاريخ بلاده، وآخرون يتحول التاريخ بالنسبة لهم إلى بطاقة بريدية كان يبعثها أجداده من

رمال الجنوب وشمسه، وهو سعيد بذلك.

- «سُورِّي» عمري. لم أقصد. كنت فقط أحاول أن أتخفى تحت جلد أحد أبطالك. مجرد استفزاز لتنشيط دورتك الدموية. رأيي في النهاية لا يختلف عن رأيك. أنا أيضاً أعيش في هذه البلاد منذ سنوات. أكثر من ذلك، أنا فرنسية. لي أصدقاء فرنسيون يحبونني وأحبهم، وهناك من يكرهني أيضاً فقط لأن سوء الحظ جعلني ابنة شخص عربي بربري ومحظوظة في عالم الموضة.

فجأة أحس بدرجة غليان الدم قد نزلت قليلاً. استكان.

- المحيط الذي نحن فيه مصاب بنا أيضاً، في أحيان كثيرة لا يرى ما يجب أن يراه. لهذا، قليل من الحذر لا يؤذي أحداً.

- محيطي صعب أيضاً . لا يطاق. فيه حسد كبير لدرجة المرض. تخيل؟ نجاحك يمكن أن يصيب غيرك بالمرض القاتل أحياناً؟ بالحقد والعداوة المزمنة. عارضة أزياء في مؤسسة مثل كوكو شانيل، وقبلها جون بول غوتييه، أو إيف سان لوران، يعرضك في كل ثانية للتلف مثل أية سلعة سريعة العطب، وعليك أن تثبت يومياً أنك مازلتَ مرغوباً، ولم تنته صلاحيتك.

كان يريد أن يسألها عن عملها ولكنها قالت كل شيء.
صمتت قليلاً.

– خذ حذرك حبيبي، لا تلعب بروحك.

– لم أفهم؟

– أنت في قائمة القتلة. صيد سمين، كما يسمون ذلك. لا تنس هذا أبداً.

– لكل منا يومه الأخير. الأمن الفرنسي يقول إن شيئاً ما يدبر ضد مثقف كبير منفي عن بلده. أنا موضوع منذ مدة تحت الحماية الأمنية. قالوا لي إن حياتي أصبحت في خطر؟ على كل حياتي كانت كلها عبارة عن مخاطر متكررة. من ذئاب العقيد إلى جراد الإمام، الضحية دائماً فراشة ألوانها لم تعد تروق للقتلة.

– ألم أقل لك إنك تشبه رواياتك.

تردد قليلاً في التفاصيل، ولكنه تأكد من أنه لا سر فيما كان يقوله. الكثير من الناس يعرفون ذلك، بل وأكثر. تسريب موضوع كونه مراقباً من الأمن، له مفعول ردعي على الأقل.
صمتت قليلاً وكأنه جعلها تبتلع سؤالاً كانت تنوي طرحه عليه.

– نعم يا لوليتا.

- حبيبي. الله يحفظك من كل الشرور. يجب أن لا تموت الآن بعدما وجدتك. كنت أمزح، يمكنك أن تناديني باسمي الحقيقي، نوّة إذا شئت.

- اسمك جميل ... نوّة. هل تعرفين معناه؟

- نعم. رذاذ الفجر. أو المطر الخفيف. أشعر به يناسب هشاشتي وداخلي المليء بالألوان. جئت أنت، فنسفت كل شيء. منذ أن ناديتني لُوليتا أصبحت أتساءل بين حالة العشق والرفض، ما الذي دفع بك لمناداتي بهذا الاسم الذي لم أكن أحبه. قرأت الرواية مرات عديدة، آخرها بعد أن غادرتك، ولم أجد في لوليتا ما يثيرني. ولا حتى في كل كتابات نابوكوف.

- إلى هذه الدرجة؟

- سأقول لك رأيي بالتفصيل عندما نلتقي.

تساءل مرة أخرى. كيف علقت لوليتا برأسها، بينما يُفترض أنها لم تسمعه عندما ناداها به؟

مرة أخرى انتابه وجه إيفا حزيناً ومنكسراً.

- حتى أكون صادقة معك، لنقل إن اسم لوليتا لم يكن يعجبني. لكن الآن الأمر تغير، لأن تسميتك لي جاءت من قلبك. ربما لأني أنا أيضاً وجدت ضالتي في شيء يجمعني بك؟

- مهبولة.

فلتت الكلمة منه بعفوية.

- في يوم من الأيام سأحكي لك عن هذه المهبولة التي شبهتها بلوليتا، وتمنَّت عندما التقتْ بها في كتاب نابوكوف في آخر مرة، أن تأكل رأسها، لكنها كانت مجرد لغة، لم تجد لها مدخلاً لتدميرها. عندما أعدت قراءة الرواية في المدة الأخيرة، كرهتها وأحببتها لأني فجأة اكتشفت أني أشبهها أو تشبهني. ربما كانت أمي أو جدتي. أحببت ولعنت همبر همبر. لم تثرني لوليتا من قبل إلا عندما ناديتني بها وأنا أهم بالخروج.

- لماذا كرهت همبر همبر؟

- لا. لم يغرني. وجدته فجاً، بل مجرماً صغيراً وأحياناً أنانياً ومنحطاً. كانت مهبولة. ما عرفلهاش؟

« ما عرفلهاش». بالضبط. الكلمة التي كان يبحث عنها. كلمته التي أتت من بعيد متخطية البحر والوجوه والأثقال والأصفاد والخوف والقبور. ما عرفلهاش. كان يقال في مدينة مارينا، عندما يدخل الزوج على زوجه ويفض بكارتها بسرعة تاركاً إياها تعوم في بركة من الدم: هي ناعمة هو بغل، ما عرفلهاش. حدث هذا مع أخته التي ماتت بنزيف بعد يومين من زواجها. سمع أمّه بعد أن هدأت من آلام الفقدان وهي تكرر الكلمات نفسها أمام المعزيات: «بنيتي. سويرتها[٧١] معوج. هي ناعمة وهو بغل، ما عرفلهاش.» فكر أن يكتب هذه الكلمة على

٧١ حظها. أصل الكلمة إسباني suerte وتعني الشيء نفسه.

قبرها عندما يعود إلى أرض الوطن. القبور في القرية تمّحي بسرعة. حتى عندما توفيت أمه فكر في ذلك أيضاً ، لكن الزمن القاسي كان ظالماً مرة أخرى.

تمتم ولا هو يدري إن خرجت كلماته من فمه:

– «نفقد كل شيء. كل شيء بلا استثناء، حتى صراخنا الأول الموشوم في الذاكرة، إلا اللغة التي تستمر طويلاً قبل أن تتهاوى كأوراق الخريف. ثم ندفن شيئاً من أجسادنا في قبر من نحب. قبل أن تأتي الانكسارات المتتالية على ما تبقى من الجسد. تترنح اللغة طويلاً بين أيدي الآخرين قبل أن تنسحب هي أيضاً من المشهد القاسي، ونُطوى في مكتبة الأقدار الضخمة.»

لا يدري كيف وجد جمله التي تربطه بها.

– لوليتا كانت أكثر إنسانية منه، وربما أكثر إخلاصاً لهبلها. كان متملّكاً وأنانياً، وصغيراً.

– لم يعجبني في كل شيء إلا في هذه. تملّكه. الحب انتماء كلي إلى الآخر. ذوبان فيه. بلا تملّك، لن يكون العشق حباً؟ أحببت والدي لأني كنت أريد تملّكه، وحتى سرقته من أمّي انتقاماً من ضحالتها وبؤسها؟ غارت مني أمي لأنها لم تفهمني.

– والدك؟

– قصة طويلة أيضاً . سأحكيها لك في يوم من الأيام.

عاود النظر مرة أخرى إلى اللوحة. كانت الذبابة التي لا يدري من أين دخلت إلى المكان، تدور وتدور. حاول أن ينشها ولكنه سرعان ما غير رأيه. شعر بطنينها يعطيه بعض الألفة المفقودة. بعض الاستكانة. حطّت في أمكنة كثيرة قبل أن تحطّ بالضبط على أصابع السيدة، في اللوحة، متفادية الشمعة المشتعلة وضوءها الحاد. لمع في رأسه وجه الرّايس بابانا. والذبابة التي عاش في ظلها. في اللحظة نفسها أدرك لماذا أعطى للوحة تسمية الذبابة لأنها الوحيدة التي رافقته في أزمنة البياض القاسية.

– وينك حبيبي؟

– عذراً. معك عمري.

– لا أثقل عليك. لا تنس أن لي عندك توقيع؟ أعدت قراءة عرش الشيطان. كل الكتّاب يتشابهون. غوستاف فلوبير لم يكن مخطئاً عندما قال: إن مدام بوفاري هي أنا. مجنون من أراد أن يبحث عن شخصياتك خارجك. منك وفيك. أنت مساحة حريتها الكبيرة.

لا يدري كيف قطع المحاورة بسؤال لم يكن له أي مبرر، أو جاء متأخراً جداً.

- نوّة؟

- نـوّة ماتت في اللحظة التي التقتْ فيها معك. لوليتا حبيبي. لو... لي... تا... قَدَرُك القادم.

جاءه صوتها من هناك، من نقطة لا يعرفها، دافئاً كصوت طفلة ضائعة في لحظة تيه.

- تريد أن تهرب؟ أن تقطع في وجه حبيبتك لوليتا؟

- لوليتا، هل لي أن أسألك؟... من أعطاك تليفوني؟

- كان يُفترض أن يكون هذا أول أسئلتك وليس آخرها. ما عليهش. لا تترك الألزهايمر يسكنك... هل بدأت تنسى؟ اللمعة التي رأيتها في عينيك لا توحي مطلقاً بذلك. عندما قلتُ لك أريد إهداء حميماً لا يشبه الإهداءات الأخرى، وضعتَ في عمق كفي تليفونك. كتبتَه على ورقة طائشة. قلتَ لي نلتقي قريباً، وربما هذا الذي غاظ إيفا. وها أنا ذي أتلفن لك. أنا أحتفظ بالورقة. عندما تحصل على نوبل، أستطيع أنْ أدعي أنّ يونس مارينا كان حبيبي، عشيقي، أبي... لا . كان كل شيء إلا أبي. هههههه...

ضحكة انفجارية أخرى. صمتت قليلاً.

شعر بها تنط في فراشها ثم تهدأ فجأة. لم يستطع أن يكتم ضحكته هو أيضاً .

- هههه... مهبولة. نوبل مرة واحدة؟ بعد موتي ربما؟ حتى هذا الحظ غير ممكن، لأنه عليك أن تظل حياً لتحصل عليها وإلا راحت عليك.

- طول العمر. ربي يحفظك من أي مكروه. لا تقل مثل هذا الكلام أرجوك.

شعر بوجه إيفا وهو يتفرّسه بعينين زرقاوين صافيتين، ولكن غير مريحتين.

- هل لي أن أسألك سؤالاً آخر أكثر غباوة من السابق؟

- قل عمري، حبيبتك لوليتا تحت أمرك.

- لماذا لم تردي عليَّ عندما ناديتك لوليتا؟

- ماذا كان سيحدث لو ردّيت عليك؟ لا شيء؟ أعلقك في الفراغ، وأعلق نفسي معك على آخر استجابة لنداء كان فضولياً أكثر منه نداء للعودة. لو ردّيت عليك لطالبتك بالبقاء معي ليلتَها، ولسرقتك من إيفا. لا أقبل حبيبي بأنصاف الحلول. الحب كذبة جميلة وأنصاف الحلول تحوله إلى ألم. كنت قريبة جداً منك ولهذا تفاديتك. وأنا أنسحب، قرأت في عيني إيفا، وربما في عينيك أيضاً ، قبل أن أخلط كل الأوراق، شبقاً غامضاً لم أكن أريد كسره.

- كان يمكن أن تردّي على الأقل.

– لو بقيتُ كنت إما خسرتك أو سرقتك، لا حل ثالث. وربما... كنت قتلتُ إيفا هههههه

– واوووووو بسرعة تنزلقين إلى الفعل؟

– نمر بسرعة إلى الفعل ولا نفكر في خرابه إلا لاحقاً. هذه هي الجرائم العاطفية. أنت تعرفها أكثر من أي شخص آخر. يا ما قتلتَ عشاقاً رائعين في رواياتك؟ أحياناً أتساءل من أين لك بكل هذه السادية وهذا القلق الغريب؟ يا سيدي الله يخليكم لبعض. إيفا تحبك أيضاً .

خاف فجأة من أن يخسرها.

– لم أقصد هذا. إيفا صديقة ومترجمة ليس أكثر.

كان يكذب.

فوجئ بحريتها في كلامها وسهولة جملها وعفويتها. على العكس من إيفا التي تحتاج إلى ميزان الذهب قبل أن تطلق جملها من فمها، وهو ما يفسد عليها علاقاتها مع الآخرين. لا تقل شيئاً إلا إذا اقتنعت به. تعترف إيفا أنها ليست امرأة سهلة أو عفوية.

– يا عمري هذا يخصك. نصف كلامي سخرية ومزح. أنا لا أجبرك على الكذب؟ على كل حال الفرق بين فعلي كتَبَ وكذَبَ، فرق في حرف واحد يندثر فيه معنى، وينشأ آخر. بل يتداخلان

أحياناً. الكتابة تصبح كذبة والكذبة تتحول إلى كتاب جميل. لوليتا أيضاً ليست أكثر من كذبة جميلة في عمق كتاب. رأيت يومها شيئاً ساحراً في عينيك، ولكني أتساءل أحياناً إذا لم أكن كذبتك الجميلة أيضاً التي عندما تكتشف هول حقيقتها ستصاب بفداحة الحقيقة القاسية. ألم تبدأ حياتك الكتابية نفسها، بكذبة جميلة؟ كذبة غيرت مسارك كلياً، وكادت تقتلك؟

- صحيح.

- نداؤك عليّ يومها، حرك شيئاً في داخلي. بعدما تركتك، ركضت مباشرة نحو أقرب مكتبة واشتريت لوليتا من جديد. أعدت قراءتها كما قلت لك وكأني أكتشفها للمرة الأولى. لم أجد ما يجمعني بها. كانت أصغر مني بكثير. وكنتُ أكثر مكراً منها. عشرون سنة كانت كافية لأعرف الحياة بالضبط، وأشعر أني الآن وصلت إلى السقف. مشكلة جيلي أنهم يعيشون الحياة بسرعة غريبة ولهذا يكبرون دون أن يلمسوها، وربما ينهون حياتهم أيضاً بالسرعة نفسها لأن الوقت الباقي في حياتهم مجرد مجموعة من التكرارات البائسة التي لا تهز شيئاً فيهم أبداً. لو كنتَ صديقي كنت أتعبتك لأني سأطلب منك كل ليلة أن تأتيني بشيء جديد. أن تهزني وتخرجني من دائرة

التكرار. حتى في الجنس، أريدك أن تكون خلاقاً لاستمر معك ههههه. وإلا سأتركك أو تتركني. التكرار يطيل في حياة الموت واليأس.

- مخيفة؟

- لا والله. امرأة عادية في عالم موحش. عالم يقيس قيمتك ووزنك بما يمتصه منك.

كانت جملها الأخيرة منكسرة. لأول مرة يشعر بأنها كانت صادقة في كل ما كانت تقوله. ولم تكن تكذب أبداً. فكر أن يسألها عن قصة والدها وأمها التي قالت إنها سترويها يوماً، ولكن ذلك بدا له سابقاً لأوانه.

فاجأه صوتها من جديد.

- اسمع هذه الجملة وقل لي هي لمن؟ كيف أقفز إلى قلبك، فقط لأطل عليك قليلاً، وأقول لك يااااه لو تدري كم أحبك؟

- لك. لمن يعني؟

- لا عمري هي لمريمتك في لحظة شوقها وحنينها. هل بعد كل هذا تريد أن تراني؟

- أتمنى من قلبي.

- مااااااااححححح. أراك عمري.

ثم انطفأ كل شيء وعادت الغرفة إلى سكينتها.

التفَتَ يونس مارينا من جديد نحو اللوحة. تفحص طويلاً تفاصيل وجه المرأة وملامس أصابعها الناعمة التي كانت اليسرى ينام عليها الخد الأيسر، بينما أنامل اليد اليمنى تنام على جمجمة كانت بدورها تنام على كتاب ضخم تخترقه ظلال المكان والضوء الهارب من الفجوات ومن الشمعة الزيتية التي لا تظهر إلا ذبالتها المشتعلة.

-٣-

البرد الخريفي سكين يغوص في الأعماق.

كان يونس مارينا ملفوفاً في كوفيته الحمراء التي وضعتها أمه على عنقه لأول مرة وهو يهم بمغادرة البيت للمرة الأخيرة، قبل أربعين سنة. لا يلبسها إلا شتاء، يشم رائحة أمه فيها طويلاً، رائحة القرنفل والزعتر، وماء الزهر وعطر البرتقال، قبل أن يطويها في نهايات مارس ويخبئها حتى شهر ديسمبر من السنة التالية. عندما انفرط بعض خيوطها ليس بسبب قدمها، ولكن جزءها التحتي التصق بشجرة وكان يلعب مع صديقته التشيلية إزميرالدا، بات الليل كله حزيناً. أخذتها صديقته لامرأة مختصة في ترميم الألبسة وأرجعتها له مساء كما هي. ليلتها شرح لها ماذا تعني له تلك الكوفية.

لم تكن كوفية عادية، ولم يكن دفئها عابراً. كلما ارتداها، شيء غريب يغرقه في وجه أمه. في ملامحها الحزينة، في رشاقة يديها وهي تصنع الصوف لبيعه. لم يحفظ إلا حركتها الأخيرة وهي تردد: ربي يحفظك يا وليدي حميمد من كل أذى... كنت حابّة نبيعها ولكنها على عنقك أفضل. هل هناك من يستحقها من غير حبيبي حميمد؟

علقت دمعتان في عينيه لدرجة الحرقة. - «يااااااه؟ تنفس طويلاً تاركاً بخاراً كثيفاً يخرج من فمه. ماذا تفعل فينا الأشياء الصامتة؟»

لم يكن الخريف أفضل الفصول، ولكنه كان أشهاها. شيء ما فيه يشعره بذلك دائماً. عندما كان صغيراً، كان يتقن شيئين: حفظ العواصم العالمية التي لم يكن أحد ينافسه فيها على خرائط البلدان، ومعرفة تاريخ وفيات الأعلام والكتاب. اكتشف أن أغلبهم ماتوا إما في نهايات الخريف أو في صلب فصل الشتاء. ربما لأنه في فصل الخريف تكثر الصدف القاتلة، مع أنه يدرك أن الحياة هي أصلاً كومة من الصدف القاسية التي تدفع بالناس حتى محاذاة الموت، قبل أن تظهر فجأة يد غريبة تخرجنا من الخطر ثم تنسحب دون أن نتمكن من اللحاق بها لشكرها. الصدفة ليست سواداً دائماً. افترض يونس مارينا أن آدم نفسه مات في نهايات فصل الخريف غبناً. وحواء لحقت به، بعد شهر واحد، مع فاتحة الشتاء. وأن أول جريمة بين هابيل وقابيل تمت في نهايات الخريف أيضاً . عندما كان يُسأل عن مصدر المعلومة، يجيب وهو يضحك مثل الواثق بنفسه: هذا إحساسي، وليس شرطاً أن يوافق عليه المؤرخون.

التفت نحو لوليتا، وهو يحاول أن يقرأ في عينيها سر الصدفة الغريبة التي لاقتهما.

– كانت كل شيء، إلا صدفة. تذكرت آدم وحواء. التقيا في مثل هذا الشهر البارد.

– آدم وحواء ههههه؟ من أين لك بكل هذا العلم؟ لا أدري مصادرك، ولكني مؤمنة اليوم، أن أجمل الصدف هي ما نصنعه نحن أيضاً . هل تحب هذا المكان؟ أنا أموت في الكنائس والمعابد. أتمنى أن لا أكون قد فرضتُ عليك شيئاً لا تحبه.

– لا أبداً. عادي.

لم يقل لها أنه استغرب اختيار هذا المكان ولكنه لم ير في ذلك أية أهمية. يمكن أن نختار حديقة، مقهى، مسجداً؟ ولِمَ لا كنيسة قديمة في عمق الحي اللاتيني القديم؟ هو نفسه عندما كان صغيراً، كان يلتقي مع سارة على حواف كنيس قديم في مدينة مارينا، بُني ثم أهمل طويلاً بسبب معاداة السامية، قبل أن يُعاد ترميمه بعد صدور مرسوم كريميو[٧٢] الذي اعترف ليهود الجزائر بالجنسية الفرنسية، وظل المسلمون يسيرون بقانون الأهالي. قبل أن يصدر رئيس البلدية بعد الاستقلال،

---

[٧٢] Le 24 octobre 1870, un décret donne la citoyenneté française aux 37.000 juifs d›Algérie. Dans la foulée, les colons originaires d›Europe (Italie, Espagne, Malte...) sont aussi francisés en bloc. Quant aux musulmans d›Algérie, ils sont maintenus dans le statut d›indigène. C›est le début d›une fracture douloureuse et irréductible .entre les deux communautés

وموظفوه قراراً، بهدم هذا الكنيس، بحجة أن اليهود لا علاقة لهم بهذه الأرض، وأنهم اختاروا أن يكونوا فرنسيين. ذكَّرهم يومها، في الساحة العامة التي تجمّع فيها اليهود والكثير من المسلمين، وكنت برفقة سارة بنت الحاخام، بقانون كريميو الذي قبلوا به وتحمّسوا له. عندما شرح الحاخام لرئيس البلدية أنّه جزائري، وليس فرنسياً، وأنه نبت في هذه المدينة هو وأجداده ربما قبله، منذ القرن السادس عشر، وأنه ليس من حقّه أن يحرمه من قبور أجداده الذين يملأون مقبرة حدائق تلمسان ومارينا، لم يخسر عليه رئيس البلدية المتحمس للهدم أكثر من كلمة واحدة: إما أن تغادر أو تبقى، وقتها لست مسؤولاً عنك في حصول أي مكروه. رد عليه الحاخام بهدوء كبير: - «الناس لا يتشابهون يا سيدي. سأجد من يحميني، فأنا لم أفعل إلا الخير لهذه الأرض الطيبة. الذين حمونا في عز التقتيل الجماعي ولم يسلمونا إلى فرنسيي فيشي، هم أنفسهم من يحمينا منك إذا كان في الأمر ضرورة.»

وبقي الحاخام في حماية سكان مارينا أكثر من خمس سنوات، قبل أن يُغادر نحو المغرب، عندما تأزم الوضع، بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، لم يبق أمامه إلاّ حل الانتحار.

التفت يونس مارينا نحو لوليتا.

- كنيسة؟ ولمَ لا؟ كان يمكن أن يكون كنيساً يهودياً، أو مسجداً، أو حتى فراغاً؟

- حتى المساجد تصلح للمواعيد العشقية، ولو أنهم أفقدوها بعضاً من ألقها الجميل. أشعر دائماً أنه في عمقها صمت غريب لا أحد يستطيع معرفته. صمت الصلوات والآلهة والخوف من آت لا نحس به ولا نلمسه، لا نعرف عنه أي شيء، لكنه موجود فينا. الإنسان يصبح صغيراً في مثل هذه الأمكنة.

ضغطت لوليتا قليلاً على يده. لأول مرة يشعر بدفء أصابعها وصغر كفها ، بعد أن نزعت القفاز الأسود لتدخل أصابعها بين أصابعه وتشبكها بنعومة وهي تتمتم: «يااااي يديك كبارْ ودَافْيينْ. »

ماذا في أصابع لوليتا؟ تساءل وهو ينظر إلى سيدنا المسيح في حجر أمه، محاطاً برماح الجند الرومانيين، في اللوحة التي تحتل صدر الكنيسة.

كانت لوليتا ترتدي لباساً أسود لا يخترقه إلا شال بحري ناعم من حرير يكاد يشبه جرحاً أزرق. كانت غارقة في مجسم الكنيسة المعروض، وتتساءل عن الأيدي العظيمة التي تمكنت من تشييد هذا الصرح في زمن لم تكن فيه أية تكنولوجيا.

- شكراً أنك جئت معي. هذا يعني أني أعني لك شيئاً.

لست أكثر من قارئة هاربة ترى منهم الآلاف في كل مناسبة عابرة.

– القراء لا يتساوون. سعيد جداً بك.

– تعرف يا يونس، كلما ظننا أن الحياة أعطتنا كل شيء، اكتشفنا أنها سرقت منا أجمل ما ادخرناه من دهشة. سرقت مني جبّ أمّ غيورة مني إلى أقصى الحدود، ولو أنها لا تظهر لي أي شيء، بالخصوص بعد أن طلّقها والدي، بعد عِشرة أربعين سنة، وجاءت لتقيم عندي. وسحبت من بين أصابعي أباً لا أحتفظ من صورته إلا كسورات عميقة يعاكس الأبوة وقوتها وحنانها. أنت لا تعرف أنك تصاحب وهماً؟ امرأة تشكّ، بعد كل الذي عانته، أنها موجودة.

شعر بدفء حزنها. كان صوتها لذيذاً، وعيناها شاردتين في مبهم وحدها كانت تدركه.

– عظمة الإنسان يا مارينا في قدرته على التخطي الدائم للشّراك القاتلة التي تنصبها الأقدار له في كل مسالك الحياة.

– تبدين جريحة. ربما كان في سيدنا المسيح جزءاً من السلام لقلبك.

– يبدو أن حبك لسيدنا المسيح كبير أنت أيضاً . هل أنت مسيحي؟

ضحك. بدت له كطفلة، لا سلطان لها على لسانها.

– لست مسيحياً. حبّي لسيدنا المسيح ليس أقل من حبك.

– قرأت أنهم عقدوا ندوة علمية حول أعمالك في مدينتك مارينا، وخرجوا بنتائج تقول إنك كنت يهوديا، ثم انتقلت إلى المسيحية، وأن إسلامك مجرد تقية.

– علاقتي مقطوعة مع الضفة الأخرى، ولا أستبعد شيئاً. ما يهمني في سيدنا المسيح ليس الدين، فهو خيار شخصي، لكن في كونه علامة لجرح هذه الدنيا القاسية. قوته التي خلّدته في الذاكرة الدينية هي تسامحه حتى مع قتلته. سيدنا المسيح لم يكن استثناء إلا في هذا؟

– مَن يقرأك يتأكد من أن في قلبك شيئاً كهذا. كتاباتك أيقونات في جوهرها.

شعر بسذاجتها وفطنتها في الوقت نفسه. لم تخطر على باله فكرة الأيقونات؟

– مشكلتي ليست مع الأديان ولكن مع بشر يلبسون هذه الأديان كما يشتهونها ويفرضون علينا الشكل الذي ارتضوه لها. ولهذا لا يخلو أي دين من الملائكة والضحايا، ولا يخلو أي دين أيضاً من الشياطين والقتلة. يكاد يكون ذلك هو قانون الحياة.

- أعرفك بما فيه الكفاية. من شدة ما قرأتك وقرأت عنك، أصبحت لا أعرف متى يبدأ يونس ومتى ينتهي الكتاب؟ يتداخلان بشكل غريب جداً.

شعر برغبة في أن يُدخلها في حياتها حتى تخرج من موضوع ثانوي التصقت به فجأة. فهو لا يعرف عنها الشيء الكثير إلا ما قالته له عبر التليفون أو خمّنه. في أحاديثها دائماً أشياء تبدأ ولكنها لا تنتهي، إذ بسرعة تغرق في تفصيل آخر وكأن الزمن المعطى لها لا يمنحها وقتاً كافياً للذهاب طويلاً في سؤال واحد، قبل التوغل في سؤال جديد.

- عالمك أجمل لأنه أكثر سحراً بحركاته وألوانه وجماله. عارضة أزياء، شيء مدهش لأنه الغواية عينها. السحر العظيم هو أنَّ من يراك في مجلة أو في عرض ما، ينزعك بسرعة من ذلك المكان ويحل محلك؟ أي فن يستطيع أن يفعل ذلك؟ الدهشة في الكائن وليست في اللباس وحده. يحدث معي أحياناً أن أقف طويلاً أمام المجلات الصقيلة، والمحلات العامة للخياطة المتميزة. أتأمل أرقى وأجمل الفساتين الموضوعة من وراء الزجاج، يلبسها «مانكان[٧٣] من مادة البوليستر»، مجوفة من الداخل أو من القصب. لا حياة فيها أبداً. أما عندما تكون على

---

٧٣ Mannequin.

جسد امرأة، تلبسها الحياة، وتبدأ الجاذبية الحقيقية.

وكأنها وجدت عالمها الشهي. توقفت للحظة. انسحبت منه قليلاً ثم اقتربت من وجهه. لامسته بأناملها الناعمة وكأنها تكتشفه للمرة الأولى. ثم أحنت رأسها قليلاً ولم تستطع أن تخبئ حزناً باغتها فجأة.

– ليتك كنت قريباً من هذا العالم الذي لا شيء فيه يمر عن طريق الصدفة. تقول هذا لأنك ترى كل شيء من الخارج أو من وراء الزجاج. لا شيء يمسَّك، ولا رائحة تصلك. عالم يرفعك في لحظة، ويتنكر لك في ثانية. عالم مثل عالم البحر تماماً، خارجه مدهش، وقسوة داخله كبيرة.

– ولكنك سعيدة فيه ما دمت اخترته.

لم تفكر طويلاً وكأنها كانت تعرف ردة فعله.

– ليست الأمور بهذه البساطة. عالم جميل، بل ومخملي ولذيذ، ولكن البقاء فيه ليس شرطاً للأجمل إنّما للأقوى بكل المقاييس. في البداية، عندما ترى كل عيون الناس مسلطة نحوك، تصبح إلهاً صغيراً. تعلوك سعادة غريبة، ويصبح كل شيء خفيفاً تحت كعبك العالي، وجسدك الممشوق يصبح مجرد ريشة في مهب النّعومة. لكن عندما ينسحب العمر والسلطان منك تصغر في عينيك قبل عيون الآخرين. فجأة تدرك بأنك لا

تساوي شيئاً. مشكلة هذا الإله الصغير يا حبيبي هي أن حياته ليست ككل الآلهة. فراشة. عمر فراشة لا أكثر. نحن فراشات بملايين الألوان، ولكن لا أحد يضاهينا في الهشاشة والموت السريع. لمسة خشنة قليلاً تعرينا وتجعل كل الألوان تتطاير في السماء. عندنا مَثَل جميل لا يعرف سره إلا من عاشه: حاذر عندما تلمس جناحي فراشة، يمكنك في أية لحظة أن تجردها من لباسها المعشق بآلاف الألوان وملايين التدرجات. هذا ما يحصل لنا يومياً.

شعر يونس مارينا هذه المرة بصدقها في كل ما كانت تقوله، مع أنه تعوّد من لوليتا أن لا يصدق كذب الأطفال. كانت كلما تكلّمت، حتى في عزّ حماقاتها، شعر بها أكثر قرباً، مع أنّ ما بينهما لم يكن إلا كلمة فرّت هاربة لم يقدّر أحد منهما عواقبها وحساباتها. اندهش من ثقتها في نفسها. تتحدث كمن خبر الحياة في وقت مبكر. فجأة قطعت حديثها وكأنها كانت تريد أن تهرب من شيء لم تكن ترغب فيه. لم يضغط عليها. لا يريد أن يخسرها من أول لقاء فعلي. ألم تقل له حاذر عندما تلمس جناحي فراشة؟

– ألا تريد أن تحضر جنازتي؟ أنت لم تسألني لماذا جئت بك إلى الكنيسة.

ضحك. بدت له سخريتها سوداء قليلاً.

– فكرت فقط أنك ترتاحين لهذا المكان، وأنه يعني لك شيئاً ما.

– أريد أن أشعل شمعة على روحي المتعبة. لا أدري من أين جاءتني هذه الفكرة المجنونة؟

– لو تدرين؟ في هذا العمر الجميل كنت أركض بين السفن المحمّلة بالخوف بحثاً عن حياة ممكنة ظلت هاربة. كنت مثلك فراشة تعرف جيداً أن أية لمسة خشنة ستقتلها، ولكن مع ذلك تماديت في غيٍّ الجنون الذي وجدتُني فيه بالصدفة. الحياة هدية ثمينة ومن العبث تضييعُها. بعملك تعطين فرصة الحلم للكثير من الناس. الكثير منهم يعرفونك ويحبونك دون أن تعرفيهم. أجمل شيء في الفنان هو هذا. ما عدا ذلك، لا شيء، آلهة صغيرة سرعان ما يكسرها تعب الرحيل الدائم.

– لهذا لم أكن أمزح حينما قلت لك أني كنت أريد الانتحار، وأن كتبك أنقذتني من ذلك. منحتني فرصة أخرى لرؤية الحياة خارج حاضر قاس.

– وهل الدنيا طويلة حتى يستوجب اختزالها؟ مجرد لحظة مسروقة من ظلال الخوف.

– تخيل؟ كان في نيتي الانتحار ولكني أجّلت كل شيء

حتى أراك. مما وفر لي فرصة اللقاء بك. كنتُ منهكة. نمت بحزن وقهر. عندما استيقظت، كانت الفكرة تملأني، لكني عندما رأيت أنّ اليوم كان جميلاً ورائعاً، استحضرتك وأعدت قراءتك، وجئتك إلى فرانكفورت. جئت أبحث عنك أعوض موتي بلحظة أخرى، ربما منحتني حياة جديدة.

– هل هناك بالفعل ما يدعوك إلى الانتحار؟

– لا. لا شيء يدعو إلى ذلك ما دمت معك. أنا أشعر بالأمان المطلق. كنت أظن أنّ كل الرجال متشابهون، ولكني وجدت في رواياتك رجالاً يمكن لي أن أحبّهم دون خوف. منذ مدة، عندي حالة فوبيا من الظلام والخوف. كلوستروفوبيا[٧٤]. ضاق تنفسي وشعرت بأني سأموت لا محالة. لم أرد أن أزعج أحداً. شيء ما يخنقني فجأة وأبدأ في البحث عمن يأخذني ويضمني نحو صدره ويشعرني بالأمان. هل تصدق خرافاتي حبيبي؟

– لماذا لا أصدقها؟ حالات الضيق تصيبنا جميعاً في لحظات الخوف، وربما اليأس أيضاً.

تذكرت. قبل دخولها إلى الكنيسة، لم تكن تعرف بالضبط ماذا تفعل بموعدها في هذا المكان. التفتَتْ نحو نهر السين من أعالي الجسر. كانت قطرات المطر ترسم على صفحته أشكالاً

---

٧٤ الخوف من الأمكنة المغلقة La claustrophobie

دائرية بمختلف الاتساع. والحمام يحلق بلا اتجاه في كل الأمكنة القريبة منها. نزعتْ قطعة خبز من سائحة يابانية ظلت مندهشة لا تعرف كيف تخبئ ابتسامتها إلا عندما رأت نوّة تنحني وتفتت الخبز للحمام الذي أحاط بها حتى غطاها.

– أرأيت حبيبي، لا يكفي أن تكون خيّراً وطيباً، لكن مالكاً أيضاً لبعض الحنان. الذي لا يشيع الأمان، لا يمكنه أن يكون خيّراً أبداً حتى ولو شاء ذلك. مشكلتي مع أمي هي هذه.

مشت قليلاً أمامه. تماهى يونس مارينا في ظلها الذي كان يطول ويقصر.

عاد له وجه أمه بقوة وكأنه فتح عينيه الآن. يقول الذين عرفوها عن قرب من الأهل والجيران، إنها حتى يوم فقدها زوجها لم تبكِ. ولكنها التفتت نحو الكانون حيث كانت الأدخنة تتصاعد وظلت تتأمل الحطب وهو يحترق بالقرب من عينيها. لم يكن هناك ما يؤذيها سوى الأدخنة التي غطت وجهها. قبل أن تتهاوى شيئاً فشيئاً نحو الخلف وتبقى هناك، ولولا الجيران لاختنقت. عندما استيقظت كان الناس يعزونها في مصابها بينما هي كانت تردد: لم يمت. لم يمت. ليس من حقه أن يموت ويتركني وحيدة. ولم تتأكد إلا عندما مرت عليها ليلاً كتيبة المجاهدين قادمة من جبال عصفور[75]. دخلت إلى البيت

---

[75] سلسلة جبلية عالية على الحدود الغربية بين المغرب والجزائر.

وكان على رأسها الرّايس بابانا الذي أكد لها أنه مات بالفعل، وأنه دفنه بيده، بالقرب من شجرة عالية. وأنه بعد الاستقلال سيعود إلى دفنه لأنه يتذكر المكان جيداً. أدرك يونس مارينا، بعد زمن طويل، لماذا ظل يلح على لقاء الرّايس بابانا، فقط ليسأله عن مكان دفن والده ليعيد رفاته إلى مارينا، ويبني له قبراً يقف عليه صباح كل جمعة أو عيد، ويقول له: لا تغضب يا أبي إن البلاد ببعض الخير. عذراً. البلاد لم تعد بأيّ خير.

– البلاد لم تعد بأيّ خير...

– لم أفهم يا يونس؟ ما دخل البلاد في أمي؟

– كنت فقط أفكر في أمّي التي ترملت في وقت مبكر.

– أمي التي لا تعترف لي بأي شيء، لا تأخذ كل ما أقوله بأية جدية؟ عندما حدثتها عن مرضي وخوفي وضرورة الذهاب إلى محلل نفساني، قالت لي أنت لستِ مجنونة حتى تذهبي إليه. ولكني ذهبت. تحليله لم يفدني كثيراً، ولكنه فتح عيني على حالة شبيهة بقتل الأب. أبي الذي كان يُفترض أن يقتله أخي، عملاً بدرس فرويد ليستولي على أمي. قتلته أنا بنفيه من ذاكرتي نهائياً. ليس كرهاً فيه ولكن حباً فيه لدرجة الكره. كان جباناً. قال لي المحلل النفساني عندما حدثته عن وضعي: أنت تقتلين الأب انتقاماً من الأم والتشفي في عزلتها. قلت له وحالتي؟ قال يجب أن تشتغلي على نفسك. أن تحبّي

رجلاً يمنحك ما لم يمنحه لك والدك. تفهم قصدي حبيبي؟ أنا أبحث عن أب أيضاً.

– جيد. ولو أني لم أعش مثل هذه الحالات.

– ليس مهماً. المهم أن تدرك فقط أن التي تحدثك ليست مجنونة.

شعر أن في كلامها بعض المبالغة. ماذا رأت هذه الطفلة التي كبرت في الدلع قبل أن تجد نفسها في دوامة الموضة القاسية؟ تساءل يونس مارينا وهو يتأمل عينيها الذابلتين. شيء في أعماقه كان يستيقظ فيه بعنف. لم تمنحه الحياة فرصة واحدة لكي يجعل من والده منافساً له في حب الأمّ. لقد وجد المساحات خالية. أحب أمّه دون منافس، كما اشتهاها، ولم يشبع منها مطلقاً، فظلت عالقة بكل تفاصيله الخفية، لباسه، ابتسامته، صمته، حزنه الذي يشبه الصمت... لم يكن يتصوّر أنه سينافس والده في الموت الشريف. الموت المقدس. لولا بركة سلسلة من الصدف المجنونة التي قادته نحو موت ظل يطارده ولايزال، لانتهى مثلما انتهى أبوه. لا يعرف الشيء الكثير عنه إلا صورة ممزقة أعاد هو تركيبها وتلصيقها. ويوم انتهى من ترميمها، سرقها منه ذئاب العقيد. نزعوها بعنف من على الحائط الفقير الذي لم يكن موجوداً به إلا بوستر

كبير للشيخة الرميتي بمناسبة خروج أسطوانتها نوري يا الغابة، وصورة للرّايس بابانا ورفاقه الخمسة، يوم حولت بهم الطائرة التي تقلهم من المغرب، وصورة والده في جلابة وَبَرِية قديمة يظهر من تحتها رشاش فرنسي من عيار ٤٩، ولا شيء غير ذلك. وفي المقابل صورة السيد علي وهو يقطع رجل رأس الغول، اشترتها أمه من سوق مدينة مارينا. تركوا كل شيء على حاله، ومزقوا صورة الرايس بابانا وقطعوا صورة والده الذي لا يعرف عنه سوى أنه يشبهه في وجهه، ويشبه أمه في هشاشتها. عندما زار الرايس بابانا مدينة مارينا بعد الاستقلال، طلب أن يرى ماما جوهرة، أرملة آخر شهيد دفنه بيديه الذي سقط يوماً واحداً قبل الإعلان عن وقف إطلاق النار. يومها سحبته أمه نحو السوق الشعبية وهي تكرر: الرّايس بابانا جَايْ ولازَمْ تكُون لاَبِسْ ملِيحْ. واشترت له قميصاً وسروالاً ومعطفاً من عند المعوض، تاجر الكتّان المعروف، الذي كان صديق والده. ولم يأخذ مليماً واحداً من ماما جوهرة. قال لها: هذا اللباس هدية له من عند عمه المعوض. حميمد وليدي أيضاً، في غياب والده الله يرحمه. الغريب أنه عندما رأى الرايس بابانا عندما زارهم، شعر بخيبة كبيرة. من شدة ما سمع عنه من مغامرات وبطولات بدا له عادياً. كان يظنه أسطورة، بشكل خرافي، بجسد لا يشبه

أجساد البشر، وقامة عالية وطويلة. صورة الله نفسها كانت تبدو له في صورة والده ولكن على أكبر. لكنه يتذكر شيئاً خاصاً ظل عالقاً بذهنه. الرايس بابانا وهو يسحبه بهدوء ويضعه في حجره ويضمّه إلى صدره لدرجة أنه أحس بدمعه الساخن على خده. وهو يتمتم:

– «أبوك كان رجلْ ونصْ[٧٦].»

شعر بنعومة أصابعه مرتين عندما حيّاه، والثانية عندما ضمه إليه ومسح على وجهه برؤوس أصابعه. يتذكر جيداً جملته التي ظلت برأسه طويلاً حتى بعد انقلاب العقيد عليه:

– «عندما تكبر سأحكي لك عن كل شيء يخصّ والدَك. عليك أن تفخر به. وسنذهب سويا ونأتي برفاته، ونقيم له جنازة تليق بمقامه العالي، في مقبرة الشهداء.»

وظل ينتظر أن يكبر وأن يصبح صحفياً محترفاً. لكنه عندما كبر سرق العقيد منه الشاهد الوحيد عن مكان دفن والده. الاستقلال بشَّع أناساً كثيرين، وقتل آخرين ونفى الباقي ليتخلص من ضجيجهم وملاحظاتهم. ومع ذلك ظلّ هاجسه الذي لم يمت أبداً، أن يرى الرّايس بابانا يوماً ولا يفعل شيئاً سوى أن يسمع له حتى الإنهاك والتعب.

– نائم حبيبي؟ أصبحتَ تشرد كثيراً.

---

٧٦ أبوك كان رجلاً ونصف.

لمع وجه نـوّة بقوة، تحت الضوء الـذي تسرّب من وراء الزجاجات الملونة التي اخترقت الظلمة ونـامت على ملامحها الطفولية، وعلى مجسم سيدنا المسيح الموضوع في الزاوية. في امتداده، أنـار الطرف الأيمن من «بوكس» الغفران الخشبي الذي أظهر وجهاً جميلاً لرجل شاب في مكان يحتله عادة المسنّون. سحبته من يده. لم يمانع.

بدت هـادئة على غير عـادتها، وجميلة بلا مساحيق ولا إضـافات. شعر بنعومة أصابعها التي كانت ترتجف من حين لآخر. اخترق جسده فجأة تيار بارد على الرغم من أنه كان في عمق الكنيسة حيث لا شيء يتسرب إلا دفء المكان.

تمتمتْ.

– أريد أن أعترف لهذا الأب عن كل ما في قلبي. حتى عن حماقاتي الصغيرة.

– قولي إذا كان ذلك يريحك. مهمة الاعتراف هي هذه.

– تعال معي إذاً.

ثم سحبته من يده. أوقفها بلطف.

– يا مهبووولة ممنوع. لستِ في حاجة إليَّ. يحتاج أمر الاعتراف إلى سرية تامة، وإلا ما فائدة ذلك كله أمام رجل دين؟

كانت تحاول أن تخفت صوتها لدرجة أنها أصبحت غير مسموعة.

– هل جربتَ ذلك في يوم من الأيام؟

– أبداً. لم أرتكب ذنوباً تستحق كل هذا الغفران. ارتكبوها ضدي، ولم أرتكبها في حق أحد. أحترم هذا المعتقد، ولكني لست مسيحياً في النهاية.

– مع أني كما قلت لك، قرأت مقالات كثيرة عنك تتّهمك بالمسيحية.

– ليست تهمة، ولكني لست كذلك. الحاج غوغل يحكي أي كلام يُحشى في دماغه.

– أنت مهبول، خلّيني منك. إذا استمعت إليك طويلاً ستشككني في نفسي.

ثم جلست على كرسي الاعتراف، بينما واصل مارينا حركته البطيئة داخل الكنيسة غارقاً في شيء شبيه بالفراغ. كان لباسها الأسود وقامتها المديدة يجعلانها مرئية من بعيد. كلما التفت نحوها وجدها غارقة في حكيها. تخيل الرجل الشاب ينظر إلى عينيها الهاربتين الطفوليتين المتقدتين. كان يهز رأسه بالموافقة حتى حينما لا يفهمها جيداً.

عندما انتهت رأى بريقاً جميلاً في عينيها. ركضت نحوه

وهي بالكاد تخرج صوتها من فمها وكأنها كانت تبتلع كل كلماتها.

– أشعر براحة كبيرة الآن. ماذا لو جرّبتَ ذلك؟

– لست مستعداً. أفضل أحياناً أن أعترف لامرأة أحبها أحسن من أي رجل دين. وربما استغفرت الله مباشرة. الإسلام لا يفرض عليَّ وسيطاً. كل شيء يتم بيني وبين الله.

– ولكنك لستَ مسلماً.

– أنت إذاً مثل الشاب الألماني – التركي الذي أصدر حكمه ضدي.

– ليس قصدي. الإسلام قناعات وشعائر.

– هل عليَّ أن أقلل من دينك فقط لأنك وقفت أمام «بوكس» الغفران؟ لا. الإنسان قد يحتاج إلى شيء آخر يجربه دون أن يعني ذلك أنه منخرط في قناعة دون أخرى. بل إنّ تجربة مثل هذه كثيراً ما تفتح أعيننا على ما نجهله في الآخرين.

– غريب، لا أفهمك. لديك إجابات لكل شيء.

– أدافع فقط عن رأيي.

– طيب تعال ويزّي[٧٧] من الكلام الكثير.

سحبته من يده نحو مكان الشموع. وضعت قليلاً من النقود

---

٧٧ يكفي.

في الصندوق المخصص لذلك، ثم قالت له كمن فكر في كلماته طويلاً قبل أن يقولها على الرغم من عفويتها إذ قليلاً ما تحلل. تقول ما يمر بذهنها في اللحظة نفسها:

– تمنَّ شيئاً. لو كان تتمنى أي شيء خارج ما أفكر فيه، سأغضب منك. انسَ إيفا اليوم على الأقل.

كان ذهنه فارغاً من كل شيء، حتى من إيفا التي سحبت وراءها حزنها وبعض شططها وخرجت. كان في رأسه شيء يشبه البياض، لدن كالغيوم الثقيلة، ولكن لا شكل له أبداً.

أغمضتْ عينيها وهي تشعل الشموع. طلبت منه أن يفعل الشيء نفسه. ثم سألته:

– ماذا تمنّيت؟

تردد للحظة وهو يفكر في بياض مخه كيف يصوغه. فسبقته إلى الحديث.

– لا داعي حبيبي، لأنك ستضطر إلى الكذب لترضيني. أعرف. ربما لم تفكر في أي شيء. أو ربما قلتَ في خاطرك ماذا أفعل مع هذه المجنونة التي فرضت نفسها عليّ.

كأنها قرأت في لمح البصر كل مشاعره الباطنية. كان سيقول لها أنه فكر فيها، وفي سعادتها الجملية بين رجل عمره ستون سنة وشابة لم تتخط عتبة العشرين من عمرها. وكلاهما

يعيش مأزقه الصعب مع الحياة. يقضي عمراً طويلاً لا يحد من الثواني والدقائق والساعات والنهارات والليالي والسنوات وهو يحاول أن يتفادى ما يحدّق به من قصص ومخاطر.

- من شدة إصرارنا على الكل، نخسر التفاصيل. هل تعرف حبيبي ماذا مر برأسي؟ قل عني مهبولة، معك حق. لكن اسمعني للآخر.

- طيب، قولي.

- أتحدث معك وفي رأسي حرائق لم أعد قادرة على تحمّلها. أنا تمنيت أن يمنحني الله مزيداً من القوة لأحولك إلى عشيق بدل أن تبقى بين عتبتي الخوف: عتبة الكاتب العاشق المتردد، وعتبة الأب الذي يخاف من الانزلاق الأخلاقي بسبب حبه المجنون لابنته. وأن يغفر الله لي شهية الليلة لأني أريد أن أنام عارية في حضنك، وأن تتلمس كل مساحات جسدي وتوقظ الغافي منها. أريد جسداً حياً كلياً وإلا فأنت لا تستحقني، وفي هذه الحالة تشبه الآخرين، وربما تشبه والدي الذي أحبّني ، فقتل جسدي أبداً وحوله إلى بركان خامد. ولكنه عودني عليه، كل من ألقاه ممن هم في سني وهم كثيرون، منذ البداية، ولا أرى فيه صورة والدي، أرفضه. هل أنا مريضة؟ ربما. أنت كاتب كبير وتعرف المصائر البشرية وتُخِيطُها كل ليلة كإله

في يده نول سحري لا يعرف سرّه إلاّ هو؟

- لا يوجد على هذه الأرض إلا والدك؟ لا يوجد إلا المغتصبون؟ مليون جسد يحبك ويشتهيك. أنتِ جميلة إلى الحد المخيف. مدهشة وذكية. الذي يحبك لابد أن يُصاب بحالة ارتباك في اللحظة الأولى. لا يمكنه أن يصدق بسهولة أن كل هذا النور أصبح بين يديه؟

- حبيبي، أنت تبالغ كثيراً لأنك في الكتابة ولستَ في صلب الحقيقة. المرض فيَّ. لم أفلح مع أي واحد من الشباب. كلما قلتُ باسطا، أجدني مورطة في شخص آخر لا ينفعني ولا أنفعه.

- قد يكون الخلل فيهم أيضاً. ما عرفولكش؟

- هههه ما عرفلكش؟ هي الكلمة الصحّ. ربما. الكثير منهم بمجرد أن يراني يرميني بعينيه في فراشه حتى قبل أن يعرّيني. أنا امرأة من لحم ودم. لست دمية لاتيكس، للنفخ عند الحاجة. أنا امرأة عاشقة، وحبي في أصابعي وجسدي ونفَسي المكتوم الذي لم يخرج من شدة الضغط عليه، وعندما خرج لأول مرة كان مشوباً بالدم والعواء من شدة الألم.

- لا أدري ماذا أقول؟ هذه الأمور تتجاوزني حقيقة. ولا أجدني فيها أبداً.

- نخرج عمري. انتهيت من جنوني. كان يوماً جميلاً في غرابته، قلنا كل شيء غلا ما احتفظنا به طويلاً ليوم كهذا. اشتهيت أن أقول لك أحبك.

- لنا متسع لذلك. نخرج. أرجعي معطفك على ظهرك. البرد قاس.

في الخارج جلستْ على أول كرسي صادفته في طريقها. أجلسته وهي تتمتم بملعنة شديدة تتقنها جيداً:

- هل يسمح لي حبيبي بالجلوس.

لم تنتظر أجابته وكأنها فعلت ذلك بآلية. جلست في حجره وهي تتحسس وجهه. كانت الساحة لا تزال مليئة بالسواح. الكثير منهم لا يتحدث إلا لغته بكلماتها وإشاراتها.

- ... ربما تعاملوا مع عفويتك بسوء فهم ههههه

- مممممم...

قال مازحاً وهو يشعر بنهديها اللذين يكادان يلمسان وجهه.ردت بدلع تتقنه جيداً.

- فهمت. تريدني أن أقوم. طيب سأتركك... لن أثقل عليك عمري.

- تدخلين إلى الحمام وتريدين الخروج منه على كيفك...

لا.

شدّها بقوة، فلم تستطع أن تحرك جسدها.

- يا مهبولة هل فيه واحد في الدنيا يطيَّح عليه ربي خبزة مثلك ويرفضها.

- أنا خبزة؟ هههههه

ضحكت من كل قلبها حتى انفرط شعرها مع نسمة هواء باردة مثقلة برذاذ لذيذ كان يغطي سماء لم تعد فيها مساحة واحدة زرقاء.

- لماذا ترجعين كل شيء ضدّك؟ قد يكونون هم من أجرم في حقك. المهمّ أن تتعلمي النسيان قليلاً؟

- وهل نسيتَ أنت؟

- كل ما لا يشكل شيئاً مهماً في ذاكرتي أهملته لكي أهويها من ثقل السنين. ذاكرتي متعبة ومرهقة. معه حق صديقي لحمر عندما حرّر ذاكرته من كل شيء ثقيل. ذاكرتك حية وشابة وربما ملونة أيضاً . كل شيء في داخلي يغلب عليه السواد والعطب المزمن.

- يبدو لك، لأنك ملتصق بعالمك فقط ولا تعرف كيف تنظر من حولك. كل الذاكرات تتساوى في الألم حبيبي ولكن المصائب هي التي تختلف فقط. تعبت.

مسد على رأسها بحنان. شعر بها مرتاحة لأنامله. همست بصوت يكاد يكون شبيهاً بالرذاذ الذي زادت وتيرته.

– صديقي الأول، الشخص الذي أحببته بكل جوارحي، جيروم، ملّني بسرعة ولم يحاول حتى أن يفهم المعاناة التي كنت فيها. كنت داخل جحيم لم يكن قادراً على فهمه. في اللحظات الأكثر حميمية، كنت أعوي مثل الذئبة الهرمة التي سرقوا منها أبناءها، وأهرب منه. فجأة تملأني صورة والدي وهو يجثم على صدري كالوحش الخرافي. فرض عليّ جثته الثقيلة التي لم أكن قادرة على مقاومتها ولا على تحملها. في لحظة ما شعرت بأن كل شيء تحول إلى ذرات، نثار من آنية ثمينة كسرت لتتحول إلى قطع لامتناهية من بقايا الزجاج والتراب. واستسلمت نهائياً لأني قبل ذلك كنت قد مِتُّ نهائياً ولم أعد معنية بالأرض ولا بالبشر، ولا حتى بالتفاصيل التي كانت تحيط بي.

– هل أخبرت جيروم بألمك الداخلي؟

– قبل أن أخبره، تركني بعد أقل من سنة وتوجه نحو دميته. لأول مرة أكتشف أن للرجال، مثلما للنساء دماهم، وأدواتهم الجنسية. ربما كنت بلهاء، ولكني لم أكن أعرف.

– ربما لم يكن وضع جيروم أحسن من وضعك؟

– مسكين. كانت عنده دمية لاتيكس[٧٨]، سماها كلارا. أراها أحياناً فأندهشُ من قسماتها الدقيقة. لقد اختزل كل

---

٧٨ Latex.

معارفه فيها. أعطاني دروساً كثيرة حول تاريخها، وجانبها الصحي. يعرف جيداً أن فبركة الدمية المنفوخة بدأ في نهايات الثلاثينيات من القرن الماضي، وقد كان لليابان وألمانيا عصا السبق في ذلك. صنعوها في البداية للبحارة في الغواصات، إذ لا نساء في عالمهم المدفون تحت البحار. أعطوا أسماء رنانة للدمى، كـ: سيكسي دولي[٧٩]، وليتل بيتي[٨٠] وغيرهما. نساء كاملات بالمعنى الجنسي، الفيزيقي. لقد تمّ صنعهن بإتقان لتعويض الحاجة إلى المرأة كلياً.

– أي علم عظيم هذا؟

– لا تضحك حبيبي من عالم قائم بذاته. هل تعرف أنّ الدمى الأولى كانت تصنع من مادة الفِنيل[٨١] قبل أن تنهار وتصبح نوعاً رخيصاً. ثم أصبحت مادة لاتيكس هي أفضل الأنواع، وأكثرها مراعاة للظروف الصحية. نعومة بشرة الدمية طُوِّرت في اليابان حتى أصبحت قريبة إلى حد بعيد من بشرة امرأة حقيقية. حتى الأصوات الجنسية التي حملوها فيها ليست إلا غنجاً يشبه شهقة المرأة في عز حميميتها، هناك عشرات البرامج الصوتية. ينقصها شيء واحد، هو حالة الهبل التي لا يمكن استدعاؤها مهما كانت التكنولوجيا. في هذه على الأقل

---

٧٩ Sexy Dolly.

٨٠ Little Betty

٨١ Vinyl.

تظل المرأة أفضل وأجمل وأحلى وألذّ.

كان يتتبع كل كلمة كانت تخرج من فمها مثل الذي يكتشف عالماً مجهولاً وغريباً. يعرف جيداً أن باريس والمدن التي زارها مليئة بعوالم الأوهام اللذيذة، حتى بيع النساء في الواجهات الزجاجية، لكنه لم يشعر في أي يوم من الأيام بجاذبية خاصة نحو ذلك. المواخير قاسية، ولكنها أقل وحشة من الدمى البلاستيكية. في أيّامه الأولى في باريس عرف بسرعة الأمكنة التي كان يرتادها الغرباء، وبسرعة أيضاً كرهها. الدنيا كانت سخية معه قبل دخول إزميرالدا على حياته.

سها قليلاً في عمق غيمة مغلقة.

– يبدو أني أقلقتك بسخافاتي؟

لاحظت نوة.

– لا أبداً حبيبتي. فأنا لا أعرف ماذا أقول لك فقط. عالم لا أفهم فيه الشيء الكثير.

– أشتهي أن نجلس قليلاً على حافة السين، صوتي بدأ يعلو وشهيتي للكلام انفتحت عن آخرها.

زادت حبات المطر سمكاً. أخذته من يده. قام من على الكرسي بتثاقل. التفتتْ نحو كنيسة نوتر دام، بدت كبيرة

وعالية على غير العادة. زارتها كثيراً ولم تدهشها، لكن هذه المرة شعرت أن كل معالمها الهندسية تغيرت، وأنّ شيئاً فيها أصبح ساحراً.

– أنا عشتُ مدة في صلب جيروم وفي دفئه الأنثوي. كان يقول لي دائماً يا دميتي الجميلة. لم تكن الكلمة تعجبني كثيراً، لكنّي كنتُ أقبلها عل مضض. كان يلمسني ويقترب مني، وعندما أبتعد عنه في الفراش، يهدّدني بدميته. يقول لي دمية آخر جيل. كانت امرأة في كل شيء. أسمعه. أسمع شخيره وغنجها الغريب الذي يصل كاملاً على أذني. ثم أسمع انزلاقات الماء. يفتح بعدها الباب وهو يضعها في مكانها الذي يليق بها. يقول لي بلا أيّ حرج: هذه امرأتي التي لا تكلفني أي شيء. كنت أستغرب كيف يجد لذة مع قطعة بلاستيك. في يوم من الأيام كنت مصابة بحالة حنق ضده. الليلة التي كنتُ مستعدة فيها للذهاب معه بعيداً في الفراش. تركني وأنهى جنونه مع كلارا. لا شيء فيها إلا روائح لاتيكس، والعطور الحادة، والمراهم التي تظل عالقة به حتى بعد اغتساله. كنت في حالة غلّ إذ أعطتني ممارساته المتكررة الانطباع بأني لست امرأة. عندما أشعلت فيها النار رأيتها تذوب بسرعة عجيبة داخل كومة من الدخان الأسود، شعرت براحة كبيرة واسترجعت

أنوثتي وكل ما سُرق مني.

– الغيرة عمياء إلى هذا الحد ؟

– لا. الإهانة هي العمياء. شعرت بنفسي أقل قيمة في الفراش من قطعة بلاستيك.

– لكنك كنتِ عنيفة معه لأنك قتلتِ حريته وسره أيضاً .

– هذا ما قاله لي المحلل النفساني، وهو ما دفع به إلى التطرف.

– عندما عاد وعرف الحقيقة، لم يقل شيئاً، لكنه ضحك. في المساء عندما عدت وجدته ينزل من السيارة جسماً غريباً في غلاف خاص كالمومياء. كنت أظنه يسترضيني بهدية. التوقع يقتل ويفزع الروح من قوة الانتظار. دخل إلى غرفته وأغلق الباب وراءه. في اليوم التالي فوجئت بامرأة من السيلكون كأنها أنثى حقيقية بكل غنجها. كانت ممددة، عارية على فراشه. كل ملامحها كانت نسوية. اسمها راما. رأيت الفاتورة على الأرض. سعر راما كان ٥٠٠٠ يورو. قلتُ في نفسي، هل يُعقل؟ امرأة بشكل حقيقي، وجسد لا يقل عن ٤٥ كيلو. فاتنة وكاملة. عندما خرج فتشتها عضواً عضواً. كانت شهية على الرغم من رائحة البلاستيك والسيلكون. لا أدري إذا كنت قد غرت منها ولكني شعرت لحظتها بنهاية علاقتنا. شعرت به

يخونني مع امرأة حقيقة وليس مع دمية شبيهة لها.

صمتت نوّة لحظة لتأخذ نفساً طويلاً. التفتت نحو الكنيسة من جديد، بانت لها بعيدة ولا تسمع شجوها الداخلي. ثم التفتت نحو يونس مارينا. شعرت بأنه كان معلقاً على كل كلمة كانت تقولها. لكنه لم يستطع أن يتفادى الحزن الذي تراقص في عمق عينيها.

– يومها أدركت أن حياتنا انتهت. حملت أغراضي وخرجت، مع أني كنت أحبه ومرتبطة بشغف بطفولته وبهشاشته، حتى في جانبه المخنث. كان فيه حنان وأمومة غريبين. مع الزمن، واستمراري في المهنة، وبعد انتحاره أدركت أنني، أنا وغيري من النساء العارضات، لم نكن أحسن من دميتي جيروم: كلارا وراما. كنا مجرد قطع بلاستيكية مطاطة تسر العيون، مصنوعة من لاتيكس أو السيلكون. فيها بعض الحياة، ولكنها تخاف من كل شيء فيها. حتى من تصلب السيلكون الذي يحتل أجزاء من جسدها، الشفتين، النهدين، بعض ملامح الوجه، والإليتين. كل شيء حذر: القبلة القوية تفسد الشفتين، مص الحلمة كثيراً قد يبيد لونها أو رخاوتها، الضغط الزائد على النهدين قد يفجرهما داخلياً. السحب على الإليتين بقوة في لحظة النشوة،

يظهر ضعفهما. سلسلة من القطع البلاستيكية يجب الحِرص عليها لأنها غالية وهشة.

– لابد أن تكوني قد تألمت كثيراً؟ الموت صعب، والانتحار قسوة ضدّ الذات.

– جيروم كان خارج كل ما هو سياسي. أنا مهبولة ودَمي حار. كنت أنزعج جداً مما أسمعه ولكني لم أكن معنية به على الرغم من أنه يجرحني. أنت تعرف أن عليك أن تفرض نفسك بجهدك ولا حل آخر لك؟ لا. جمالك هو مقياسك، مثل عالم الذرة أو الرياضي المتميز. كبرت بسرعة خارقة. فقد منحني جيروم كل وسائل نسيانه دفعة واحدة. هناك من العشاق الكرماء من يذهب ويمنحك كل وسائل نسيانه. كان جيروم من هذا الصنف. عندما غادرت البيت تذكرت دُماه أكثر من تذكري له. فتحت صفحة بيضاء لم يبق فيها إلا اسمه معلقاً في الهواء كغيمة مثقلة بالوهم. لم أجد ما أكتبه تحته سوى انتحاره المفاجئ. ولم أجد ما أكتبه عنه. الصفحات البيضاء أثقل أحياناً من المكتوبة بحبر أسود.

أحنت نوّة رأسها قليلاً تتأمل القطرات التي كانت تحفر الأرض. نظرتْ إلى السماء. شعرتْ بقشعريرة تخترق جسدها كله مع بداية البرودة المختلطة بأمطار بدأت خفيفة ومغرية

بالمشي تحتها، قبل أن تقوى شيئاً فشيئاً. مدت يدها إلى وجهه.

- ندخل حبيبي. كم اشتهيت أن نركض تحت المطر. كنت دائماً أحلم بذلك مع رجل يعني لي شيئاً خاصاً، ولكني أشعر بنفسي مرهقة ومتعبة.

- ندخل. برد نهايات الخريف يدخل في العظم كالإبر.

- مع ذلك فأنا جد مرتاحة. كنت أريد أن أقول لك ما في قلبي ولا أعرف لماذا وثقت فيك بهذه السهولة. كتبك، صفحات عارية لا يمكنها أن تكون قد خدعتني. يبدو لي أني أعرف قلبك جيداً. سعيدة أنك انتصرتَ عليَّ بصبرك وهدوئك. أنت أقرب إلى جيروم في هدوئك منك إلى والدي. أتمنى أن لا تكون أنت أيضاً تحب دمى السيلكون هههههه ؟

- ملعونة حقيقي. سنرى.

توقفت سيارة التاكسي عند أرجلهم. انكسرت مياه الأمطار تحت عجلاتها، عاكسة بقوة الأضواء التي تمزقت في كل الاتجاهات، على سطحها وفي جانبيها، محدثة شلالات من الألوان تزحلقت في كل الاتجاهات، على الطرقات. عندما استوت في آخر السيارة، مدت نوّة رأسها على صدره، ثم أغمضت عينيها المتعبتين تاركة شعرها ينزل بكل ثقله ومائه،

على معطفه البحري الغامق وكوفيته الحمراء التي لا يزال بها عطر أمه.

عندما كانت سيارة الأجرة الزرقاء تتسلق المرتفعات، وتخترق جسر مريم[٨٢]، ورصيف الأزهار[٨٣]، فجأة خرج وجه إزميرالدا من كتل الضباب مبللاً بالأمطار. كانت مسحورة بالمكان. جاءه صوتها نقياً وواضحاً، مخترقاً سيول الأمطار والضوء الأحمر الذي أجبر السيارة على التوقف.

« – هل تعرف يا مارينا أن هذا المكان يسحرني؟

– من حقك أن تسحري به. مدهش.

– أي سحر؟ رصيف يمتد على أطراف نهر السين في جزيرة المدينة[٨٤] في الدائرة الباريسية الرابعة. يبدأ من جسر سان– لويس[٨٥] وينتهي في جسر آركول[٨٦]. تغيرت أسماؤه كثيراً من جسر نابليون ١٨٠٤ إلى جسر المدينة في ١٨١٦، ثم من جديد جسر نابليون ١٨٣٤، وأخيراً رصيف الأزهار في ١٨٧٩ لقربه من سوق الورد الجميل والمعطر. هل تدري من عاش فيه؟ رئيس الجمهورية روني كوتي[٨٧]،

---

٨٢ Pont Marie.
٨٣ Le quai aux fleurs.
٨٤ L'île de la cité.
٨٥ Saint-Louis.
٨٦ Pont d'Arcole.
٨٧ René Coty.

– الأهـم من هـؤلاء، الشاعر والـروائـي الفرنسي إدمـون هـاروكور[٨٨]، ومات هناك، والشاعرة النيوزيلندية الناعمة كاترين مانسفيلد[٨٩]. الشاعر والروائي الجزائري مالك حداد سُحر به لدرجة أنه كتب رواية بالعنوان نفسه: رصيف الأزهار لم يعد يجيب... تريدين أكثر وإلا شبعتِ؟

– خلاص شبعت، لا يُخاف عليك.

يبتسم. يتذكر جملته المستفزة لها التي لم يفكر في وقعها:

– كل هذه المعرفة الموسوعية للأمكنة؟ وماذا إذاً لو كنتِ فرنسية؟

تنتفض فجأة كأن شيئاً ما حرّك جسدها بقوة.

– عنصري؟ أنا فرنسية. فرنسية وعاشقة لهذا البلد. عندما انغلقت علي السبل، مثلك، لم أفكر في مكان آخر إلا هذه الأرض التي لم تطالبني بأي شيء. صحيح أن أشياء كثيرة فيها قد تغيرت، وأن جيلاً من الساسة الصغار أفسدوها، لكن جوهرها سيبقى، لأن منبعه ليس الأجيال ولكن التاريخ. ربما لأني أنا أيضاً امرأة فيها الكثير من التطرف ومن حرارة التشيليين فقط.، وعليّ فقط أن أقلّل من هذا الحب. »

---

٨٨ Edmond Haraucourt.

٨٩ Katherine Mansfield.

فجأة عطست لوليتا بقوة. ثم تكرّر ذلك بشكل متواتر. احمرّ وجهها وأنفها.

– كأنها نزلة برد. التعب أيضاً. كان يجب أن تحذري أكثر، حتى معطفك خفيف قليلاً.

– ولا يهمك. ربما من فرط سعادتي بوجودي معك. كنت في حاجة إلى أن أكلّمك قليلاً. في حاجة ماسة إلى طيبتك وصدرك الحنون. لا يمكن أن أقف على قدمي دون الحديث عما كان في قلبي وصاحبني طوال أيام غيابي عنك.

توغلت السيارة في الحلقة الدائرة بباريس، باتجاه مرتفعاتها الشمالية، تحت وابل من الأمطار الغزيرة. لم يكن شيء يظهر من المدينة إلا أضواؤها التي كانت تنكسر هنا وهناك محدثة تداخلات ولمعات وتلألأت كثيرة، منشئة مدينة خفية من النور والألق. بينما ظلت نوّة مستسلمة لصدر مارينا حتى نامت كطفل تعب كثيراً من الركض.

أمطار أواخر الخريف باردة، لكنها لذيذة.

همس في أذنها ليختبر نومها:

– كيفك الآن يا نوّة؟

– مليحة. أرجوك. ناديني لوليتا. مشبعة بك وبها الآن.

كان الليل الشتوي قد نزل بسرعة.

من شدّة التعب والدفء الجميل، أغمض يونس مارينا عينيه ثم غفا داخل عطر لوليتا، واستكانة محرك السيارة الذي ظل يهدهده حتى نام بدوره.

-٤-

تثاقلت لوليتا وهي تقطع بهو البيت الصغير بحثاً عن دفء ما.

أول شيء أثار انتباهها البيانو القديم الذي يكاد يلتقي بالنافذة الكبيرة التي تنفتح على الشرفة الكبيرة التي نسج فيها يونس مارينا جزءاً كبيراً من مشاهده الكتابية.

- تعزف.

قالتها كمن بدأ يكتشف عالماً لا يعرفه.

- قليلاً. ولكن لأستأنس بالموسيقا العظيمة التي تتخفى في أعماق هذا البيانو. أعجبني كثيراً، فاشتريته من سوق العتيق.

- سأعزف لك يوماً لحناً حزيناً في رأسي. أحبه كثيراً.

ثم التفتت بالصدفة، نحو لوحة بها امرأة لم تكن منشغلة بأية حركة مما كان يحيط بها. حسدتها فقط على الشمعة الجميلة التي كانت تضيء أجمل المساحات في وجهها، وراحة البال المتبدية على محياها.

كانت لوليتا ترتعش من شدة البرد الذي نزل عليها فجأة. أرادت أن تنزع حذاءها ولكنها لم تستطع. رعشة يديها لم

تسمح حتى بلمسه. جلست واضعة خدها على يدها اليسرى في حالة عجز.

- والله ما فهمت والو. لم أكن أعرف أن أمطار نهايات الخريف قاتلة إلى هذا الحد؟

لمس جبهتها. خديها. أصابعها.

- حرارتك منخفضة وهو ما يبرر ارتعاش جسمك. ارتاحي أفضل.

- عذراً. ما نحشمش. طبيعتي السيئة لا تتغير أبداً. ربما احتجت يوماً إلى زوج يروضني حقيقة. أجر أحياناً الناس وراء جنوني الذي لا معنى له. كان يمكن أن تكون الآن مرتاحاً في آخر الليل، تكتب على كأس ويسكي، مرتاحاً، أو بين أحضان امرأة لذيذة. جئت أنا كالسوسة فلخبطت عليك كل شيء. ربما كان المطر هو من أوقظ فيّ الشقيقة ووجع الرأس.

قالت وهي تتحسس برؤوس أصابعها الناعمة وجهه، عندما اقترب منها ليعطيها قرص دوليپران[٩٠]

- اطمئني. لست كاتباً نموذجياً، يدخن الغليون، ولا يستقيم حرفه إلا بشرب السكوتش الاسكتلندي. عندما أكتب، نصف كأس من الشاي المحلى جداً جداً يكفيني، كما عودتني أمي رحمها الله. أبقى معه أحياناً طوال الليل، وفي جزء من

---

٩٠ Doliprane

صباح اليوم التالي.

- أنت تسخر مني؟ كيف لا تشرب الكحول وكتبك مملوءة بأنواع الشراب التي حفظت الكثير منها. كنت دليلي في معرفتها.

- لم أقل إني لا أشرب. أشرب. علاقتي عادية. أتحدث عن لحظة الكتابة.

تمددت على الكنبة بكل طولها وهي تتحسس وجهها وكل ما يحيط بها من روائح وعطور وأشكال. نظرت إلى السقف قليلاً. لم تر إلا البياض. البيت كله أبيض. لا لون آخر يقطعه، مما يجعل اللوحة المجللة بالسواد تخترق المكان كله.

- يبدو أنك مأخوذ باللون الأبيض.

- ليس بشكل خاص. يريحني فقط لأنه لون حيادي يمكن أن نضع عليه ما نشاء، فيظهر ما هو غير أبيض جلياً. بالخصوص العناصر السوداء.

- عند البعض، اللون الأبيض رديف للموت... عندي على الأقل.

- ليس شرطاً. يمكنك كسر هذه الصورة بإعطائها تفسيرات أخرى. البياض مدهش بحياده، تركب عليه كل الألوان، بل وتتحدّد به.

- يا سيدي. أشعر بشلل كلي من شدة البرد. لا شيء فيّ يتحرك إلا لساني الذي لا يعرف التوقف. أعطني أي شيء ساخن، وألبسني أي لباس، متعبة جداً وبردانة. قد أموت هنا، وأورطك في جريمة أنت في غنى عنها هذه الأيام هههه.

- معنى؟ هذه الأيام؟

- بسبب التهديدات. يبدو أن الشرطة تراقبك ليل نهار؟

- للحماية لا أكثر.

- ممن؟ مني؟ هههه. أصبحت خطيرة إلى هذا الحد؟

- يا ريت منك. لكن من الذين يظنون أني قمت بسب الذات الإلهية؟ سدنة الدين وحراس النوايا، والقتلة الصغار. جندرمة الأخلاق. المشكلة أني لم أفعل شيئاً من هذا، وأعطوني أهمية في سلم الموت، ربما كنت لا أستحقها.

ضحك. جاءها بكأس ساخنة من الزهورات.

- Une tisane chaude ne te fera que du bien[٩١].

نظرتْ في كل الجهات. لم تر ما يثير شهيتها على الكلام. ثم التفتت نحوه وهي بالكاد استرجعت بعض حرارة جسمها التي غابت عنها. فجأة رأت كومة المجلات. أثارت غرابتها مجلة فُوك - باريس رأت العدد الأخير منها. تأملته وهي لا تستطيع أن تكتم ابتسامتها:

---

٩١ زهورات ساخنة لا يمكنها إلا أن تفيدك.

– تذاكر من ورايـا... هـهههه. العدد الأخير من فوك – بـاريس؟

نست للـحظة البرد الذي كـان يشل كل حركـتها والـحمى الـتي ركبتهـا فـي سيـارة تـاكسي.

قرأت عنـاوينهـا الـخـارجية وكـأنـها تتسلى بكشف سرّه.

- Quelle belle surprise? mon ange lis la revue Vogue? Mode, le grand retour. Haute joaillerie, plein les yeux. Un café avec jean Dujardin. Waaaaw quel vrai bonheur-[٩٢]

– نعم. حبيبك أصيب بك وببلاويك الـجميـلة هـهـهه.

– تـحبّني إلـى هذا الـحد؟

– عدت من فرانكفورت ممتلئاً بنور عينيك.

– وأنـا الـتي كنت أظنّ أنك نسيتـنـي نـهـائيـاً. سعيد عمري.

– كنت أركض وراء وجهك فـي كل المـجلات. أعرف علاقتك بمـجلة: «فوك» تـحديداً. أحيـانـاً أجدك وفـي أخرى لا أعثر لك على أثر، فـأشعر بضيق كبير.

– منطق السوق عمري. ستشبـع منـي قريبـاً. بيتك حنون. على الرغم من صغره، كل شيء في مكـانـه. أشعر فيه بـالـحرية

---

٩٢ أية مفاجأة جميلة؟ ملاكي يقرأ مجلة فوك؟ موضة، العودة الكبيرة. مجوهرات، ملء العينين. قهوة مع دي جاردان.

والاتساع؟ بالراحة الداخلية؟ هل بيوت كل الكتّاب مثل بيتك؟ لا تشبه في شيء بيوت عارضات الأزياء المعطرة، والمثقلة أحياناً حد الاختناق، بكل ما يخصّ تفاصيل الجسد.

كانت لوليتا تتحدث كطفلة لم يتجاوز عمرها عشر سنوات.

– لا أدري ولكن نحن داخل منطقين مختلفين. هناك من الكتاب من لا بيت له. أما بيوت أصدقائي القريبين أوسع من بيتي طبعاً. وأجمل بكثير من هذا المخبأ. ولكني أشعر أن هذا المكان هو جنتي الكبيرة. في عزلته نبتت كل أعمالي. جزيرتي المعزولة. أكتب فيه. أحلم فيه بعالم أفضل. وأشرك معي عدداً لا يحصى من المجانين في أشواقي. الجنون الوحيد الذي يمر عن طريق العدوى هو جنون الكتابة والقراءة. أتلقى يومياً مئات الإيميلات من العالم التي تقول ما أريد قوله، وتضيف عليه بشكل أجمل أحياناً.

– ملابسي مبلولة حبيبي.

قالت وكأنها تريد أن تخرج من الحديث الذي بدأته عن بيوت الكتاب.

– مهبولة وطاحت مع مهبول أكثر منها. تمددي لأغيّرها لك.

– طيب...

– ولا يهمك. سأغمض عيني.

– ومن قال لك أن تُغمض عينيك؟

كانت متعبة جداً. وضعتْ وسادة تحت رأسها. تمددت على الكنبة القديمة واسترخت عليها باستسلام كبير. أغمضت عينيها. كان لباسها غارقاً في الماء. المطر هذه المرة لم يكن رحيماً. وجد صعوبة كبيرة في تغيير ملابسها. نزع قميصها، وسروالها، وألبستها الخفيفة، وهو يغطيها بالبطانية الثقيلة، رأى جسدها الناعم الذي كان يشبه جسد صبية لا تزال علامات الحليب بادية على بشرتها. كل شيء فيها لم يكتمل ولم يبلغ نموه. حتى تسهل له عملية تعريتها، دارت على ظهرها بتثاقل كالذي يخرج من سكرة ليلة جميلة. فهم بسرعة لتنبهه بفتح الحمالتين. رأى استقامة جسدها الذي كان يشبه خيطاً من النور. تذكر لوحة ما، رآها في مكان ما، لم يستطع ضبط اسمها. لو كان فناناً تشكيلياً لطلب منها أن تأتيه لمرسمه فقط ليثبت ملامحها الهاربة في لوحة مجنونة. قبل أن يغطيها من جديد، داهمه فجأة وجه ماجدالينا وصدرها الواسع، الذي لم يترك له فرصة ابتلاع ريقه. سمع نداءاته تأتي من بعيد: «– جسدي حلمي. ضوئي. لم تمسسه يد رجل، بعد البغل الذي باعني لأول

خوف، وتنكر كلياً للجسد الذي استباحه. كل الذين يمرون على جسدي، ينامون معي. يفرغون شهوتهم، ثم ينسحبون. لا حق لهم في صدري، فهو ملكي. ارضع. أنت صغيري وحبيبي. وأنا أمّك. تحسسهما، لأنك بعد يوم ستفطم منهما، وأعيش على حلم جميل، عبَر بالقرب مني، ولكني لم أستطع إقناعه بالبقاء».

شعر بالحرارة تملأ كل جسمه. تمنى أن يمرر أصابعه بنعومة عليهما ولكنه كتم أنفاسه ورغباته وحرائقه التي نشأت فجأة. ألبسها بيجاما قديمة. كان جسدها الناعم يعوم فيها.

لم تمانع في أية لحظة من اللحظات، بل كانت تجاريه بحركات مساعدة لتدخل الألبسة بسهولة بيديها ورجليها ورأسها، وترفع قليلاً من نهديها وهي تحاول أن تغلق البيجاما أو من حوضها. ثم غطاها.

شربت الرشفة الأولى من زهورات. ارتسمت إشراقة جميلة على وجهها.

– يااااه ما أجمل عالمك البسيط والسحري؟ لو أحكي لك عن حظيرتنا البلاستيكية لن تصدّق. كل ما تراه، تتخفى من ورائه مآس لا حصر لها. لكنه عالم له أناقته وجماله وأوهامه، وإلا ما بقيت فيه لحظة واحدة. أحبه على الرغم من أني أعلم أنه كل

يوم يقتل فيَّ شيئاً جديداً.

- يبدو جسدك طفولياً جداً.

- شفتني يا حلووف؟ هههههه. أنت خطير لا يوثق فيك هههههه.

- يكاد هذا الجسد أن يكون بلا ذاكرة؟ مجرد ظلال عابرة سرقت بعضاً من ألقه ثم انسحبت.

- لا يحمل ذاكرة؟ ولكنه يحمل جرحاً يمنعه من هذه الذاكرة. يااااه لو كنتَ تدري؟ واشْ عرفك يا عمري؟ ما أدراك بجراح الروح؟ الجراح التي تنزف تحت الجلد أبدياً، أو تلك التي غطتها الأيام بغلاف شفاف لا يراه إلا من في قلبه جروح مشابهة؟ هل تبدو جروحك للعيان؟ الله وحده يعلم معاناتك وتيهك القاسي وتشردك ومنافيك. لا شيء يرتسم على الجبهة. لو أشرّحك الآن مثل قطع المذياع الصغيرة والدقيقة، لن أفلح أبداً في إعادة تجميعك وتركيبك بالشكل الصحيح. هكذا أنا، إذا بدأت لن أتوقف. الأفضل أن أصمت وأنام قليلاً.

ثم أغمضت عينيها ولم ترد. كانت قد اندفنت في غفوة هاربة. غرقت بسرعة في دفئها. تمتمت. خرجت كلماتها بتثاقل كبير.

- احك لي حكاية تشبهني قليلاً...

ابتسم وهو يلمس طفولتها الهاربة.

– حكاية تشبهك... مممممم.... ودعة مشتتة سبعة[٩٣] مثلاً.

فجأة شعر بها صغيرة أكثر مما تصور وناعمة كحكاية ساحرة.

– احك حبيبي... أسمعك بقلبي لأني عيني أصبحتا ثقيلتين. لكني أراك بكل حنانك وحبّك.

لم يفكر في أية لحظة أن يقول لها لا أعرف. ولم يبذل أي جهد لتذكر حكاية من الحكايات. زاد يقينه بأنه أمام صبية صغيرة تتدلّع أمام أبيها أو جدّها قبل النوم. رأى نفسه فجأة جالساً في حضن حنّا فاطنة وهي تحكّ على رأسه ليكون حظه في الدنيا كبيراً، وتحكي له أجمل الحكايات، بالقرب من مدفأة طينية صنعتها بيديها في شبابها لتفادي برد البيت الذي لا شيء يصده في فصل الشتاء. مد أصابعه تلقائياً ودفنها في شَعْر لوليتا. أحسّ باسترخائها المتزايد وبغيابها.

– «لم تكن ودعة مثل الشمس فقط. كانت هي الشمس نفسها. لم تكن شعاعاً، كانت مصدره. لم تكن جميلة فقط،

---

٩٣ قصة شعبية جزائرية. بسبب حيلة زوجة الأب تتفرق العائلة كلها لأنها أشرت لودعة بأن أمها أنجبت أنثى أخرى بينما هي أنجبت ذكراً. تتيه ودعة في الفلوات وتتحول إلى راعية تغني كل يوم أغنيتها الحزينة لأغنامها، تقص فيها حياتها. يسمعها تاجر عابر على المكان. يسألها عن قصتها فتقص عليه التفاصيل. يبحث عن عائلتها فيجد إخوتها ويعرف الجميع أنها مجرد حيلة من زوجة الأب وتعود المياه إلى مجاريها.

كانت ضوءاً ينزلق من بين الأصابع. كانت سادس أخواتها. لم تنجب أمها إلا البنات. كانت أمّها حاملاً بالمولود السابع. يوم المخاض، قالت لزوجة والدها الشريرة التي تزوجها لتنجب له ذكراً ولكنها كانت عاقراً: لا أتحمل آلام أمي ببنت سابعة. سأذهب نحو التلة البعيدة، وأطل عليك من أعاليها. إن أنجبت أمي ذكراً لوّحي لي بالمنجل، وسأعود. إن أنجبت أمي أنثى سابعة، لوّحي بالمنديل الأحمر، وسأهاجر بعيداً. لا أتحمل أن تتعذب أمي مرة أخرى، أمامي...

– وبعدها... واصل حبيبي...أنا...نعم...؟

نغنغت لوليتا مبتلعة نصف كلامها:

– «خرجت وانتظرت نهاية مخاض أمها. فجأة أطلت زوجة أبيها من وراء الباب الخارجي، حاملة المنديل الأحمر، والمنجل معاً. ظنت ودعة أن أمها أنجبت توأمين ذكراً وأنثى. لم تفترض هذا الاحتمال، ستعود إلى البيت إن كان الأمر كذلك. ظلت لحظات تنتظر زوجة أبيها أن ترفع يدها. فجأة لوحت لها بالمنديل الأحمر عالياً. بكتْ ودعة كثيراً، ثم انطلقت نحو التيه. التيه الذي لا شيء وراءه إلا المنافي والقسوة والعزلة. القصة الحقيقية تبدأ من هنا... مستعدة للرحلة الطويلة... قولي مستعدة...»

عندما التفت نحوها، كانت قد نامت نهائياً. بدت له بكل ألقها وغموضها الطفولي. أطفأ نور الصالة، وحاول ألاّ يحرك شيئاً يمكن أن يوقظها. لم يمنع نفسه من التساؤل: ما الذي يجعل طفلة جميلة بكل هذا الزخم تعيش داخل هذا الخوف الغامض؟ لماذا هذه الرغبة في الانتحار؟ أي حياة عاشت لتمل منها؟ لم يكن جسدها يحمل أية ذاكرة من العذاب والخوف، ولا حتى الصدّ والمنع. بشرة ناعمة وملساء كأنها لصبي عمره شهران. لا يوجد أي خدش. كان يتصور أن يلمس جسداً مشقوقاً بالشطف ولاتيكس والسيلكون ، والنفخ، ولكنه لم يجد إلا بشرة طفولية ناعمة كأن الشمس والهواء لم يلمساها أبداً.

ظل طويلاً يتأملها، جالساً على كرسيه، بعد أن أوقف قصة ودعة في بدايتها لأن لوليتا، أو نوّة، لم يعد الأمر مهماً، كانت قد غرقت في نومها. كان يراها تنتفض من حين لآخر في فراشها بقلق شديد، وخوف كبير، لكنه لم يرد إزعاجها في راحتها.

عندما التفت نحو البياض لم ير إلا الذبابة، تتسلق الحائط كعقرب. غرق في وجه المرأة التي في عمق اللوحة. كان أليفاً وفيه بعض الحياة. لأول مرة يرى الشبه بينها وبين لوليتا. النعومة. شعرها المرمي خلفها بكل طوله. نعومة جسدها،

حتى ميلان اللباس الذي يتزحلق قليلاً من كتف الجهة اليمنى، ليبرز الجزء العلوي من النّهد الأيمن الذي كأنه يريد أن يقفز من اللباس الأبيض الشفاف في غياب حمالتين تعيقان غوايتهما وحركاتهما. كانت في عمق السواد مما أبرز جسدها بقوة. اقترب أكثر نحو التفاصيل تحت الإضاءة الخفيفة المسلطة على اللوحة. كان الشبه مع لوليتا كبيراً، حتى في شعرها الهارب نحو ظهرها. سوى أن سيدة لوحة الذبابة كانت أكبر منها سناً دون أن تفقد طفولتها وألقها في عينيها. الحيرة نفسها، والطريقة نفسها بوضع اليد اليسرى على الخد في لحظات التيه والهرب العفوي. لم يفهم أبداً اليد اليمنى التي تنام على جمجمة متهالكة، في اللوحة؟ تساءل كثيراً قبل اليوم ثم أهمل الفكرة. ما العلاقة بين الطراوة التي تتجلى من عينيها والجمجمة؟ ربما كانت تحمل موتها في أناقة الجسد نفسه. لكن ملامحها كانت دقيقة ومدهشة. كان دائماً يتساءل عندما تثار قضية اللوحة مع بعض أصدقائه، عن سر الدهشة في موناليزا أيضاً ؟ لم تكن موناليزا أكثر من رجل متنكر في زيّ امرأة، وفوق هذا كله ليس رجلاً جميلاً؟ ربما كان دافنشي نفسه. لماذا يحبها الناس وهي تبدو كامرأة مشلولة تتصنع أنوثة مستحيلة؟ مرة من المرات أهدته صديقته التشيلية إزميرالدا لوحة اسمها

سيدة المكسيك. رسمها شاب تشيلي قُتل في انقلاب بينوشيه. لم يستطع يونس مارينا أن يكتم ضحكته. كانت بشفتين قرمزيتين غليظتين تقبضان بصعوبة على غليون قديم، وخدود فيها بعض الحمرة الزائدة. كانت مثل المهرّج الساخر. قالت له لما انتهى من ضحكه: أتدري لماذا هي هكذا؟ ربما للسخرية من الكذب الذي يحيط بها. أجابها. قالت: أكثر من ذلك. لأنه في عمق كل واحد منا رغبة مضمرة لتدمير الأسطورة وإعادة تشكيلها بأدواته. المكسيكيون معروفون بهذا الجنون. ذهبوا نحو الأسطورة الأوروبية وحاولوا تدميرها لأنهم يشعرون بالضيق في هذه الثقافة التي فُرضت عليهم بالقوة عن طريق إسبانيا الملكية والكاثوليكية الغازية. فهي لا تستوعبهم ولا تستوعب خصوصيتهم.

أعطاه ذلك راحة ويقيناً في عدم حبه موناليزا. امرأته أدفأ وأجمل منها.

حينما قامت لوليتا فجراً، سمع حركتها. رآها في الظلمة الخافتة تنزلق بجانبه في فراشه وتتكوّم في جسده وتنام من جديد في حضنه. أغمض عينيه أكثر. لا يدري لماذا كان يقمع شهوته تجاهها. خاف من دفئها. نظر إلى الساعة. كانت غارقة في نوم هادئ. تزحلق من فراشه دون أن يحركها.

عندما انتهى من تحضير الفطور، لم تتح له فرصة إيقاظها. كانت تقف وراءه. تقبله في عنقه وتشم رائحة عطره. شعر بلذة غريبة وبحزن غريب دفنه في أعماقه. تماماً مثلما كانت تفعل ماما جوهرة كلما ابتعد عن الدار أو عاد من سفرة طويلة. أول من يودعه، وآخر من يرسم قبلة في عنقه.

وشوشت لوليتا في أذنه:

– هل تعلم يا مهبول أنك بالفعل طفل؟ فيه واحد عاقل وسوي في الدنيا، يترك امرأة جاءته إلى فراشه تخرج سالمة من جنونه الخفي؟ ولو قبلة مسروقة يا ابن آدم؟ لابد أن يكون ملاكاً أو كائناً قادماً من كوكب آخر لا يعني لهم العناق والجنس الشيء الكثير.

– كنت أعرف أنك متعبة. أية لذة وأنت في سقف آخر؟ ثم لا تنسي أنك جئت بصدفة الأمطار إلى البيت وليس بخيارك هههه. سأكون تافهاً وانتهازياً لو فعلت ذلك مع امرأة خرجت من انتحار أكيد بصدفة اختلقتها. من لا يشتهي جسدك لابد أن يكون مريضاً ومهزوماً، ولكن سرقته نحوه، شيء آخر. نحن أن نكون اثنين وإلا ما الجدوى؟ اشتهيتك، لكن عقلي وحبي لك كان أكبر.

– قلت لك أنك كنت صدفتي كي لا أنتحر.

– الحمد لله أننا نصلح للحياة قليلاً، وليس فقط للموت.

– معك حق حبيبي. كنت منهكة، وكانت رغبتي كبيرة للنوم.

– أنا لا أفهم حقيقية كيف لامرأة مثلك جميلة، بل مدهشة تعيش هذه الحالة؟ لا شيء ينقصك. الناس بأقل من ذلك يعيشون سعداء. في عالم تحسدين عليه. عالم الموضة، كل الجميلات. يشتهيك الرجال كلما رأوك على خشبة استعراض أو على صفحة مجلة ملونة. الأكيد أنك عندما تمرين أمامهم لا تسحبينهم وراءك فقط بعطرك الخاص الذي تصنعينه من خلطاتك الغريبة لكي لا يقلدك أحد فيه، ولكن أيضاً بهذا الجسد الجميل والمستقيم كصفصافة. بعدم استسلامك لهم، تخرجينهم من حيوانيتهم وتدفعين بهم إلى حسّ عال من الجمال. الحياة تستحق أن نحبها ونسحبها نحونا ولا نتركها بين أيدي القتلة.

– أي قتلة عندما يتحول جسدك كله إلى قنبلتك الموقوتة؟

– قنبلة موقوتة؟

– نعم. جسدي قنبلتي؟ أحياناً يتمرد ويصبح ليس لي. أنا مثلك أيضاً . لا أمنح حقاً هو لي منذ ولادتي، للموت. أشتهي أن أضحك منه وأقول له إني عشت.

– هذا مبرر آخر يدفعك نحو الحياة أكثر.

التفتت نحو اللوحة مرة أخرى. قامت نحوها بتثاقل. تأملتها جيداً قامعة رغبة كبيرة في تلمس الوجه أو الجمجمة أو الكتابين الضخمين اللذين ينامان على الطاولة، تحت نور الشمعة.

– أنا مثل امرأة لوحتك.

– كيف؟

– عين على كتاب الحياة، ويد على زر الموت. الجمجمة.

– ومع ذلك لا شيء يعوض الحياة. تستحقينها بامتياز.

– لهذا لم تلمسني مع أني كنت بين يديك؟ أم خفت أن أكون مجرد طعم؟

– طعم؟ مع منْ وضد منْ؟ طعم مثل هذا أشتهيه برغبتي. في هذه الحالة سأكون الفأر الذي يستلذ بالفخ الذي يوضع في طريقه. كنت أقول فقط إن الحياة تستحق أن تعاش.

– مارينا، كلامك جواهر، ولكنه غير مجد في عالمنا. تعرف كم كان عمر جيروم عندما انتحر؟

– بسنك أفترض.

– عز العمر. ٢٥ سنة لا أكثر. كانت له عينان مليئتان بالحياة. بسرعة أُفرغتا من كل ألق ونور، وأصبحتا مثل

جوهرتين مزورتين. حتى ابتسامته لم تعد تصل إلى منتهاها. مزيج من السعادة الهاربة والحزن المضمر، والزعيق أحياناً. كان الأجمل والأحلى من بين كل الشباب، ولا أدري لماذا اختارني وهو سليل عائلة إمارة موناكو، من سلالة عائلة غريمالدي [٩٤] المنحدرة من جمهوريات جنوة[٩٥] منذ الحروب الصليبية، التي كانت سيدة البحار، من المتوسط، إلى بحر الشمال، مروراً بالبحر الأسود. جعلتها هذه القوة في صدارة عائلات جنوة. وهو حفيد الأميرة شارلوت لويز جولييت غريمالدي[٩٦]، الوريثة الأولى لإمارة موناكو. تخيل؟

– لا أفهم كيف يسهل الناس مهمة الموت؟ الحياة في نهاية المطاف حظ استثنائي.

– جيروم استهلك الحياة بسرعة، ولم يتح لنفسه فرصة الامتلاء بها وإحساسها. أشعر أحياناً أني مثله تماماً. أتذكره بحنان، فأشفق على نفسي وعليه.

– افترقتما كما يفترق ملايين الأشخاص الذين لم يتفاهموا، لكن هذا لا يدعو بالضرورة إلى الانتحار؟

– ليس من أجل هذا ننتحر، لأن كل شيء واضح. ننتحر عندما يمتلئ مخنا بضباب الغموض القاسي. لم نفترق ولكنه

٩٤ Grimaldi.

٩٥ Gênes.

٩٦ Charlotte Louise Juliette GRIMALDI (1898-1977), princesse héritière de Monaco

ذهب وحده. ذات يوم دخل مخزن المستحضرات التجميلية الذي كان ملكاً لعائلته، وأحرق نفسه، وأحرق معه أيضاً أحد أجمل المحلات. قيل في البداية، كما هي العادة، عمل إرهابي، ولكن الشرطة عرفت لاحقاً أنه فعل انتحاري.

– ما ذنبك في كل هذا؟ رفضت أن تكوني دمية سيلكون. من حقك.

– لا ليس هذا. قد نقتل أنفسنا من شدة إصرارنا على الحياة. والله أحياناً أتساءل ما جدوى ذلك كله؟

– عندك مشاكل في عملك؟

– عادي. بضاعتنا مضمونة. الطلب على ما نقدمه من بضاعة محبوب جداً. وأنا حظي كبير ولا أتشكى من أي شيء. خبرتي في إندونيسيا والهند واليابان والبلاد العربية، جعلتني أقوم بالشيء الكثير بل وأنقذ مؤسستي التي أعمل بها كعارضة أزياء، من الإفلاس الحتمي. أنا دجاجتهم التي تنجب بيضاً ذهبياً.

– يجب أن يشكروك. أفهم ذهابك إلى طوكيو، إلى نيويورك، ولكن إندونيسيا؟

– قصة أخرى عليك أن تكون لطيفاً مع شهرزاد لتحكيها لك يوماً.

– لنا بعض العمر.

– لماذا ليس كل العمر؟

– لا أحد يضمن ما يأتي بعد لحظات. شعرت من عينيك بدفئك وبانكسارك. مشكلتك أن وجهك وملامحك الطفولية مثل المرآة الصافية تعكس وتقول كل شيء عن بحرك الداخلي، مثل علَم الشواطئ.

– وماذا تقولان الآن؟ عيناي مظلمتان. لا يمكنك أن ترى فيهما إلا ظلال الأشياء، وفوق هذا كله، مقلوبة. عليك أن تأتي بمرآة أخرى تعيد الأشياء إلى وضعها الطبيعي. لا تكن متسرعاً. أنا أعرفك. أنت لا تعرف إلا ما شئتُه أنا، أو ما تقدمه لك مجلة فوك الباريسية، من شهوات مدروسة. طيب. وماذا تقول لك عيناي اللحظة؟

– تقولان... تعال نفطر حبيبي. بي جوع الموتى هههه

– طيب. وجدتَها. تقول لي بشكل أكثر تهذباً: اخرسي يا مهبوولة. طيب سأسكت.

مرة أخرى عندما انحنت على كأس الحليب وانفلت شعرها نحو صدرها، والتفتت خارج المكان، رأى وجهاً غامضاً، لم يعرف تفاصيله، ولكنه هذه المرة لم يكن وجه سيدة اللوحة. كان شيئاً آخر. كان شيئاً شبيهاً بجناحي فراشة.

رن التليفون. بقي للحظات صامتاً وغارقاً في تفكيره. نبهته لوليتا:

– حبيبي... التليفون.

– ليس مهماً. هذا وقتهم.

– منْ حبيبي. أراكَ منشغلاً.

لم يقل شيئاً. قام. تمتم في التليفون. ثلاثة حروف.

– RAS٩٧

قبل أن تسأله لوليتا من جديد.

– الشرطة. يتأكّدون من أنّي مازلتُ هنا وأن لا مكروه حصل لي. وأن هذا الكائن الذي كان يُفترض أن ينقرض قبل سنوات مثل بقية رفاقه، لا يزال على قيد الحياة. على قيد الموت.

التفتت لوليتا نحو اللوحة وكأنها لم تسمعه، ثم وضعت يدها اليسرى على خدها قبل أن تغرق في شرب كأس الحليب وتتفادى بعينيها النظر إلى كل ما كان يحيط بها. بما في ذلك يونس مارينا.

---

٩٧ Rien à Signaler لا شيء يستحق الذّكر

الفصل الثالث

رماد الأيّام القلقة

-١-

كان ينتظره ولكنه جاء في غير وقته. رن التليفون.لم يكن مستعداً للرد. كان منهمكا بشيء آخر.

كان صوت الموظفة نقياً وواضحاً وهادئاً.

٩٨ Monsier Jonas Marina? Juste un Pétit rap-pel, voter RDV

موعدكم يا سيدي.

- شكراً مارغريت. كنتُ أجهز نفسي للخروج. كلّموني البارحة أيضاً من عندكم.

- يومك سعيد إذاً سيد مارينا.

- ويومك أسعد عزيزتي مارغريت.

لم يفهم جيداً أين يمكن أن تكون لوليتا قد خبأت سرّها الصباحي الذي تعوّد عليه. كلمتُها الجميلة التي تخفيها كل صباح وتتركه يبحث عنها حتى يجدها فيعاقبها بقبلة.

تأمل فوضى المكان. ضحك.

كانت لوليتا هنا، ولم يبق إلا عطرها وظلّها وبقايا جنون ليلة البارحة التي اخترقت فيها كل الحدود والأعراف الميّتة. لم يكن يدري أن في هذا الجسم الناعم والجميل، يختبئ نمر شرس

---

٩٨ السيد يونس مارينا؟ مجرد تذكير صغير. موعدكم.

يعرف جيداً أين تتخفى الحواس المجنونة واللذات المؤجلة.

– «سترى الليلة ما معنى أن تخبئ جنونك بعقلك. لن أترك فيك شيئاً.

– ومن قال لك إني أطلب غير ذلك؟

– سأرى إن كنتَ قادراً على تحمل هبلي. الكلام سهل يا حبيبي. وستندم أنك سمّيتني لوليتا.

– الجنون إذا تحمّلناه، معناه أصبح عقلاً.

– لك لكل وضع جملة دفاعية. من حقك. لكن هذه المرة لن تجد ما تقوله لي. ستستجديني لكني لن أرحمك. لأني سأجعلك تتلاشى وأحولك إلى نثار لا يمكن جمعه أبداً...

– الله يستر. هههه.»

لا يتذكر شيئاً من الليلة الماضية إلا تلك الغيمة الناعمة ذات اللون الزهري المائل نحو البنفسجي، التي أغرقته فيها لوليتا، وتركته يتهاوى من تلقاء نفسه، في عمق حالة لم يفهم فيها الشيء الكثير سوى أنه كان يتدحرج مثل الذي في سكرة التخدير. كل ما فيها كان يشبه النور المتداخل الذي لا يمكن مسكه.

عبثاً. دار في كل مكان بلا جدوى وكأن لا هدف له هذا الصباح إلا كلمتها المعتادة. أصبح منذ مدة، مثل فأر بافلوف المرابط في مداخل الأنابيب التجريبية، والمربوط بالاستجابة

الشرطية. لم يجد أية علامة تدله عليها. جنونها المعتاد، كما تسميه.

منذ لحظة قيامه من النوم وهو يبحث عن كلمتها. لم يجد الوريقة الصغيرة التي عودته عليها وفيها جنون اليوم. لكنه وجد على صوفا الصالون، طاقم سمالتو بقميصه وربطة عنقه وكلمة صغيرة: أرجوك افعل هذا من أجلي. أفرحني. البسه مرة واحدة لحضور حفلي وبعدها ارمهِ إذا شئت. هديتي لك لأول مرة منذ لقائنا. لأني بعدها سأهرب منك لمدة طويلة، إلى الشرق الواسع. موسم العروض افتتح قبل أيام وعلي أن أكون كما يشتهونني أن أكون.

تذكر أنه في المساء حاول إقناعها بأنه يقع خارج هذا العالم الذي تسميه هي نفسها بعالم السيلكو، وعالم الموضة والخوف من ذبول الأجساد. هو داخل دائرة خوف لا علاقة له بخوفها أبداً. ولكنها أصرت بقوة. حتى أنها غضبت منه للحظات. قالت: هاااه. لن أحدّثك حتى تقول نعم. قبل أن تعاود المحاولة للمرة الأخيرة: أعرف أنك بوهيمي ومهبول ولا توجد قوة في الدنيا قادرة على أن تأسره إلا واحدة مهبولة مثلي طبعاً هههههه. جرّب سمالتو من أجلي أرجوووك. مرة واحدة فقط. أريدك أن تحضر فاشن باريس هذه السنة. فاشن نهاية

الخريف ليس سيئاً، ولو أنه أقل من فاشن الصّيف.

تأمل الطاقم الذي كانت لا تزال به رائحة الكتان وكأنه خرج للتو من المصنع. يتذكر أنه لما سألها عن سعره، استاءت منه وهي تتمتم بغضب: أحمق وغبي. وكان عليه أن يراضيها من جديد. رفع الطاقم قليلاً. تأمله طويلاً. ثم لبسه بسرعة كمن يشرب دواء مراً. لم تبق له إلا ربطة العنق الصفراء الفاقعة، المهيأة التي لا تكلفه جهداً كبيراً. يكفيه أن يسحبها قليلاً لتضيق عقدتها أو تتّسع قليلاً.

ضحك. عاودته ضحكاتها والسعادة التي رقصت في عينيها عندما استجاب لها.

– «إنه سمالتو يا عمري. هل تعرفه؟

– أسمع عنه، ولكني لم أُولِه أية عناية.

لم تستطع منع نفسها من الضّحك مرة أخرى.

– تحتاج إلى تدريب خاص يا ولهي. انظر إلى نفسك في المرآة الآن، كأنك شخصية هوليوودية من شخصيات الخمسينيات السينمائية. ما أحلاك. أجمل امرأة وفية لحبيبها أو زوجها، ستنهار أمامك الآن.

– هوليوود مرة وحدة؟ لا... كثير عليّ. سأصدّق وأتعبك بالضّرورة.

– شفت عمري أعرف أنك ستحب ذلك؟ من لم يجرب شيئاً عاداه. ستتعود عليه بسرعة.

– لا أكره هذا الشخص الغريب الذي يقف الآن أمامك بطاقم سمالتو العجيب، لكنه لا يشبهني.

– أكثر حيوية وشباباً منك وأنا أحبه. ومجنونة عليه. هاااااه. متْ غيظاً يا أحمق.

– يا حظه، ويا حسرتي.

– عندما تدخلك رائحة الأقمشة ونعومتها وعطر السحر المناسب، سيتغير كل شيء فيك.

– أنفي مزكوم بعطر الحبر الوهمي الذي انتفى مع الحاسوب. أتمنى ألاّ يندم سمالتو عندما يرى أن رجلاً بوهيمياً لبس أقمشته الغالية، فبهدلها هههه...

– لا. لسبب بسيط، هو أن فرانشيسكو سمالتو كان بوهيمياً مثلك قبل أن يُجن على الأقمشة النادرة والجميلة؟ عندما بلغ سنه الرابع عشر، أنجز طاقماً لأحد أصدقاء العائلة الأغنياء. ثم طور طموحه بسرعة كبيرة. عمل في باريس لمصلحة كريستياني[٩٩] قبل أن ينتقل إلى كومب[١٠٠] الذي كان وقتها خياط باريس الأجدر والأشهر. سافر بعدها إلى نيويورك لتعلم

---

٩٩ Christiani.

١٠٠ Camps.

التفصيل عند هاريس[١٠١] قبل أن يصبح خياط الرئيس JFK ج. ف. كندي[١٠٢]، تخيل؟ كان معجباً بالتفصيل الأمريكي الذي يعطي الأولوية للأناقة وحرية الحركة. أسّس بعدها مؤسّسته الخاصة في باريس، في شارع لا بوتي[١٠٣]. سآخذك يوما ما إلى هناك. خلقَ موديلات ظلت ماركات مسجلة باسمه، فأغرى زبائن كثيرين عبر العالم مثل ملك المغرب، الحسن الثاني. آخر ضحاياه الرئيس الجزائري الراحل محمد بوضياف. حتى سمي بخياط الرؤساء وكبار المسؤولين وممثلي هوليوود.

– واااو كل هذا الحظ؟ كثير على حبيبك؟ الفلاح الذي لا يعرف إذا كان ابن مدينة أم قرية أم بينهما؟ ظلت حريته هي مقاسه الأول والأخير لسعادته، ولا شيء غير ذلك؟

– من أجلي.

– فعلتُ، وسأفعل عمري. لقد أصبت بلوثتك. من يقرأ مجلة فوك، دخل اللعبة نهائياً هههه. إن شاء الله أكون غداً مثلما تشتهين ولا تضحكي علي. مرة واحدة وأعود بعدها إلى بوهميتي، هي أجمل ما فيَّ.

– سترى أن أناقتك كبيرة وتتجاوز عاداتك البائسة التي ترسّخت فيك. قامتك المديدة ونظراتك الهادئة التي تورث

١٠١ Harris.
١٠٢ J.F. Kennedy.
١٠٣ La Boetie.

الكثير من السلام لمن يراك، تؤهلك لكل ذلك، لكنك لا تعرف كيف تعطي قيمة لنفسك. رجل بقدك وأناقتك الداخلية لابد أن لا يفرط في هذا الحظ الإلهي.»

ابتسم من كلماتها وهي تتدحرج متلاحقة الواحدة تلو الأخرى في داخله. اقترب من المرآة بعد أن مشط شعره للمرة الأولى بالشكل الذي اقترحته عليه في الليل وهي تهندسه كمن يصنع نموذجاً إشهارياً، بينما يتركها تتسلى به كما تشتهي. وضع قليلاً من اللاك[١٠٤] على شعره لتثبيته. بقي أسود ولم تفعل فيه سنوات العمر الشيء الكثير ما عدا الذوائب التي ابيضّت قليلاً وكأن رماداً زرع عليها. بدا لنفسه شخصاً آخر، لم يكن ليرفضه على الرغم من قلقه عادة من الألبسة التي يدخل فيها، ويشعر بالضيق الخانق داخلها مهما كان اتّساعها.

حاول للمرة الأخيرة أن يبحث عن كلماتها التي تعودت أن تخبئها هنا وهناك مثل الألعاب السرية، في الزوايا المغلقة ولكنه لم يجدها. آخر مرة خبأتها في كأس نبيذ إزميرالدا، الذي يحتفظ به منذ سنوات عديدة، لتختبر جدارته وقوة حواسه الخفية. كتبتْ يومها: صباح الشوق واللهفة. قلبي يسائلني عنك؟ افتح لي أضلعك لأخبئ سري فيك. أتحين روحك التي تختار صدري لتنام فيه. أريد فقط أن تكتبني ولا تجعلني

---

١٠٤ Laque.

بدونك. نحبك ونموت عليك يا أجمل صبح، وأرق شعاع.

فتح الباب. سحب الجريدة الصباحية لوموند[١٠٥]، التي يرى فيها بعض الموضوعية على الرغم من أنه لاحظ على مدار السنوات الأخيرة أن هناك رغبة كبيرة لتحويلها إلى جريدة تابعة لرأي واحد. فقد تكاثرت القضايا المرفوعة ضدها لأنها تجرأت وقالت موقفاً خاصاً لا يشبه ما هو سائد عن الصراعات في هرم السلطة الفرنسية، وعن المناورات والتمويلات السرية للانتخابات الرئاسية الأخيرة، عن حرب غزة التي رأت فيها جريمة ضد الإنسانية ويحتاج من كان وراءها إلى محاكمة دولية. بدأت تنهك مالياً وتخترقها لوبيات سرية مالكة لسلطان المال. خطها نفسه الذي ظل يقاوم من أجل حريته، بدأ يستسلم بعد أن غادرها الكثير من الصحفيين الحرفيين باتجاه يوميات أخرى.

فتح يونس مارينا جريدته الصباحية. قبل الحروف، شم رائحة ورق الجريدة وحبرها. الأفكار نفسها تتكرر يومياً. كانت البلاد في عجز كبير في مخيالها وقدراتها الثقافية. لم يجد شيئاً يثير انتباهه إلا المربع التحتي في الصفحة الوطنية. الشرطة الفرنسية والقاضي المكلف بملف الإرهاب يواصلون اقتفاء آثار مجموعة آسيا الإرهابية التي بدأت تتقاطع مع

---

١٠٥ Le Monde.

لاكمي [١٠٦] جماعة القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي. لم يكن الخبر ثانوياً ليمر دون أن يحرك فيه شيئاً خاصاً. فقد وُضِع في مربع أسود، بخط أبيض، مما جعله مرئياً على الرغم من صغره. علّمه قبل قرابة نصف قرن الرجل ذو الشعر الأبيض، عمّي أحمد الشايب، أن ينتبه حتى للأخبار الصغيرة والتفاصيل التي تبدو ثانوية، بالخصوص إذا وُضِعت داخل مربع أسود. الكلام نفسه الذي كرره عليه دافيد إيتيان وهو يحدثه عن أخبار الجرائد. كثيراً ما يحاول ألاّ يعطي للأمر قيمة أكثر من تلك التي يستحقها، ولكنه لا يستطيع. يشعر بنفسه معنياً عن قرب. الوحيدة التي لا تقلقه بكثرة الأسئلة هي لوليتا. كلما زارته، فتحت قلبها للتأمل وحبه. كانت واحته للراحة وللحديث عن شططها وعما يحس به هو داخلياً. أحياناً من شدة خوفها عليه، يراها تعبر البهو الصغير للبيت، لتقف قليلاً من وراء النافذة المطلة على الشارع الذي تراقب فيه عادة دورية إيتيان دافيد، ووجوه المارة، لتطمئن على البيت.

تنظر لوليتا إلى الناس من أعالي طابق البيت طويلاً، ثم تعود إلى فراشها وتنام مثل الطفل الوديع. لا تحدثه أبداً عن خوفها، لكي لا تزيد من شططه.

جلس مارينا في سيارته. تهيأ للمرة الأخيرة لينطلق

١٠٦ L'AQMI تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي Al Qaida au Maghreb Islamique.

نحو مركز الشرطة. عدل كرسيه جيداً. وقبل أن يدير مفتاح المحرك، لا حظ الورقة المعلقة على زجاج السيارة الأمامي. ظنّ في البداية أنها مجرد ورقة إشهارية من تلك التي تعود أن يجدها في كل صباح، ويكفيه قليل من الماء وتشغيل المكنسة الزجاجية لينتفي كل شيء، ولكنه انتبه إلى أنها ورقة مطوية عدة طيات. سحبها ثم عاد إلى مكانه. فتحها. من رائحتها وكتابتها عرف ملمس لوليتا. قرأها: حبيبي صباحك كله خير. شوف؟؟؟ أنت لا تعرفني جيداً، عندما أغضب آكل من هو أمامي قبل أن آكل نفسي. لو كان ما تجيش لابس سمالتو ناكلك، أكثر مما فعلت بك ليلة البارحة. ياااه لو تدري ماذا يفعل حضورك بي يا مهبوول؟ يربك نبضي ويشعلني. الليلة عرض لايت إن ذا سيتي lights in the city fashion week في البريستول[107]. لا أريد أن أخطئه مثلما حدث لي بغباوة مع كريستيان ديور في عرضه عطر مس ديور، وكيلي شبه متأكد أنهم سيأخذونني ولكني كنت غبية واستمعت لمهاترات من كانوا بجانبي... احذري من العري؟ سيحولونك إلى «عاهرة»؟ سيبيعون جسدك قطعة قطعة. في النهاية حدث معي ما خافوا منه، فبعت جسدي بالمفرق، شفتي لشركة أحمر الشفاه اليابانية، وساقي لمؤسسة الجوارب اللاصقة، وأصابعي

١٠٧ Bristol.

لشركة مستحضرات طبية لا أعرف إلى اليوم لماذا يشترون أصابعي فقط ويدي بشكل مستمر؟ أعرف أن لي أصابع غريبة بطولها ولكنها مليئة بالحياة. وعندما يخطئون في خياراتهم ، يذهبون نحو شفتي وساقي. تعالَ. نحبك ونموت عليك.

كانت الدعاية كبيرة. وكانت في واجهة الفاشن ويك في كل مكان، على واجهات الباصات وفي مواقفها، وفي مترو الأنفاق، وفي المحلات العامة. اسم لوليتا تغير قليلاً في كل الملصقات الدعائية فأصبح لالو. وهو الاسم الذي أطلقه عليها والدها بعد أن أضاف له حرف الفاء V، فأصبح: لالوف. لالوف La Louve[١٠٨] التي تعني الذئبة، قبل أن يختصرها وكيلها الإنجليزي وليامز الذي يتشمم الأسواق، في المرة الأولى وهو يحاول أن يقنعها بأنه هو الاسم بالضبط الذي يركب عليها، حتى صرختْ تحت إصراره المقلق:

– «يا وليامز، بعد كل هذه الرحلة القاسية تحدثني عن اسم يركبني؟ أريد اسماً أركبه، وأحركه كما أشتهي، مثل الحصان المسحور. اسم أعلوه ولا يعلوني أبداً.

– لا يوجد حصان مسحور لالو. الناس يميلون نحو الأسماء الخفيفة. انظري من حولك وسترين.

---

١٠٨ الذئبة.

- في هذا الاسم روائح كثيرة، بعضها جميل، وبعضها الآخر يرعبني... يقززني.

- عطّريه بما يروق لك، واهملي الباقي.»

على الرغم من أنها كانت تشمّ في الاسم المختصر رائحة والدها الذي هرّب شيطانها الذي سكنها، ليحتل هو مكانه، انصاعت للمقترح. كان عطر والدها وسيلتها للانتقام. هي لا تعرف لماذا؟ ولكن، شيئاً غامضاً فيها كان كل يوم يتنامى قليلاً ليتحول بين أصابعها إلى رماد.

- «مارينا حبيبي، هل عرفتَ الآن لماذا كرهتُ في البداية اسم لوليتا؟ لم يكن يخلو من الحروف... لولي... لالو... لالوف...

- أنا قلته هكذا بلا تفكير. حتى إيفا لامتني على تسرعي وندائي عليك باسم لوليتا، داخل مكان عام، وأنا لم أكن أعرف عنك أي شيء.

- من حق إيفا أن تغار عليك. لقد أدخلتْكَ في دائرة أملاكها. ليست مترجمتك فقط، ولكنك كتابها السري المعشوق الذي تفتحه وقت ما تشاء.

- تظلمينها كثيراً. هي امرأة ذكية وفي غاية الطيبة.

- لم أقل العكس. قل لي إذاً لماذا خرجَتْ من غرفتك مجروحة في ذلك الفجر؟ قل لي لماذا لم تكلمك عند وصولها

إلى برلين كما تعودتْ أن تفعل بعد كل سفرة حتى كلمتها أنـتَ؟ قل لي لماذا طلبتْ منك أن تبقيا بعيدين قليلاً حتى يتضح داخلها المرتبك الذي اجتاحته الظلال الكثيرة التي لم تعد قادرة على فهمها ولا على تسييرها؟ لأن المرأة يا حبيبي تملك حاسة الاستثناء التي لا يملكها الرجل. تعرف متى يكون الشيء الطارئ طارئاً، ومتى يكون الشيء الأخطر ثابتاً.

– بكل بساطة لأني لم أخبئ دهشتي بك. عبرت عن حالة سبقت عقلي. ظللت مرتبكاً على غير عادتي، بشكل لم أعهده في نفسي من قبل ولم تره فيّ أبداً.»

وكأن الأقدار تلتقي كلها في الدائرة نفسها لتضع شخصاً ما في مدارها. حتى أمها كانت تناديها، كلما أرادت أن تسخر من دلعها: لالاّ مولاتي ثم لم تحتفظ مع الزمن إلا بلالاّ. يعني السيدة. تمتم وهو يضع الورقة في جيبه.

وهو يُسخن محرك السيارة فكّر في ما سيقول لها كالعادة: وجدتُك. كنتِ أقل شطارة مما تصورت. لم تخبئي الورقة في المكان الذي يجب بحيث يستعصي عليّ العثور عليها؟ وسترد عليه بحركاتها الساحرة وبحة صوتها: هذه المرة شفّيتني. أشفقت عليك حبيبي. رأيتك متعباً جداً. في المرة القادمة راح تشوف. راح نخبّيها وين يسكن الشيطان.

شعر بسحر اللعبة الطفولية التي يمارسانها بلذة في وقت متأخر من العمر. بقيت بحّتها عالقة بقلبه وعينيه:

– «والله راح تشوف. في المرة القادمة، لن تجدها أبداً مهما بذلتَ من جهود، وسأتركك معلقاً طوال العمر، كورقة على شجرة عالية، لا هي في الشجرة ولا هي في الأرض. بين البينين. هل هناك أكثر قسوة من بين البينين حبيبي؟ تحتاج إلى أن تعيش ذلك لتفهم ردة فعل إيفا.»

أغمض عينيه ثم ترك السيارة تنزلق وسط شوارع باريس الماطرة، بحثاً عن يوم آخر.

كان لحظتها آخر يوم في خريف باريس لذيذاً.

–٢–

كعادته، كان إيتيان دافيد يشرب قهوته المُرّة، ويتأمل من وراء زجاج النافذة، في الطابق العلوي، حركات الناس المتزايدة بعد أن انتهى من قراءة الجرائد التي عادت إلى حادث السيدة اليهودية التي أهانها ستة أشخاص، ملامحهم مغاربية، كما أكدت هي ذلك، قبل أن يعتدوا عليها في قطار الضواحي بالضرب والتعنيف. شغله العنوان كثيراً: السيدة تعترف في دائرة المباحث، أن صديقها وجماعته هم من اعتدى عليها لأنها تركته. لم يفهم كيف يمكن لإنسان أن يضع كل

شيء وراءه، قيمه وإنسانيته وتاريخه الشخصي، ويذهب نحو الاعتداء أو الكذب. الكذب أيضاً اعتداء سافر على ناس أبرياء، إذ يتحول صاحبه إلى مجرم رخيص يتّهم أو يقتل ناساً فقط لأنهم لا يشبهونه؟

كانت الحادثة لا تزال تملأ دماغه. بل يتذكر جيداً حتى عنوان مقالة جريدة لوموند ليوم ١٢ يوليو ٢٠٠٤: رعب بعد الاعتداء على امرأة يهودية في قطار الضواحي RER D الذي يربط باريس بفال دواز[١٠٩]. الرئيس الفرنسي جاك شيراك يعبر عن غضبه بعد الاعتداء يوم الجمعة ٩ يوليو على السيدة ماري ل. وابنها الذي لم يتجاوز ١٣ شهراً. قرأ كثيراً في الأسابيع التي تلت، عن حادثة قطار الضواحي هذه، والسيدة اليهودية التي اتهمت وقتها ستة شباب قالت إن ملامحهم مغاربية اعتدوا عليها في القطار ووشموا جسدها بالصليب المعقوف. ووصفت الحادثة بالتفصيل:

Marie L. est entrée dans la rame à deux étages du RER D en gare de Louvres (Val-d'Oise) à 9 h 37, avec la poussette où était assise sa fille. Elle a préféré rester debout, sur la plate-forme, en raison des marches à monter ou descendre pour aller s'asseoir. De l'étage supérieur du

---

١٠٩ Val-d'Oise.

RER sont alors descendus six jeunes hommes, selon la jeune femme, de type africain et maghrébin, âgés à première vue de 15 à 20 ans, dont plusieurs étaient armés de couteau. L'un d'eux aurait apostrophé la jeune mère en lui disant que cette poussette conviendrait bien à sa propre petite s'ur. Un autre membre du groupe a commencé à fouiller dans son sac à dos. Il a sorti une carte d'identité, sur laquelle était mentionnée l'ancienne adresse de Marie L., dans le 16e arrondissement de Paris. «Tiens, c'est une gosse de riche, elle habite dans le 16e !», se serait-il exclamé, avant de conclure: «Y a que des juifs dans le 16e !» Le vol s'est alors transformé en agression antisémite, alors que la jeune femme n'est pas juive[١١٠].

لتتراجع بعد ذلك عن تهمها الخطيرة التي حركت فرنسا بكاملها والجمعيات المضادة للعنصرية ومعادات السّامية؟

---

١١٠ ماري.ل، دخلت إلى القاطرة المكونة من طابقين قطار الضواحي، الخط د. المتوقف في محطة اللوفر بفال دواز، على الساعة التاسعة و٣٧ دقيقة. كانت تدفع عربة بها ابنتها. فضلت المرأة أن تبقى واقفة لتفادي صعود و نزول الأدراج. نزل من الطابق العلوي للقاطرة ستة شباب ذوو وجوه أفريقية ومغاربية بحسب توصيف المرأة، و سنهم بين ١٥ و٢٠ سنة. بعضهم كان مسلحاً بالسكاكين. ويبدو أن أحدهم قال للمرأة إن العربة التي بين يديها تليق بأخته الصغرى. بينما شرع الشاب الثاني في تفتيش حقيبتها التي على ظهرها وأخرج منها بطاقة تعريف كُتِب عليها عنوان ماري القديم في الدائرة الباريسية السادسة عشرة. قال ساخراً: هاااه... من كبار الأغنياء؟. تسكن في الدائرة ١٦؟ قبل أن يضيف: يوجد يهود في الدائرة ١٦. وتحولت السّرقة من الاعتداء إلى عدوان مناهض للسامية، بينما لم تكن المرأة يهودية أصلاً.

أثارت هذه الحادثة موجة عداء كبيرة ضد كل ما هو عربي أو مسلم. ما الدافع لكل هذا؟ قبل سنوات قليلة كان حدوث ذلك نادراً. بدأت الحالة تستشري بقوة وتتسع أكثر فأكثر: نبش المقابر، الحركات النازية الجديدة؟ العنصرية؟ معاداة السّامية؟ يومياً الكثير من المزالق الخطيرة التي يمر بعضها عادياً حتى ولو ناقض ذلك قوانين البلاد، وبعضها الآخر يُضخَّم بقوة كبيرة.

شعر إيتيان دافيد بأن أشياء كثيرة في البلاد تغيرت وتحولت بشكل عنيف ومتسارع إلى حالات مبتذلة لا تثير أية ردة فعل رسمية. ليست الأزمات هي الأخطر، ولكن ما تجره وراءها من أمراض كثيرة لا أحد يعرف مآلاتها؟ الناس لا يتعلمون إلا قليلاً من تاريخهم.

كل شيء كان يمر برأسه ثقيلاً وقاسياً.

– في أي بحر غارق عزيزي إيتيان؟

قال روجي وهو يرى إيتيان دافيد منهمكاً وغارقاً في أفكاره المتضاربة. وضع ملفاً صغيراً على مكتب هذا الأخير..

– أنا... عفواً... غارق في بحر التيه. شيء ما فينا يا عزيزي روجي يتحرك بعنف لا نعرف كيف نسيره ولا نفهمه أيضاً . أنا الآن مثل الجندي المسكين المجرد من سلاحه. ذاكرة

الناس أقل من ذاكرة نملة. لو تأملوا للحظة مصائب النازية وما خلّفته وكيف جاءت، لتواضعوا قبل أن ينتهجوا مسالك اللاسامية والعنصرية. ولكن يبدو أن البشرية هي هكذا، تنسى بسرعة حتى تشوهاتها الداخلية. هناك أجيال تأتي، تحترق، تصنع مجتمعاً جديداً بالدم والخوف قبل أن يستقر كل شيء. ويأتي جيل آخر أو جيلان، يعيشون في سكينة، ثم يأتي جيل آخر لا يعرف شيئاً عن المصائب السابقة التي تبدو له بعيدة وغير معني بها، فيعيد إنتاج المصائب الكبرى في دورة تكرارية مقيتة. عودة نيتشه الأبدية. حتى اليوم لا أزال أسمع حشرجة جدي الذي سيق إلى محتشد أوشويتز[١١١]. هل الذاكرة ضيقة إلى هذا الحد؟ محتشد الموت الذي يشبه مصنعاً لا ينتج إلا العظام. أوشويتز١، وهو المحتشد المركزي، وأوشويتز٢ أو بيركونو[١١٢]، الذي فتح في ٨ أكتوبر ١٩٤١، مركز إبادة كلية، أوشويتز٣ أو مونويتز[١١٣]، الذي دشن في ٣١ مايو ١٩٤٢ كمحتشد للعمل. سبع غرف غاز يا عزيزي روجي التي تستعمل زيكلون ب، وثلاث تجمعات داخلية لحرق الأجساد. النتيجة ليس أقل من مليوني ضحية الذين التهمتهم غرف الغاز من اليهود والبولونيين والغجر وسجناء الحرب من الرّوس أيضاً،

---

١١١ Auschwitz.

١١٢ Birkenau.

١١٣ Monowtiz.

دون حساب من ماتوا من شدة البرد والجوع.

– ذاكرتك متقدة اليوم.

– كومة رماد لا أكثر. الأمر لا يتعلق بالذاكرة ولكن بحاضر ينسى بسرعة البشاعة، ومستعد لتكرارها. لست سعيداً بما يحدث في بلادي. كل الأمراض المدمّرة بدأت تطل بأنوفها الباردة، وغير مهتمة للعقوبة. لقد حرروها من عقالها... المهم... هل من جديد روجي؟

– كنت فقط أود أن أقول لك إن كل شيء على ما يرام. الفنان التشكيلي الإيراني داريوش ميرزادة على علم بكل المخاطر المحدقة به؟ أبلغناه بالتفاصيل كلها ويبدو أنه على علم بكل ما يجب عليه القيام به من احتياطات. غيّر سكنه. وثبت كاميرات مراقبة عند المداخل الضرورية لبيته. ثم أنه بحكم تقاعده، سهل علينا المهمة. قليلاً ما يبقى في بيته، باستمرار عند ابنته وزوجها، وغير مرتبط بعمل وظيفي يومي يحتّم عليه الخروج الدائم.

– ومع ذلك، مركز المراقبة الموحد المضاد للإرهاب يقول إنه علينا تذكير المعنيين دائماً بالمخاطر التي تحدق بهم حتى ولو لم يحدث أي شيء. هو على حق. آلة الموت بقدر ما تختار ضحاياها، هي عمياء في تنفيذ جرائمها، وربما من

هنا مقتلها أيضاً . أية فجوة ستكلفنا رؤوسنا ووظائفنا. وأنا لا أريد ذلك. الخلايا الإيرانية النائمة من الفظاعة بما يكفي. وقد أحصينا مجموعة كبيرة. لقد اغتالوا الكثير من المسؤولين السياسيين المنفيين. الوثائق التي بحوزتي تجبرنا على اليقظة الدائمة. يجب أن نحذر إلى أقصى الحدود وألاّ نترك أي شيء للصدفة. ربما كانت الخلايا الإرهابية الإيرانية ولاكْمي قاعدة المغرب العربي، من أكثر الخلايا نشاطاً على أرضنا، لأنها مرتبطة بشكل مباشر مع القيادات العليا، وتملك حرية التصرف في الوقت المناسب دون الرجوع إلى الأوامر العليا. السنوات الماضية جعلتها، ليس فقط تبدع في الجريمة، ولكن تتأقلم أيضاً مع الأوضاع.

كان روجي يستمع إلى حديث إيتيان دافيد كتلميذ مجتهد، ويتتبع عينيه وهما تتحركان في كل اتجاه. شعر كثيراً بعصبيته المضمرة التي تتبدى بسرعة على ملامحه التي تتصلب فجأة وتتحول إلى شيء تخرج منه رائحة المعدن السائل.

صمتا لحظة بدت طويلة على غير المعتاد، قبل أن يخترق إيتيان دافيد الصمت الثقيل من جديد.

– كيف داريوش؟ قصدي... علاقاته النسائية؟

– مسن إلى حد كبير. على كلّ فقد خفّف علينا مشقة العمل.

لديه أصدقاء من النساء أكثر من الرجال. هذا هو داريوش. يبدو أنه تاب عن علاقاته النسائية التي خفتت أو انتهت بسبب عامل السن والأمراض التي تحالفت ضده لتجعل حداً لليبيدو الذي يعذبه ههههه.

– طبعاً الأمر لا يعني الشيء الكثير من هذه الناحية. كل الأنظمة تغيرت بما في ذلك الأنظمة الإرهابية التي يمكن أن تدخل من عين إبرة. وكما قلت...

دخلت رِبيكا وفي يديها ملف ضخم كُتب على ظهره بشكل بارز: M .Y وسلسلة من الأرقام المتتالية والأختام. وهو ما يثبت أن أجهزة كثيرة اطلعت عليه، وتركت بصماتها على أوراقه.

انسحب روجي:

– سأحيطك علماً بكل جديد. إلى اللقاء إيتيان. احتراماتي رِبيكا.

– أوكي روجي. احذر.

هزت رِبيكا رأسها ثم التفتت نحو إيتيان دافيد. وقبل أن تقول أية كلمة سبقها إيتيان دافيد:

– أشم رائحة كريهة في سرقة اللوحة المقلدة، من بيت مارينا.

- ثبت بالصورة أنهم ليسوا أكثر من عصابة أشرار صغار.
لا أعتقد أن للمسألة امتدادات أكثر من ذلك. لقد ألقي القبض عليهم كلهم، و تم استرجاع اللوحة المزيفة لأن الأصلية كانت في البنك.

- أنا أفكر دائماً في الأسوأ الذي كثيراً ما نقفز فوقه لأن ذلك يريحنا داخلياً.

- المهم أنهم كانوا مجرد سارقين صغار. تعاون مارينا معنا كان مهماً. هذا هو ملف مارينا يا سيدي كما طلبته منّي.
قرأته كما طلبتَ مني ذلك، فتشته جزئية جزئية. فلم أجد ما يثير الانتباه إلا التهديدات وحياة مأسوية قضاها مرعوباً. لا يوجد أدنى تناقض في تصريحاته الإذاعية والتلفزيونية والصحفية. أحياناً أسأل نفسي كيف يستطيع بشر مثل هؤلاء تحمل قسوة الدنيا بهذا الشكل المخيف. من شاب ضحية انقلاب، لم يكن معنياً حتى سياسياً بما كان يدور من حوله، إلى مطارَد في كل مكان؟ عندما انتهى كل شيء وأراد أن يعود إلى وطنه، كان الإسلاميون يضعون اسمه على رأس قائمة من يجب قتلهم لأن روايته عرش الشيطان تمس بالذات الإلهية التي لا أعرف شكلها، ولا من أين جاؤوا بذلك؟ الغريب، كل هذا يذكرني أحياناً بفرانكو، فيشي، موسوليني، وفي أحيان أخرى

يقذف بي بعيداً نحو محاكم التفتيش المقدس حيث كان الناس يُرمون في المحارق بسبب دينهم، أو حتى لأسباب تافهة. بشاعة.

– ربيكا عذراً. كل هذا أعرفه جيداً. أردت فقط أن أسالك هل من معلومات جديدة عن علاقاته، أو ما يدور حوله، لأني أشم رائحة كريهة في مكان ما. لا أريد أن تسبقني الخلايا النائمة.

– علاقاته عادية جداً يا سيدي. حتى علاقاته النسائية طارئة وغير ثابتة منذ وفاة صديقته التشيلية إزميرالدا التي عادت لتموت على أرضها. لم يدخل بعدها أية تجربة جادة. منهمك أكثر بأسفاره وربما بشهرته أيضاً لأن اسمه أصبح معروفاً في الخارج أكثر من بلده.

– لا نبي في وطنه يا عزيزتي. وعارضة الأزياء؟ التي التقى بها في معرض فرانكفورت؟

– لوليتا، كما سماها؟ شابة مبهرة الجمال ولكن يبدو أنها لم تخرج من مراهقتها. تبحث عن أب وعن حماية أكثر مما تبحث عن عشيق. منذ أن اغتصبها والدها وهي تعيش أزمة داخلية مربكة، ولكنها ناجحة في عملها في الموضة. تملأ مجلات الدعاية الكبيرة، بالخصوص فوك الباريسية. هي أيضاً تسافر كثيراً. أعتقد أنها علاقة لن تتخطى السنة الواحدة، لأن لوليتا كما قلت لك تبحث عن أب، وهو يبحث عن موديل

أدبي جديد يخرجه من التكرار. وهذا النوع من العلاقة عمره قصير. هي طبعاً معجبة به كثيراً. لكنها منشغلة أكثر بجسدها وأسفارها عبر العالم مع فريقها لعرض الأزياء أكثر من أي شيء آخر. العلاقة بينهما تكاد لا ترى لعدم أهيمتها في حياته، وربما في حياتها أيضاً .

– علينا يا عزيزتي رِبيكا أن ننتبه لكل شيء. الصدفة مفجعة أحياناً. أنا لا أثق في أي شيء. على كل من حقها أن تجد فيه صورة أب حنون غير ذلك الشخص البدائي الذي حرمها من عنوانها. ومن حقه أن ينحت منها شيئاً كتابياً جميلاً. قلمه جميل وحساسيته الإنسانية مفرطة أحياناً. لكن الحذر جيد، لأنه يجعلنا نشك في كل شيء، دون أن نفاجأ بأنفسنا نركض في خلاء مقفر وبلا معنى.

– لم أفهم؟

– المشكلة هي أن القتلة يستعملون الوسائل التي قليلاً ما نشك فيها. من كان يعلم أن شباباً دون سوابق يعيشون في البارات، ومع المومسات، يتحولون في لحظة برقية إلى طيارين وانتحاريين ينهون في ثانية واحدة البرجين التوأمين توين تاورز[١١٤]؟. في مهنتنا الصعبة، لا شيء يقع خارج دائرة الشك.

---

١١٤ Twin Towers.

- على كل حال، حتى الآن لم يحدث ما يوقظ شكوكنا.

- تذكرت. قبل أن أنسى مرة أخرى. أنت عاشقة للفن وخبيرة، يجب أن نجد يوماً فرصة لتري اللوحة التي لديه والتي يسميها الذبابة، جميلة ومدهشة، وهو لا يعرف قيمتها باستثناء قيمتها الرمزية. منشغل بكتاباته أكثر. عندما رأيتها لأول مرة شعرت أنها من زمن آخر ليس أقل من القرن الثامن عشر، حتى رائحتها لم تكن من زماننا. سنجد وقتاً لذلك. ضروري. يهمك أمرها أنا متأكد من ذلك.

- للمرة الثانية تعدني بذلك. أخبرني فقط باليوم ونذهب لزيارته سوياً.

- المشكل أننا نزوره لنطمئن عليه أكثر من أي شيء آخر. أو استجابة لأوامر. سأخبره. أنتظر مجيئه كما تعرفين. وعلينا أن ننبهه مرة أخرى للمخاطر المحدقة به هو تحديداً، قبل فوات الأوان. وربما اتفقنا على موعد معه لزيارته في بيته من أجل اللوحة.

- لم تترك لي فرصة لإخبارك. هو في قاعة الانتظار، ولهذا جئتك بملفه لتلقي عليه نظرة أخيرة قبل الدخول. هل هناك شيء آخر.

- هاااه. لا شيء. قد أحتاجك بعد قليل.

غرق في الملف قليلاً. ورّقه بسرعة ثم رفع رأسه نحو الساعة:

– طيب. متقدم قليلاً عن وقت الموعد. ولكن لا بأس.

كان يونس مارينا جالساً ينتظر. بصره مشدود في الفراغ، وفي بعض التفاصيل المبهمة.

فجأة أيقظه إيتيان بابتسامته المعهودة، وهو يرفع يديه إعجاباً:

– مرحباً سيد مارينا. أنيق كأنك ممثل خرج من استوديوهات هوليوود، لابد أن تكون عاشقاً يا صديقي هههه. لا نلبس سمالتو بهذه الأناقة يا عزيزي إلا إذا كان هناك موعد جميل، مع امرأة عاشقة، قادرة على أن تنزع عنا بوهيميتنا المعهودة وتعوضها بأناقة استثنائية. هذا حالك هههه.

– مرحباً سيد إتيان دافيد. معك حق. أفعل ذلك من أجل صديقة عزيزة.

– لوليتا؟

– أنت تعرف كل شيء أحسن مني. تغنيني عن الشرح.

– واااااو.... لو... لي... تا... لا تنسَ أن القانون يعاقب على العلاقة مع القُصّر؟ همبر همبر في لوليتا لنابوكوف، لم يفلت من قبضة القانون على الرغم من هبله. حذار يا عزيزي

من مانشيتات الجرائد مثلاً كهذه: مارينا الكاتب الكبير في أحضان قاصر: لوليتا؟ أو مثلاً بطريقة أكثر استفزازية لجلب جمهور القراء: همبر همبر القرن الحادي والعشرين يعود من جديد، ويغتصب لوليتا مرة أخرى؟ أليست عناوين جميلة لتحريك حالة الركود التي تعيشها أغلب الجرائد في ظل الزحف الإلكتروني على كل شيء؟

ضحك يونس مارينا وهو يضع رأسه بين يديه وكأنه يخاف عليه من السقوط من شدة الضحك.

– ههههه من هذه الناحية أنا جد مطمئن. لوليتا هذه ليست قاصراً. عمرها أكثر من عشرين سنة. القانون يحملنا مسؤولية ما نقوم به بالتساوي. راحت على الجرائد من هذه الناحية.

– ممتاز. أنت تعرف طبعاً لماذا طلبتك؟ كلامنا أصبح مكرراً يا يونس مارينا، وربما مملاً في الآونة الأخيرة، أرجوك أن تعذرني، فأنا لا أقوم إلا بعملي. أعرف أنه من الصعب على امرئ يعيش منذ عشرات السنين تحت وطأة محاولة اغتيال من النظام، أن يعيش من جديد الوضع نفسه في ظل التهديدات المتتالية باغتياله من إرهابيين متطرفين لا وجه ولا شكل لهم.

– أتفهم ذلك. يبدو أننا عندما نتعود على الخطر، يصبح جزءاً منا، بل نتآلف معه كأي صديق. فنحن في كل الأحوال،

نخاف من موت نفترضه، فنموت بغيره، وربما بصدفة تافهة.

– ومع ذلك يا صديقي المسالة لا شعرية فيها، الأمر يتعلق بمجرمين حقيقيين. أرجو أن تخبرني بكل ما تراه غير طبيعي حولك. حتى التفاصيل التي ترى أنها تافهة. التافه والجدّي في مثل هذه الوضعيات يتساويان، زاوية الرؤية هي التي تختلف لا أكثر. القاتل أيضاً يمكنه أن يرتكب خطأ بليداً لم يحسب حسابه أبداً. يفلت منه لا إرادياً، الشرطي الحقيقي هو من يتوصل إلى إدراك جوهر هذه التفاصيل ولمسها عن قرب. وهذا غير ممكن دون تعاون كل أطراف السلسلة.

– وماذا يمكنني أن أفعل أكثر مما فعلته؟

– نرجو أن تخبرنا ببرامجك اليومية قدر المستطاع، إذا أردت أن نحميك من شر يحدق بك. لا أريد أن أخيفك، ولكنه خطر وشيك. أعرف أن الوضع مقلق وممل، لكن الشر حقيقي أيضاً . عليك أن تأخذ الأمر بجدية. لن أمل من تكرارها عليك. لست مرتاحاً لسرقة اللوحة المنسوخة عن الأصل.

– لا يوجد ما يخيف سيد إيتيان دافيد ما دامت الشرطة تمكنت من معرفة العصابة بكاملها. طبعاً يجب الحذر لأن الذي يدخل ليسرق، يمكنه أن يدخل من أجل القتل. جهود لوليتا كبيرة. هي التي حوّطت البيت كله بالمصورات الخفية.

– طيب ما أخبار الأصل، أصل الذبابة؟

- في البيت. بها رائحة جدتي وجراحات المنفى القاسي. هي من منحني بعض الألفة وجعلتني أخرج من خراب الخوف والعزلة القاسية.

- مازلت مقتنعاً أنها لوحة مهمة جداً. وتحتاج إلى أن توضع في مكانها الطبيعي، متحف أو أي مكان يحفظها من مخاطر التفتت والضياع. هناك وسائل تقنية وكيماوية للحماية وللحفظ.

- في الوقت الحالي مازلت أطبق ما طلبتموه مني. كلما خرجتُ وسافرت بعيداً، وضعتُ مكانها النسخة الشبيهة التي أتمنى أن لا تُسرق ثانية، وأرجعتها هي إلى صندوقي في البنك. أضمن على الأقل.

- لهذا قلت لك إن سرقة اللوحة المنسوخة لا يريحني. وصلوا لك في غيابك، وكان يُفترض أن نكون حريصين أكثر. حتى ولو ثبت لاحقاً أن السرقة ليست احترافية، ولكنها من شباب صغار ذهبوا نحو أسهل مكان. إذا فطن لصوص الفن لهذه اللوحة، سيصبح الخطر عليك مضاعفاً. الحفاظ عليها في البنك مهم جداً. خطر الإرهاب وخطر سارقي اللوحات والآثار الفنية، هو نفسه، يمكن أن يتحول السارق بسرعة إلى قاتل. أعرف أن المسالة ليست سهلة.

علقت رِبيكا بجملة واحدة، قبل أن يواصل إيتيان دافيد.

– سعيد أنك اقتنعت أخيراً بقيمة ما قلته لك. قد تكون نائماً على كنز لا تعرف قيمته هههه.

– حيّرنا الخبراء. سألت أكثر من عشرة أشخاص، بين صديق ومختص، وكل واحد يأتيني بقصته، من الذي يرفع من قيمة اللوحة إلى الأقاصي، إلى من يعتبرها مجرد تقليد بائس للوحات فناني العتمة.

– رِبيكا مختصة في الأمر ويمكنها مساعدتك على معرفة تاريخ اللوحة على الأقل. فهي في مكتب حماية التراث الإنساني، وهي في الشرطة العلمية أيضاً .

تدخل إيتيان دافيد.

– أتشرف بالفعل بزيارتها واستقبالها متى شاءت.

– شكراً.

تمتمت رِبيكا بشفتين باردتين وعينين حزينتين.

ثم عادت إلى وضعها الأول، تسجل من زاويتها الصغيرة كل ما كان يدور بين الرجلين. عندما دق أحدهم على الباب، اعتذرت ربيكا، ثم قامت من مكانها بخطى وئيدة حتى لا تزعجهما. ثم التفتت نحو إيتيان ونبهته بعينيها بموعده الآخر. نظر إلى الساعة آلياً.

– أعذرني يا عزيزي مارينا، الوقت مر بسرعة غريبة. لدي موعد آخر الآن.

– مفهوم. شكراً على حسن الاستقبال سيد إيتيان دافيد.

خرج ولم يسمع إلا صوته في البهو وهو يحادث الرجل الذي جاءه. بينما عادت ربيكا على أعقابها لمرافقة يونس مارينا. التفت نحوها للمرة الأخيرة.

– مرحباً بك سيدة رِبيكا في أي وقت تشائين. أنا رجل بيتوتي، لا أخرج إلا بمواعيد ضرورية ومسبقة فقط. الباقي أقضيه كله في البيت.

– شكراً سيد يونس مارينا. أكرّر عليك ما قاله لك دافيد، الحذر ثم الحذر. الوضع ليس على ما يرام. قصة سرقة اللوحة المنسوخة من بيتك ليست أمراً طبيعياً. المسألة معقدة جداً. سيعودون. تحرياتنا بينت أنهم مجرد لصوص عاديين لكن مع ذلك؟ قد تكون مجرد شكوك منا، ولكن نشك أحسن من أن ننام على أذنينا كما قال لك إيتيان دافيد. لستَ في خطر ولكن أيضاً لستَ في منأى من الخطر.

– أحسّ بما تحسين به وأكثر، ولكن ماذا علينا أن نفعل سوى إخباركم بكل ما يقع.

– إشارتك السريعة هي التي جعلتنا نلقي القبض بسرعة

على سارقي اللوحة واسترجاعها. المهم أننا عرفنا أنه لا علاقة بين الذين يستهدفونك، وبين السارقين. نبقى في قمة حذرنا. القاتل يعرف قتيله مما يسهل له المهمة، بينما الضحية لا تعرف شيئاً عن قاتلها. لهذا فاحتياط الضحية يجب أن يكون مضاعفاً. كل ما يصلنا من تهديدات، حتى التافه منها، نأخذه دائماً بجدية.

لم يبدِ يونس مارينا أي قلق مما سمعه لأنه يعرف، أو على الأقل يحس، مثله مثل الآخرين، أن الأذى لا يمس إلا الآخرين وأنه في منأى عن أي خطر. هو يحتاج إلى ذلك على الأقل حتى لا يعيش مثل الحيوان المطارد في مدينة بدأت تتحول إلى غابة.

عند الباب الخارجية الزجاجية، سألته رِبيكا عن لوليتا بلطف كبير:

– تحضر عرضها الليلة؟

– لهذا أنا مثل جيمس دين. هههههه. أو فرانك سيناترا أحلى، في سني على الأقل.

– لو كان عندي بعض الوقت، كنت حضرت. امرأة جميلة وتخط طريقها بثقة كبيرة. موجودة في كل مكان، في المجلات والجرائد، والدعايات. في سنها؟ حظ كبير...

- شاطرة. مع ذلك يجب أن لا نرى عدواً في كل شيء.

- مطلقاً. مجرد سؤال. نحن نعرف أن ما بينكما هو مجرد إعجاب ولسنا مهتمين إلا بالقدر الذي يهم أمنك وسلامتك. بل تبدو مرعوبة عليك أكثر من اللازم. تبيت معلقة على النافذة مثل الطائر الخائف. لقد وصلتها عدوى اغتيالك.

- أكثر من ذلك هي التي حوّطت بيتي بالكاميرات الخفية. فعلت ذلك كله في غيابي. هي من اتفق مع الشركة التي نصبت الكاميرات. عندما عدت، سخرت منها كثيراً، لكن اتضح لي فيما بعد أنها كانت على حق. هي مثلكم تماماً، أكثر حذراً مني. تقول إنه يجب الشك في كل شيء، حتى في أنفاس الحشرات. أتفهمها ولكني لا أعتقد أن الأمر مفيد كثيراً.

- أفاد على الأقل في القبض على سارقي اللوحة المنسوخة؟ وهذا ليس بالأمر القليل.

- صحيح.

- كل شيء يضمن سلامتك هو مهم. سهرة جميلة سيد يونس مارينا. تمنيت أن ألتقي بلوليتا، في مرة من المرات، خارج العمل. فهي امرأة قبل أي شيء آخر وجرحها يحزنني جداً.

- ربما أكثر مما تتصورين. علاقتها بوالدها سيئة. لا أعرف إلا بعض تفاصيلها، ولكنها قاسية جداً. فقد رفعت قضية ضده لدى القضاء الفرنسي. وهو مطالب بتقديم تفسيرات عن أفعاله

المريضة. ربما كان الاغتصاب والتعدي على قاصر أهمّها، ولكنه لم يأت إلى فرنسا وفضل الهرب أو التحرك باسم آخر.

- لا تهتم. سيسقط يوماً في الشبكة كالفأر. هو يعرف أن اسمه موجود في الكثير من المطارات. الإنتربول يطارده. ولهذا يتفادى العبور من الأراضي الأوروبية. أغلب الظن أنه يتحرك بجواز سفر مزور. أراك بألف خير.

- شكراً. أنتظرك متى ما وجدت وقتاً لتفحص اللوحة الحقيقية. أكون سعيداً.

- سأكون في الموعد، وآتيك بالمناسبة برواية عرش الشيطان لتوقيعها.

- أكون سعيداً جداً.

- مرة أخرى لا أوصيك بالحذر.

- شكراً.

عندما تجاوز باب المركز الزجاجي الذي انغلق بعده آلياً، شمّ رائحة الحنين التي كانت تأتيه من بعيد. كانت باريس ممطرة. والناس يختفون داخل المقاهي والبيستروويات[١١٥] الصغيرة على حواف مداخل المترو، لا تظهر إلا بعض ملامحهم، وهم يتبادلون الأحاديث، من شدة البرد وأنفاسهم التي تغطي حيزاً كبيراً من الزجاج.

---

١١٥ Bistros مقاه ومطاعم صغيرة تقع على مداخل المترو، يرتادها الزوار لشرب القهوة أو الأكل السريع، ثم يعبرون نحو أماكن عملهم.

تزحلقت السيارة بهدوء على الطريق الإسفلتي المندى بمياه الأمطار التي زادت كثافة تساقطها. اخترقت الشوارع التي بدأت تغرق في أنوارها الكثيفة وكأن الليل نزل مبكراً. عند الدوار، تحرك صوب اليمين، باتجاه نزل البريستول حيث يتم العرض الكبير لايت أوف سيتي.

لم ير شيئاً إلا وجه لوليتا الذي كانت تنعكس عليه الأنوار المتداخلة، والألوان المرتبكة، وطفولة هاربة، ترفض أن تنسحب من على ملامحها.

ربما كانت تلك هي الجملة الأولى في رواية قادمة؟

أغمض مارينا عينيه قليلاً وكأنه ليتفادى الأمطار التي غلفت الزجاج بانحدارات مائية كثيرة حجبت عنه الرؤية وأغرقته في الأضواء المتداخلة للسيارات والشوارع، ولذة إعادة اكتشاف المدينة.

ربما... كانت هي الجملة الأولى.

تمتم.

ابتسم مارينا، ثم واصل تزحلقه الهادئ باتجاه فندق البريستول.

-٣-

عطور متداخلة لا تستقر على مكان. وجوه تدخل، وأخرى تخرج بسرعة لتعود.

أخذ العامل البرتغالي منه القبعة ومعطفه الأسود الخشن ومفاتيح السيارة، وكاد يونس مارينا أن يسلّمه ربطة العنق الصفراء التي لم يتعود عليها لأنـه مرتبط أكثر بالكوفية الحمراء، التي تعوّد أن يشمّ فيها رائحة أمه. وضعتها ماما جوهرة حول عنقه قبل يسرق قتلة العقيد منها رزانتها وعقلها، وقبل أن تنسحب من هذه الدنيا بقلب ضيف كالخيبة.

بهو القاعة الواسع كان غاصاً بالناس.

انزلق نحو القاعة حيث اختارت له المضيفة مكاناً استراتيجياً بحسب ما كان مدوناً في بطاقة الامتياز التي لا يحصل عليها إلا أصحاب المال. لوليتا درست كل شيء. كان حيث يرى الجميع ويكون قريباً من عطرهن ومن حركاتهن ولا يراه إلا من يواجهه. على بعد ملمس من العارضات. قالت له ليلتها ساخرة منه وهي تعدل يافطة طاقمه سمالتو: تعرف أني مهبولة، وغيورة، وفيّ كل عيوب حواء، سأخرب بيتك لو نظرت إلى امرأة أخرى غيري. مسموح لك أن تغسل عينيك قليلاً فقط.. كل العالم الذي تراه جميلاً، هو مجرد أضواء هاربة وتحسينات بلاستيكية ستتحول إلى أمراض خطيرة لدى بعضهم. السيلكون

الرخيص الذي يتفاعل داخل الأجساد سيتحول إلى قنابل موقوتة داخل أجسادهن، ولا أحد يعرف متى تنفجر.عليك أن ترشق عينيك في حبيبتك فقط. كل حركة من حركاتي عليها أن تلهمك بقوة، وإلا والله سأنزل من منصة العرض وأعضك على مرأى من الجمع، وتكتب الصحافة الشعبية فجراً: مارينا يتعرض لعملية اعتداء بالعض من لالو؟ رد عليها بسخرية: وهل بإمكاني أن أفتح عيني تحت دوخة تقودني إليها الأجساد العطرة والمخملية؟ اطمئني سأكون في سابع سماء مشدوداً إليك بقوة. ضحكت ثم واصلت دورانها حوله، وهي تتأمل هيئته بعد ارتدائه طاقم سمالتو. تتمتم وهي تبتسم: يااااه؟ أكاد لا أعرفك. تقول عليك خارج من هوليوود.

على المنصة الطويلة التي تشبه طريق الجنة، مرت المجموعة الأولى. لم ير فيها من جمال إلا عطرها الذي جر كل حواسه وراءها. كن نحيفات جداً لدرجة الاقتراب من هيكل عظمي متحرك. بدت الألبسة فضفاضة جداً. لكنه كان يعرف أيضاً في أعماقه، أن ذوقه فاسد ولا يُقاس عليه، وأنّ الذي اختار هذه الألبسة على هذه الأجساد النحيفة جداً، لم يكن أبلهاً أبداً.

كانت الأضواء المتحولة باستمرار تعطي ظلالاً جميلة على الحركة، حتى بدا له كأن البطل الأوحد في هذا العرض ليست النساء ولا الألبسة التي يتم عرضها، ولكن الإضاءة المذهلة.

في المجموعة الثانية لاحظ أن اللون الطاغي هو البنفسجي الناعم أو الأزرق الدافئ. كان شيء من الحزن يرتشق في بعض عيون العارضات، ممزوجاً بسعادة رفعتها قليلاً التصفيقات المتتالية لجمهور الحاضرين. الضوء الفوقي كشف كل ما يتخفى من أناقة داخلية لدرجة أن تماهت الوجوه والألبسة والألوان في موجة واحدة كأنها بحر على حافة الخريف، لحظة المغيب.

المجموعة الثالثة كانت شيئاً آخر لأنها كانت ترتدي معاطف خفيفة ولكنها كافية لدرء برد الشتاء القاسي. كانت لالو من بينها على بعد خطوات كثيرة تفصل بينها وبين بقية المجموعة، وكأنها كانت وحيدة على الخشبة. عند العودة توقفت قليلاً، نظرتها كأنها كانت تفتش عن وجه هارب في الفراغ، قبل أن تتدرج شيئاً فشيئاً نحو المدخل بهدوء سمح للحاضرات والحاضرين اكتشاف تفصيل الألبسة التحتية والمعطف الطويل المفتوح عن آخره، كلما اندفعت إلى الأمام، زاد انفراجه أكثر عند الركبتين، مبرزاً عن سحر كبير في الحركة وحذاءين طويلين يتناغمان مع بقية الألبسة. حركة المعطف الطويل تجعلها أكثر طولاً على ما تعود على رؤيته. بغض النظر عن الكعب العالي، فقد كانت أطولهن وأكثرهن رشاقة على الرغم من أنها تراقب دائماً وزنها، لكنها ليست

هيكلاً عظمياً مثل الأخريات.

استمر العرض أكثر من ساعة. من حين لآخر يشعر بدوخة لذيذة لم يكن سببها العطر النسائي وحده، ولكن أيضاً الأضواء الجميلة التي كانت بين الخفوت اللذيذ، والوضوح الذي لا يظهر إلا ليبرز جانباً مخفياً من اللباس، ثم يعود إلى استكانته ودفئه.

كانت بعض التمتمات والهمسات الجانبية تصله في سلسلة من الكلام المتناغم والمتداخل أحياناً، لكنه لم يفقد وضوحه.

– ياااه Quelle belle femme, quelle beau défilé[116]

شعر بسعادة لوليتا وهي تنظر صوبه مباشرة قبل أن تنسحب ماسحة بنظرة مخملية كل الحاضرين.

عانقها وكيلها وليامز وهو يصيح بصوت عال لم يستطع كتمه: برافو لالو... برافو لالو... كان في البهو الواسع، كأس الشمبانيا في يده، يسترجع تفاصيل العرض لحظة لحظة، ويستمتع بوجه لوليتا الذي بدا له فجأة أجمل بعد أن فقد طفولته، عندما فاجأته امرأة بسؤال لم يكن ينتظره، وهي تؤكد أنها رأته في مكان ما. تدور حوله في دهشة وهي تحاول أن تتذكر متى وأين؟ ضحك.

١١٦ ما أجمل هذه المرأة، ما أجمل هذا العرض.

- ربما في آخر عرض لسمالتو؟

- قد يكون. سمالتو يواتيك. مع أي دار تعمل الآن... دعني أخمّن... إيف سان لوران؟

كانت كؤوس الشمبانيا التي شربها قد فعلت فعلها. قال ساخراً مستعملاً أول اسم جاء على لسانه:

- لا يا سيدتي المحترمة. غوتشي. قبل أن أنتقل إلى إيف سان لوران.

- أغبياء، قامة مثل هذه، وجه حي مثل هذا يضيّعونه؟ دارنا صغيرة ولكن المستقبل منفتح أمامنا بعد أن اشتركنا في ماركة ألبسة جديدة وعطور نباتية، مع اليابانيين... ما رأيك لو...

وقبل أن تنهي جملتها، كانت لوليتا قد أخذته من ذراعه وهي تؤكد للسيدة:

- خلاص مدام، أصبح في مؤسستنا. انتهى أمره. وقع عقده ولا يمكنه أن يتراجع حتى ولو أراد ذلك. نحن لسنا أغبياء مثل غوتشي، لنترك عملة نادرة مثل هذه تهرب منا، وتنزلق من بين أصابعنا. هناك غيره من الحضور لا ينتظرون إلا مثل مقترحاتكم. جربي معهم أحسن.

- كنت فقط أريد أن أقول إن غوتشي كانوا أغبياء لأنهم تركوه يذهب لإيف سان لوران. يذكرني بهيئته بفرانك سيناترا.

كان ممشوقاً مثله وعاشقاً لجنون الموسيقا الأمريكية.

لم يستطع أن يكتم ضحكته لأنه عندما رأى نفسه في المرآة فكر في الشيء نفسه.

- لا أدري ولكن الكثيرين يقولون مثل هذا الكلام.

- إحساسي قليلاً ما يخونني، ألم أقل لك؟

أضافت السيدة بعد أن ارتسمت على وجهها علامات الرضى.

نظرت لوليتا إليه محاولة أن تكتم ضحكة سرعان ما تفرقعت عند المدخل.

- يا مهبول أنت أخطر مما تصورت. فرانك سيناترا مرة واحدة؟ ولِمَ لا؟

- إذا لم تدفعي بما يليق بمقامي، سأتخلى عنك وأذهب عند من يدفع أكثر هههههه. سمالتو حوّلني إلى شخصية مهمة جداً.

التصقت به بقوة وكأنها كانت خائفة من أن تضيعه.

- شكراً حبيبي أنك شرفتني بحضورك. أنت كوم، والحضور كله كوووووم.

- أنا من يشكرك. أخرجتني من دائرة التكرار والبيت. سعيد جداً بالعرض. الأمر لم يكن سيئاً كما تصورت. في لحظة من اللحظات شعرت بنفسي في مسرح جميل ورائق.

- بريستول فيه كل شيء. مكان عرض هو أيضاً . سوى أنك هنا عليك أن تشغّل كل ذائقتك الفنية، والبصرية، والشمية، ومخيالك القوي أيضاً ، وإلا فأنت لا تصلح للمكان. في عرض الأزياء إذا كان خيالك فقيراً فأنت ستموت غيظاً وحقداً أيضاً . اللباس الذي تراه أمامك على أجمل امرأة، أو أحلى رجل، عليك أن تضعه على ظهرك، أن تلبسه، أن تعشقه وأنت في مكانك، وتدفع بالعارض إلى خارج الحلبة أو المنصة وتحتل مكانه بعينيك وقوة نفادك، وتأسر نظر الناس القريبين منك إلى حد ملامستك لدرجة أن تجرّهم وراءك في اللحظة نفسها، أو في اليوم التالي للشراء، وهم لا يسألون عن الثمن.

كانت لوليتا تتحدث كطفلة. سعيدة أن يونس مارينا منحها فرصة أن تراه أنيقاً كما اشتهت، على الأقل مرة واحدة. رأته في المكان الذي اختارته له، على الرغم من أن القاعة كانت غاصة بالبشر من رواد الموضة و«الشوبين». نساء تتداخل فيهن عطور من كل السحر الممكن. نهود منتصبة بجموح ونصف عارية أينما رفع رأسه. بدأ يصاب بلذة الدوار.

- عالم ليس سيئاً أبداً.

- ما لم توجد فيه، نعم هو جميل وأحياناً مدهش. لكن بمجرد أن تدخله عليك أم تتحمل تبعاته الخطيرة التي تؤدي بأصحابها حتى الانتحار. شكراً حبيبي. أشعر بسعادة غامرة

لا أستطيع وصفها تعرف لماذا؟

– لأن العرض كان ناجحاً هههه.

– ما أبأسك. أنا سعيدة فقط لأنك كنت هنا، ولأني تأكدت اليوم أكثر من أي زمن مضى من أنك تحبني، لأنك في النهاية لم تقم إلا بترضيتي وتدليعي. ربما بدوت لك لوليتا حقيقية بكل حماقاتها وجنونها الذي لا حدود له. ولكني لست لوليتا. ربما كنت ظلاً لطفولتها المسروقة. بكل تأكيد لم تفكر في هذا.

– أنا أيضاً سعيد فوق ما تتصورين ولا أبالغ إذا قلت لك أحببت المكان وناسه.

– هههه وكيف لا تحبه يا عمري وأنت سرقت مكان فرانك سيناترا؟ لو يستيقظ من قبره إما أن يملك على كتفيه أو ينتحر من جديد، لأنه يتوقع كل شيء منك سوى أن تقرأ مجلة فوك الباريسية، وتتخلى عن بوهيميتك التي ميَّزتك حتى أصبحت هي أنت. وأصبحتَ أنت، هي.

– فرانك سيناترا، أو فرانكي حبيبي. الله يرحمه مسكين لم يقاوم حضوري فانطفأ هههه.

– هل تعرف بما أحلم الآن؟ أن أهرب إلى أي مكان. ليست لدي أية رغبة في العودة إلى البيت.

- نذهب أينما شئت على الرغم من تحذيرات رجال الشرطة المكلفين بحمايتي.

- خلاص حبيبي، إذا رأيت أن في ذلك ضرراً، نعود إلى البيت. في بيتك دفء خاص وجميل. أنا طماعة أحياناً. يكفيني أنك حضرت عرضاً اشتهيتك أن تكون فيه.

- شكراً يا أجمل عمر، وألذ امرأة.

كان البهو لايزال يعج بالناس.

كانت لولا معلقة في ذراعه بفخر. كل ما اقتربت منه صحفية لتسأله عن كتابه الأخير، وقفت هي في الوسط بلطف كبير: ألم تقل لي أن أذكرك بدوائك؟ ساعة تليفونك لصديقك؟ نسيتني حبيبي، ألم تعدني بكأس؟ هل نسيت يا مهبول أن أرنست ينتظرك عند المدخل منذ أكثر من ساعة وأنت هنا تغازل الحلوات، ماذا أقول له؟ هو طبعاً لا يعرف إرنست، ولا كل المواعيد التي سطرتها له فجأة في خط مستقيم يعيده إلى واقع الأرض. لوليتا قالت له يجب أن نشغّل مخيالنا جيداً في هذه الأمكنة حتى نتحملها.

- حبيبي.

- عمري.

- عندما تكون وحيداً افعل ما تشاء، الآن أنت لي، قادرة

على القتل. أنت ما تعرفنيش مليح... تعاااال. تعاال لأريك جنتك المسروقة.

ثم تسير به نحو وكيلها الفني وتقدمه له بلا سوابق:

– خطيبي الجديد يا وليامز.

– ههههه...

يضحك وليامز:

– لا أعرف القديم.

– لا تشغل بالك. هو القديم وهو الجديد.

شعر يونس مارينا بثقل نكتة المدير الفني وبرائحة العنصرية. طبيعته التي لا تتغير كما تقول لوليتا.

– هو هكذا، ولكنه طيب.

– شعرت به يستفزك بلا سبب.

– أعرف ثقله، وأعرف أيضاً غيرته. لم يكن يحب كثيراً جيروم لأنهما بدءا مع بعض، وكان جيروم أجمل منه، وأكثر حظاً في حياته، على الرغم من هشاشة جيروم. هو يظن أن جيروم أحرق نفسه لأنه كان يريد حرق المحل، ولكن رأيي غير ذلك. وحاولت مراراً أن أقنعه أن جيروم طيب وهشاشته هي التي قادته نحو هذا النوع من الانتحار، وأنه لم يتحمل حياة بلاستيكية قاسية. لكن عناده جعله يتصلب في رأيه. شايف

حاله شويه هذه الأيام لأن الاهتمام به كبير.

– وأنت كيف تتحملينه. ثقيل.

– لن أتحمله طويلاً. سأغادر قريباً، وبشكل نهائي. وأبحث لي عن مكان آخر. ربما فتحت محل خياطة عالية في أهم شارع في باريس. أملك الوسائل والحرفة والمعارف.

– هل فكرت في البدائل.

أكدت لوليتا بشكل غير مألوف.

– لا. لم أفكر في أي شيء، ولا أريد أن أفكر في أي شيء آخر غيرك. صممت أن أكون لك وبشكل دائم. ست بيت مثلاً. أنجب لك عرشاً من الأطفال، وأقبلك كل مساء عندما تعود منهكاً من عملك.

– هههه. لا أفهم.

رأت الحيرة التي ارتسمت على وجهه بقوة لتغوص عميقاً في ملامحه المهادنة..

– لا تخف حبيبي. لن أتزوجك. أعرف أنك مصمم على أن لا تترك أثراً وراءك في حياة لم تثق فيها أبداً، حتى وأنت في عز نجاحاتك. أنا أيضاً سأذهب وأغيب نهائياً، وأرحل بعيداً حيث لا أحد غيري هناك. لا صورة لأب قاتل.

شد على يديها وهو يحاول أن يعتذر منها بعينيه.

كتاب دبي الثقافية 59
الإصدار «٥٩» مارس ٢٠١٢

– لوليتا... المفروض أنك في عز فرحك بعد نجاح العرض في هذا المساء؟

– ومن قال لك غير ذلك؟ خذني عمري أينما شئت. فأنا في هذا المساء لا أريد أن أفكر في شيء غيرك. إلى أي مكان يروق لك. أريد مثلاً أن أرقص. أن أشرب. أن أهبل. يريدونني أن أبقى معهم في كل عروض «الفاشن ويك»، ونجول العواصم العالمية. وكيلي وليامز هو من ينظم كل شيء ولهذا، الهرب لن يكلفني شيئاً. سحبني من انزلاق أكيد مع عارضين إندونيسيين لأنه بحاسته الحيوانية الحادة كان يعرف أني دجاجته التي تبيض له ذهباً. استفاد على ظهري من عرض نيويورك شانل. ربطني في وقت من الأوقات مع الياباني هيرو كوكو شينو. مثله مثل لاجونس التي تأخذ قرابة خمسين في المائة. كريستيان ديور ديفيليه[١١٧] عرضت معه في حديقة لتويلوري وكان هو من وضعني مع العارضات، الله يعلم كم كانت فوائده. أوصلني حتى أني عرضت ليماموتو[١١٨] القاسي جداً في صرامته، وكدت في وقت من الأوقات أن أصاب بمرض الأنوريكسية[١١٩]. وبدأت أنا أيضاً أتحول إلى امرأة هيكل عظمي. بعدها بدأت أفرض شروطي عليه، وأصبح هو أيضاً يدرك بأني لم أعد دجاجته.

---

١١٧ Christian Dior défilé.

١١٨ Yama Moto.

١١٩ مرض الإحجام عن الأكل Anorexie

- رحلة قاسية.

- خليني منهم. أريد أن أهرب معك فقط. ذهني الآن صاف، وأشعرني ممتلئة بك. خذني يشاء قلبك ولا تسألني عن الأمكنة التي تروق لي.

ركبت السيارة. لم تنس شيئاً من عادتها الجميلة. رمت الحقيبة اليدوية وراءها دون أي تأمل أو حذر. ثم أشعلت سيجارتها المفضلة: فوك بنفسجي[١٢٠] وسحبت بقوة محاولة أن تستنشقها بقوة.

أدار يونس مارينا مفتاح السيارة وانزلقا باتجاه طريق مرقص الكريزي هورس، في عمق باريس. تزحلق تحت وقع مطر جميل كان وحده كافياً لأن يدخله في غمرة أشواق لا تنتهي. كان مثل لوليتا، يتمنى فقط أن ينسى قليلاً. حتى القوة الضاغطة التي انتابته تخلى عنها كلياً. فكرة سرقة اللوحة المنسوخة وعودتها إلى بيته، شغلته للحظات. ولكنه توصل إلى أن يطفئها من مخيلته. مجرد سارقين كانوا يريدون سرقة شيء آخر، فصادفوها في طريقهم. حاول إقناع نفسه. حتى إنذارات إيتيان دافيد وربيكا، وضعها وراءه.

عندما التفت نحو لوليتا وأخبرها بما في قلبه، وما يشغله، ضحكت طويلاً: قالت له:

---

١٢٠ Vogue Violet.

– في هذه الحالة، أنا من ستقتلك عشقاً وحباً. لن أتركك تتنفس لحظة واحدة.

ثم اتكأت على كرسي السيارة، تتلفن لأمها بأن لا تنتظرها وأنها بألف خير. ضحك منها وفوجئ أنها لاتزال صغيرة ولا تتحرك إلا بإرادة والدتها. عندما سألها:

– أليست في الجزائر كما فهمت؟

– جاءت لتراني. ولتبقى مع المصلّحين في بيتي. لا تصبر عليَّ أبداً. أبي ممنوع في فرنسا. حاولت أمي بطيبتها أن تصلح بيني وبينه. طلبت مني أن أسحب شكوى صار لها زمن ولكنها سارية المفعول حتى اليوم. وأن اسمه في الإنتربول. أسكتها بجملة واحدة:

– «لو يبقى في عمري يوم واحد، لن أغفر له. يكفي يا أمي. خليني منه. حتى أنت باعك لمصلحة امرأة أخرى في السعودية حيث تجارته. قال لك مجرد زواج مسيار. يا عيني على المسيار؟ اسأليه عن الفرق بينه وبين الزنى و«الشرمطة»».

– وضعي معه غير وضعك.

– يفعل ما يشاء، ويحاسبك على تنفسك.

– طبيعته.

– أية طبيعة؟ هي جرأة محسوبة لطاغية صغير يدرك سلفاً

أن قانون البلاد معه، فقط لأنه رجل.»

التفتت نحو يونس مارينا. تلألأت عيناها تحت الانعكاسات الضوئية.

- خلّ البئر بغطاه عمري، وخذني إلى آخر الدنيا.

حاول أن يبتعد عن كل ما يعكر صفو الليلة الجميلة. لكي لا يرى إلا الصفاء الأول مثل ذلك الذي حدث معه يوم وصلته رسالة من دار النشر غاما الكبيرة تخبره بأن روايته ذئاب العقيد، قبلت وأن لجنة النشر فخورة بضمه إلى قائمة أهمّ كتابها. سعادة النجاح، وسعادة الصدفة التي أخرجته فجأة من دائرة النسيان. شعر بسعادة كبيرة. لم تكن الرسالة كبيرة ولا طويلة، ولكنها كانت قوية ومقتضبة. قرأها العديد من المرات لأنه يعرف جيداً أنها اللحظة الأولى التي يمكن أن تخرج فيها حياته عن المألوف، وتسلك طريقاً قضى عمراً طويلاً يحاول أن يفهمه لدرجة أنه بدا له مستحيلاً. لم يكن أمامه إلا ذلك. وعندما صدر الكتاب، حصد كل جوائز السنة. كانت تلك لحظته الأولى التي لا يمكنه أن ينساها. الكتابة مثل الصدفة التي تأتي مرة واحدة في العمر. لا شيء يحكمها إلا قانونها الخاص. هذا النجاح الأول والطفولي، هو الذي جعل رواية عرش الشيطان تُرشح لجائزة السلام الألمانية. لهذا

يفهم يونس مارينا جيداً حالة انتشاء لوليتا بنجاح lights in the city fashion week. من حق لوليتا أن تحلق وتنسى نفسها للحظات.

عندما مالت السيارة قليلاً في المنعطف، مال جسد لوليتا نحوه حتى التصق به. جاءه عطرها حتى أنفه. مسد على شعرها بنعومة. قبلها قبلة مسروقة وهو يضحك:

– هذه لا يعاقب عليها القانون لأنها غير موجودة فيه.

– مادام ما فيهش قانون، زدني واحدة أخرى أشهى.

أغمض عينيه لثانية واحدة وترك السيارة تنزلق وحدها، قبل أن يفتح عينيه عند باب المرقص الليلي: كريزي هورس.

همهم في أذنها.

كانت لاتزال تتدحرج في غفوتها:

– وصلنا. أما زلت تريدين الرقص أم نعود إلى البيت.

– لا تذكر لي البيت. أريد أن أشرب معك وأرقص وأهبل حتى آخر الليل. لا أشرب إلا قليلاً، وأعرف أن الله سيغفر لي حماقتي مع أحلى مجنون في الدنيا.

– واش أقول أنا عن أحلى هبل ضيعني في آخر العمر؟ قومي يا لالة، نشوف شطارتك في الرقص.

وضعت يدها في عمق كفه. ضحكت:

- يدك كبيرة تغطيني كلياً. ويدي صغيرة مثل جناحي عصفور.

ثم غابا في عمق المرقص الليلي، الذي غطت أضواؤه الكثيفة والمندّاة بالأمطار الليلية.

شعر فجأة أن كل شيء كان ينداح وراءه بقوة كموجة عارمة مسحت كل شيء في طريقها، ولم تبق إلا شجرة واقفة بشموخ قاومت سلطانها؟ كل شيء انطفأ في لحظة من اللحظات، ولم تبق إلاّ لوليتا بكل طفولتها المجروحة، والمصرة على بعض هبلها.

لو... لي... تا... ثلاث حركات لمقطوعة ناعمة اسمها لوليتا.

تدحرجت في أعماقه قبل أن يغرق في الأنوار وندى الليل.

-٤-

انمحت الفواصل بين الفصول، ودخل الشتاء متكئاً على عواصف الخريف القاسية. لم تسقط الثلوج، لكن البرد الذي زاد قسوة، يجمد أية حركة.

أطلت لوليتا للمرة الأخيرة من أعالي البناية. لم تأبه لصوته الذي جاء من عمق غرفة النوم:

-ألم أقل إن عمر الشقي باقٍ. ارتاحي قليلاً. ستجنين من كثرة الخوف. بهذه الترسانة من المراقبة والشرطة، لن يقتلني أحد غيرك ههههه.

لم تر شيئاً إلا سيارة الشرطة التي كانت تتحرك في أسفل البناية، غيبتها الأمطار الغزيرة التي لم تتوقف منذ أن خرجا من المرقص. ثم سحبت النافذة المزدوجة الواسعة، والستائر، ثم عادت إلى الغرفة وهي في كامل راحتها وألقها.

عندما تمددت بجانبه في السرير شمت رائحته الممزوجة برائحة كانت خليطاً من الويسكي والشمبانيا وعرق الرقص وعطره الخاص. لم تنهكها السهرة، ولكنها فتحت شهية جسدها وحواسها كلها. عندما نزعت لباسها الصوفي الذي كان على ظهرها، بانت أناقة جسدها. كانت امرأة من شمع منحوت باستقامة ودقة. لم تكن ترتدي إلا ألبسة خفيفة. هو يعرف جيداً أنها تكره السترينغ الذي كان قطعة أساسية بالنسبة للفرنسيين في التسعينيات. تقول إنه لم يعد عملياً، ولا مريحاً ولا حتى موضة... ولا حتى سيكسي كما كان في وقت من الأوقات. لا تشعر أبداً براحة فيه. ينتابها الإحساس بأنها عارية كلياً حتى وهي ترتديه. تحب قليلاً كيلوت التانغا[١٢١]، لأنه وسط بين السترينغ والتبان التقليدي، صيغته في شكل

١٢١ Culotte Tanga.

V تعطيه بعض الخصوصية الإغوائية وتخرجه عن السترينغ الذي يغطي أي شيء من الخلف. ضحك في أعماقه كيف بدا يتحول إلى خبير في الألبسة النسائية الخفيفة. لوليتا لا تحب أيضاً تبابين إيريس[١٢٢] العالية حتى الصرة، التي تحكم كلياً أسفل الجسد بشكل يشبه لباس العفة الحميمي، في القرون الوسطى. تسير مع التوجه النسائي العام. تشعر في شورتي بلومر[١٢٣] الجديد مثلاً براحة كبيرة. ولهذا عندما قبلت بأن تلبسها لإحدى الشركات الفرنسية الكبيرة، لم تفعل ذلك من أجل الدعاية فقط، ولكن لأنها أحست حقيقة بالراحة في جسمها.

قالت وهي تتنفس عطره وعرقه:

– هل أعجبتك.

– أحلى من الألبسة الخفيفة السابقة.

- C'est la nouvelle tendance mon ange[١٢٤]

– أحتاج إلى تدريبات مستمرة لأظل على تماس مع التوجهات الجديدة.

– وماذا أفعل يا مهبول غير هذا؟ أمممم عطرك آسر؟ جديد على حاستي الشمية... لا تقل لي ما اسمه. خليني. أريد أن

---

١٢٢ ERES.

١٢٣ Shorty Bloomer.

١٢٤ إنه التوجه الجديد يا ملاكي.

أعرفه بنفسي.

– صحيح جيدي، ولكن لم يبق منه الكثير مع الأدخنة والمشروبات وعرق الرقص الذي التصق بالجسد والألبسة.

– أنت لا تعرفني جيداً. حاسة شمي حيوانية وحادة. لا شيء يفلت منها. ألم تجعلني أقرأ رواية عطر؟ وأتعجب من حاسة شم باتيست غرونوي؟ لحظة وسأقول لك. متأكدة من أني لن أخطئ أبداً.

– أنتظر هذه الشطارة.

– شرط واحد. أن لا تتدخل نهائياً ولا توقف بحثي.

لمسته، قبل أن توقظ كل حواسها النائمة. حررت أصابعها الرقيقة وتركتها تتوغل فيه عميقاً. لا شيء كان يقف أمامها إلا شوقها وحنينها الهارب. كانت حاسة شمّها قد استيقظت نهائياً من غفوتها، ولم تعد هناك أية قوة تمنعها من غيها وجنونها. كان مستسلماً لأناملها الناعمة. غابت عنه شيئاً فشيئاً تفاصيل كل ما كان يحيط به. خانته كل الكلمات وهو يراها تتخلص من ألبستها. لم تترك إلا الغلالة الخفيفة التي كانت تشبه سحاباً بحرياً هارباً في لحظة غروب. كلما سها وحاول لمسها، واحتواء تفاصيل جسدها، أنزلت يده بهدوء وهي تنظر إلى عينيه المتعبتين، تذكّره بوعده، بأن لا يتدخل

ويتركها بجنونها حتى تجد اسم العطر الذي غطى جسده.

تشمّمت لوليتا رقبته ثم تحسستها بنعومة برؤوس أصابعها. دارت حولها في شكل نصف دائري قبل أن تعبرها بشفتيها ولسانها وتتوغل في الأذن وطرفيهما الخفيين. كان جسدها مثل المرآة المصقولة، تتغير ألوانه تحت الضوء الخافت الذي كان ينزل من أعالي الصالون. كلها تدرجات تبدأ من البنفسجي الغميق وتنتهي إلى الزهري الفاتح. حتى لوحة الذبابة غابت ولم يظهر إلا جانب المرأة المضاء على نور شمعة اللوحة نفسها أو القنديل الزيتي الذي فتح مساحة واسعة أمام كتابين ضخمين موضوعين على الطاولة. عندما فتح عينيه قليلاً، رأى المرأة ذات الصدر نصف العاري تنظر إليه بنوع من الخجل قبل أن تلتفت نحو الكتابين وتقبض على الجمجمة التي كادت تسقط من يدها اليمنى. ماذا كانت تفعل في ذلك الديكور المظلم؟ تشممت صدره قليلاً كمن يبحث عن حاسة نائمة لإيقاظها قبل أن تموت. كلمتها التي ترددها دائماً: الحواس التي لا توقَظ، تموت مع الزمن. مثل كل الكائنات الحية تحتاج الحواس البشرية إلى من يشعرها من حين لآخر أنها لاتزال حية، وتستحق أن تعيش وتوقظ من غفوتها. ثم اندفنت قليلاً في شعيرات صدره الموزعة بشكل غير منظم. تجمعها

مجموعات صغيرة بشفتيها لدرجة أنها عندما كانت تسحبها نحو الأعلى، ينتابه بعض الألم اللذيذ، لنسيانه، كان عليه أن يغمض عينيه ويتخيل شيئاً آخر لا أن يتذكر حادثة العلكة التي التصقت برأسه واضطرت أمه أن تستنجد بمقص وتقص الخصلة بكاملها ويسخر منه أصدقاؤه في مدينة مارينا. يعض على شفتيه ببعض القسوة لمحو الأمل، ويترك لوليتا تذهب نحو أقاصي جنونها. يتدحرج بعيداً نحو حالة مبهمة لم يكن يفهمها جيداً ولكنها كانت تشبه احتفالية الأعراس الشعبية. زاده صوت شفتيها ولسانها شهوة صعبت عليه مقاومتها، ولكن يدها امتدت مرة أخرى لترجعها إلى مكانها، فقط لتذكره بأنه ليس من حقه أن يخلف وعده. همهمات كانت تبدأ ببعض الوضوح قبل أن تغرق في غموض كان يحس به ولكنه لم يكن قادراً على فهمه. كلمة واحدة ظلت مثل النجمة في ليل غارق في سواده، ولم تستطع لجمها: عمري... عمري...

بالكاد لامسها، فشعر بجسدها طفولياً وكأنه يكتشفه للمرة الأولى. يبدو زغبه الخفيف الذي نبت في الأماكن الحميمية مثل ريش فرخ الطير. كان جسدها من شمع ونور، وكأن لا يد لمسته سوى اليد التي شكلته في خفاء مبهم على مدار تسعة أشهر في بطن الأم. كان يقاوم جنونه لكي لا يتحول إلى نيزك

حارق لا شيء يوقف هبله وجنونه، لدرجة أن يصبح مثل الحيوانات الخرافية التي تفترس أنثاها بعد أن تشبع غريزتها المشتعلة. لم يكن يهمه أن يشبع منها، البقاء جائعاً من امرأة يضمن استمرار الحب، كان فقط يشتهي أن يترك جسده ينزلق أكثر نحوها، يندفن فيها حتى يصبحا جيداً واحداً. أن يطيل عمر الهبل حتى يتحول إلى ألق ونور جميل. وتستعيد لوليتا كل الحنين الدفين الذي سرقه منها الاغتصاب المر.

الآن لم تعد تأبه لحركات يديه اللتين أصبحتا تتناغمان معها. عندما وصلت إلى سرته وانحدرت إلى الأسفل، شعر بالحرائق تنشأ في كامل جسده وتنشب بقوة في دمه. ولم يسمع إلا نداءات كانت تأتي متلاحقة كحشرجات تبحث عن منقذ يعيدها إلى الحياة:

-عمري... شهوتي... جنوني... mon amour, prend-moi[١٢٥]

لم يبق فيه شيء من المقاومة سوى أن يترك لهذا الجسد الذي قتلته الكتابة وحولته صدف الحياة القاسية إلى حطب يابس وقاس، وفجأة أحيته امرأة لا يعرف أبداً أية صدفة قادتها نحوه ولا أية سماء سرقتها من تفاح الجنة وألوانها

---

١٢٥ حبيبي... خذني.

قبل أن ترميها بقوة على صدره وليس على الأرض. من أية غيمة اشتق هذا الجسد الذي أصبح يلفه كلياً في التحام غريب يشبه التفاف أنثى العقرب على ذكرها قبل أن تخنقه بقوة اندفاعها مع أنه هو من ظل يركض وراءها وكأنه كان يجري وراء موته. أية أنثى هذه التي زرعت في كيان متهالك روحاً أخرى لم ينتظرها هو الذي تعود على أصوات الخوف وتكسر الموت الخفي الذي نبت فيه فجأة دون أن يعرف مصدره.

سمع مارينا النداءات كانت تأتي مرة أخرى من الأعماق وكأن الهوة زادت هذه المرة عمقاً، والغرق نحو المهاوي أصبح أكيداً. سمع صوتها. هذه المرة كان واضحاً.

– عمري... خذني...خذني... خذني نحوك. لم أعد قادرة على تحمل هذا الهبل القصي لوحدي.

مد أصابعه نحو شفتيها الغارقتين في تفاصيل بشرته التي أصبحت كلها مساحة مشتعلة من النور والحب والنار. سحب وجهها باتجاهه. انصاعت له هذه المرة دون مقاومة. عندما لامست شفتاه شفتيها، أحس بشيء ندي يشبه اللذة ولكنه كان أكبر منها. شيء يشبه ما كان يفعله وهو صغير عندما كان يركض فوق حصانه الخشبي بحثاً عن حبيبته التي سرقتها الغيمة السوداء الثقيلة. لا سلاح إلا الركض تحت المطر الذي

يبدأ بـارداً قبل أن يصبح دفئاً يغطي الجسد ويغلفه بغطاء من حنين. كان يفتح فمه على أمطار الخريف ويغمض عينيه قليلاً، ويتخيّلها شفتي حبيبته التي هربت من الغيمة الثقيلة. امرأة مصنوعة من خرافاته الداخلية وأنوار مدينة مارينا، في فجر ربيعي يصعب القبض عليه. ومن أمطار الخريف ومن ورقه الندي وألوانه الذهبية. يلحس شفتيه من ماء المطر الذي يشبه شفتيها. الآن فقط لماذا كان الاسم لوليتا هو نوة، رذاذ، أنزار. حتى المعركة التي نشبت يوم ولادتها بين أمها ووالدها كانت معركة الجنون والصمم. كان هو يريد لها اسماً عربياً أصيلاً نوة دلالة على الغيث والخير لأنها ولدت في صباح ممطر بعد طول جفاف، ثم أن اسمها يصلح للغناء عند استجداء السماء الجافة: نوة يا نويوة... غطيني بكسيوة... غني لي غنيوة.. وأمها كانت تريد لها اسماً بربرياً أصيلاً به رائحة جبال أجدادها الأوائل، ولهذا أصرت على: أنزار. – «كانت المعركة خاسرة لأنهما كانا يتصارعان على التسمية نفسها. لم يكن أنزار في لغة الأجداد من البربر يعني أكثر من قوس قزح وإلهة المطر.» كل الحروب بين أمها ووالدها كانت حروباً خاسرة، وكانت أمها هي أول من يُخلي المكان تفادياً لحالة لا معنى لها، تنتهي دائماً إلى حالة مقلقة من الصمت الذي يستمر زمناً

طويلاً في البيت، حتى تمحوه معركة أخرى تكون قد نمت في حضن الصمت.

عندما ضغط على خصرها بهدوء وأنزلها شيئاً فشيئاً كأنه كان يخاف من إحداث عطب أو كسر في جسد هش، شعر بحرارة تجتاح جسده كله. فتح عينيه قليلاً لكي يتأمل هذا الألق الذي يشعر به لأول مرة في حياته. تفاجأ أن إزميرالدا التي سكنته طويلاً انطفأت نهائياً وانطفأ معها وجه أليندي[١٢٦] الذي ظل يملأها. إيفا غابت من عينيه حتى انمحت تفاصيل وجهها لم تبق عدا بعض ملامحها الطيبة. هل كان يحتفل بنجاح عرض lights in the city fashion week الذي كانت نجمته العالية بلا استثناء، أم هو يحتفي بطفولته الهاربة التي لم تستعدها إلا قوة هذه المرأة التي بدت له في البداية خفيفة، وليست أكثر من مراهقة شبيهة بنامفيت[١٢٧] التي أصيب همبر همبر H/H ببلائها وسحرها لدرجة أنه التبس بها ليتحول جنونه إلى غيرة طاغية سهلت له ارتكاب الجريمة، والغرق في دم ضحيته، في مشهدية جنائزية شبيهة بالتراجيدية التي لا سلطان له على نهاياتها. عيناه لم تسعفاه لرؤية كل شيء، فقد

١٢٦ Allende.

١٢٧ Nymphette.

كانتا ثقيلتين بنورها، ولكنه في لحظة هاربة تمكن من فتح اليسرى، ولا يعرف لماذا هي التي انفتحت؟ لم ير شيئاً سوى كتلة من النور وعرساً من الألوان التي تشبه ألوان الطرقات المتعاكسة في ظلمة ممطرة. كانت لوليتا تتحرك في كل الاتجاهات. تهدهده وتقوده نحو جنون المجهول حتى شعر بالبحر يفيض في داخله، ويغرقه في موجه المتكسر على حافة الجسد والقلب، فاستسلم لجنون قاده بعيداً نحو جزيرة لم يوجد فيها شيء إلا شجرة تفاح، ظل يهزها، ويهزها... ويهزها قبل أن تسرقها الرياح العاصفة منه، حتى سقطت في حجره في شكل تفاحة الغواية ثم نامت في كفه، وبين أصابعه قطرة ماء.

سمع أخيراً همهماتها وكأنها تخرج من بئر غميق:

- حبيبي، كم كنت رائعاً.

- أنت الألذ والأروع.

قالها بشكل آلي، مع أنه كان يريد أن يسألها ساخراً:

-هل وجدت اسم العطر؟

ويعرف جيداً أنها كانت ستجيبه.

- اسم العطر. حبيبي هو... هو... مارينا. نعم اسمه مارينا.

– لكن هذا العطر لا يوجد إلا في قلبك.

– أفضل لكي لا يسرقه مني أحد.

نظرت إلى وجهه طويلاً كأنها كانت تريد أن تحفظ ملامحها كلها. سألته وهي بين النوم واليقظة سؤالاً لم يكن ينتظره تمنى أن لا تطرحه لأنه يعرف أن ذلك يعمق من خوفها عليه مع أنه تعود على هذا النمط من الحياة المشفوع بالنسيان. النسيان وحده يعطينا إمكانية الحياة خارج الخوف المزمن الذي يتحول إلى حالة مرضية من الصعب التنصل منها:

–كيف كان لقاؤك حبيبي مع الشرطة؟ كلما ذهبت نحوهم زاد خوفي عليك.

– لا شيء سوى الخوف المزمن. حتى ولو بقيت في البيت لا يعني ذلك شيئاً، ولا يضمن لي السلامة منذ دخولهم في غيابنا وسرقتهم اللوحة المزيفة.

– الكاميرات المنزلية بينت أنهم لم يكونوا أكثر من سارقين عاديين ولم يكونوا قتلة.

– ولكنهم سارقون، أي لو وجدوا أية مقاومة كان يمكن أن ينتقلوا إلى القتل.

– أنا مع فكرة الشرطة يجب أن تحذر قدر ما تستطيع.

– إذا استمعت لهم لن أفعل شيئاً. سأتحول إلى قط يثقل

ويسمن حتى يصبح عائقاً في البيت فيرمى بعيداً حتى لا يعود يعتمد على حاسة شمه بعد أن يفقد بصره.

لم تستطع أن تكتم ضحكتها.

–قط؟ ألم تحضرك أمثلة أجمل؟

– هههه لأني بكل بساطة كُلفت يوماً بتتويه قطتنا التي أصبحت عمياء وضائعة وسمينة، وأصبحت على حافة الموت. فرميتها بعيداً عن البيت بكيلومترين على الأقل. بعد يومين وجدتها تنتظرني عند الباب وكأن شيئاً لم يكن. قرأت في عينيها عتاباً كبيراً وتسامحاً غير محدود. عندما فتحتُ الباب، دخلت كما تعودت أن تفعل بعد قضاء حاجتها. عرفت فيما بعد أن القطة التي فقدت كل شيء، لم تفقد ذاكرتها ولا حواسها، بالخصوص حاسة الشم.

– مسكينة. أتمنى أن لا أصبح يوماً في حال قطتك الذكية. المهم أن تكون حذراً لا مريضاً بالخوف.

– تعرفين يا لوليتا، كل شيء نتحكم فيه إلا موتنا فهو رهين الصدفة القاسية. العديد من المرات كنت مرشحاً للموت ولكنه أخطأني وكنت سعيداً.

– وماذا يفكرون في علاقتي بك.

– لا شيء. يعرفون جيداً أن الأمر لا يخصهم.

– لابد أن يقولوا في سرهم وعلنهم، من أين خرجت هذه المخلوقة لتفرض على هذا الرجل علاقة لم يكن يريدها؟ ما العلاقة بين عارضة أزياء تعيش في عالم افتراضي وكاتب عاش الحياة حتى خربته من الداخل؟ في النهاية من أكون بالنسبة لهم؟ واحدة مجنونة أصيبت برجل يكبرها أكثر من ثلاث مرات، لاقتهم صدفة الحياة والموت أيضاً ، هو ملتصق بالحياة ويرفض أن يستسلم لقانون السن البغيض، وهي في عز العمر كانت تستعد لمغادرتها يأساً لولا لمسته. هل تدري حبيبي أني أدين لك بالحياة كثيراً.

– لم أفعل شيئاً سوى أن في لحظة ما أنا أيضاً أصبت بك، فأصغيت إلى قلبك وقلبي.

– لا أكره الشرطة ولكني أشعر أحياناً بغباوتهم المفرطة يدقون دوماً على الباب الخطأ. ماذا يعرفون عن تفاصيلي وتفاصيلك.

– أدركوا حتى سر خوفك وأنت معلقة، كلما مررت من هنا، على شرفة المنزل، ما يعني أنهم لا ينامون أبداً كما يبدو لك. أكثر من ذلك، يعرفون حتى بعض ما حدث لك مع والدك. مع أنهم عملياً ليسوا معنيين بك لا من قريب ولا من بعيد.

– لقد قدمت شكوى عندهم. ومادامت المعلومات تتحرك

بسهولة مع الوسائط الإعلامية الجديدة، ليسوا في حاجة إلى كبير معرفة سوى الضغط على زر صغير ليحصلوا على ما يريدون؟ يعرفون ما أردت إيصاله له ليقبضوا عليه.

- لم تقولي الحقيقة.

- لا، لم أقل كل الحقيقة. كنت صغيرة عندما كان والدي يأخذني معه أينما ذهب كنت لسانه في التجارة، وعقله الذي يحسب له عند الحاجة. وعندما بدأ يعبر المسافات مع تحرير التجارة الخارجية أصبح يصطحبني معه إلى البلدان الآسيوية الإسلامية التي كان يزورها. بالخصوص إندونيسيا. تحسنت لغتي الإنجليزية كثيراً. كنا نبيت في نزل جميل مليء بالعطور الغريبة والألوان. كانت تعقد فيه معارض لبيع الأقمشة للتجار المسلمين، وأحياناً حتى بعض المناقصات. وكنت أوشوش في أذني والدي في الوقت المناسب ليفوز بها. وكنت أيضاً وسيلته في معرفة أناقة اللباس. كان يضع علي الساري ويطلب مني هو وأصدقاؤه من التجار أن أبتعد قليلاً ويتأملونني وشيء جميل يرتسم في عيونهم. قامتي وبشرتي البيضاء كانت تناسبهم. وكنت سعيدة مثل فراشة تغرق في عرس ألوانها وتظن أنها تلعب وتستمتع فقط. كل شيء بدأ من تلك اللحظة. ونشأت يومها في أعماقي هذه المرأة التي تنام في الفراش

معك، فكرة أن تصبح عارضة أزياء. لم يكن الأمر سهلاً طبعاً. قبل أن أجد نفسي أنافس مع موضة باريس، كبريات العارضات في جاكرتا فاشن ويك[١٢٨] التي كانت ببساطتها، مدرستي الأولى، بل وانتصرت على آن رفيده، هاني حنانتو، توتي أديب، عائدة روياني، وغيرهن، وسرقت منهن عقوداً استثنائية. ماذا يعرفون عن هذه الطفلة الصغيرة التي حين راهنت على النجاح وضعت كل شيء في ميزان الحياة القاسي.

– كنت صغيرة.

– كبرت بسرعة. كان جسدي كافياً ليتحمل اغتصاب رجل مثل والدي.

أحنى مارينا رأسه بحزن وهو يشد على يديها.

– لست حزينة عمري. تجاوزت المرحلة الأخطر التي كانت تعصف بي.

– أتساءل عن أية لذة يشعر بها وهو يغتصب ابنته؟ لابد أن يكون كل ما هو إنساني قد مات فيه نهائياً. هايشة.

– كانت ليلة قاسية. كنا في قصر أحد أصدقائه الأمير وحيد، الذي أصبحنا مورده الأساسي في الوطن العربي، بين السعودية وبلدان المغرب العربي. كنت سعيدة بنجاحات والدي لأن ذلك أخرج العائلة من وضعها المتواضع إلى عائلة

---

١٢٨ Jakarta Fashion Week.

غنية جداً. والدي هو من كان وراء تحجيب نساء الجزائر، كان يعتبره الشيخ الغزالي جندي الخفاء. له صور كثيرة معه. طلب مني في البداية أن أعيد ارتداء كل الألبسة التي اشتريناها من البازار الذي يملكه صديقه الذي أصبحنا نقيم عنده كلما زرنا جاكرتا. قمت بغباوة، يعلوني فرح طفولي، وبدأت أرتديها وأقوم بعرضها أمامه تحت أنوار جميلة، وعلى حافة المسبح الذي كانت الأنوار تنعكس فيه بقوة مغرية. كان يرى تلونات جسدي وهي تتناغم وتتبدل أما عينيه. وأعتقد أنه كان يعريني أكثر، كلما ارتديت شيئاً جديداً. لم يساورني أي شك في طيبة والدي على الرغم من غباوته لأنه يشتغل فقط بحاسة الربح والخسارة. كنت الأكثر حظاً في العائلة وصاحبة أسراره. كان يحبني، أو على الأقل هكذا بدا لي. كلما لبست لزبائنه، كان كريماً معي بهداياه وهو يكرر بلغة إنجليزية ركيكة لم يكن مجبراً على استعمالها معي: تستأهلين كل هذا. حقك يا ابنتي لتواصلي دراستك. ويقبلني بين عيني. كان القصر الذي كنا نقيم فيه، يقع في أعالي جبل، في عمق غابة تشبه الأدغال المنسية. كنت أرى من نافذة غرفتي، حتى بعض المسلحين يزورونه ليلاً: من عناقه لهم، كنت أشعر أن بينهم صداقة كبيرة. يأخذون كيساً أبيض منه، مليئاً ربما بالنقود، أو هكذا

افترضت، ثم ينسحبون. هو الكيس الذي كنت أراه يسلمه في الجزائر في بداية التسعينيات، لشاب لم تكن لحيته قد نبتت نهائياً عرفت لاحقاً أنه قتل في جبال لخضرية بعد أن أصبح قائداً للجماعات الإسلامية المسلحة. كنت أعرف أنه على الرغم من صلواته الخمس، وإيمانه الظاهري على الأقل، كان يشرب ويقيم علاقات كثيرة مع خادماته الإندونيسيات اللواتي كن أقل مني سناً. السياحة الجنسية متطورة جداً. رأيته ذات صيف بالصدفة بين فتاتين قاصرتين. كان يظنني نائمة. رأيته كيف عراهما، ثم كيف سرحت إحداهن، على كل جسده بلسانها وشفتيها، باحترافية كبيرة، وكيف كانت الثانية تمص أصابع رجليه ويديه. كان مستسلماً لهما على حافة المسبح، حتى يذوب ويتهاوى في أعماق اللذة. في الأخير يتكئ بينهما، على ذراعيهما، وينسحبون نحو غرفته.

– ألم تكفه الإندونيسيات ليغتصب ابنته؟

– أحياناً أجد له بعض الأعذار، ولكن قسوته أغلقت كل شيء أمام عيني. كان سكراناً ليلتها. زادت خلوة المكان ويقينه الأمني المطلق. في آخر لباس ترددت كثيراً. كان مكشوفاً كثيراً. جاء ورائي ووشوش في أذني:

– «لمَ الخوف؟ أنت ابنتي في النهاية والأقرب إلى قلبي.

- مكشوف كثيراً يا بابا.

تمتمتُ بصعوبة.

- لا شيء. المسألة عادية. أنت في عمل. وعندما نعمل علينا أن نقبل كل شيء.

- يا بابا، ثقيلة عليّ.

- لم أتعود على ذلك.

ستتعودين عمري. عليك أن تكوني شجاعة.»

صمتت لحظة كأن كل العبارات التي ادخرتها لهذه الليلة هربت منها دفعة واحدة.

- لماذا لم توقفيه؟

- لا أدري لماذا. جمد كل شيء فيّ. كان قد منحني كأساً من المانجو. كان لذيذاً. شربته. انتابني فجأة ابن الأمير وحيد. كان بابا يعريني. أية شجاعة؟ فجأة أصبح جسمي عارياً؟ جمدت في مكاني. لم أحس بشيء سوى بدموعي التي اخترقت عيني بقوة قبل أن أغرق في صور ابن الأمير التي جعلتني استلذ باللحظة. كل الكلمات التصقت في حلقي وهو يعريني. لم أر إلا وجهه الذي اصفر فجأة وعينيه اللتين احمرتا بقوة. كل شيء مر بسرعة كبيرة. عندما اغتصبني كان القصر خالياً. لم يرحمني أنا ابنته. كان كأس الهلوسة الذي شربته قد أفقد

كل مقاومتي. لو فتحت هذه القصة لن أنتهي منها. ليس هذا وقتها. في اليوم التالي سافرنا في خط مباشر إلى الجزائر مروراً على باريس. في الترانزيت، في مطار رواسي - شارل ديغول، هربت ولم أركب معه في الطائرة نفسها. عندما وصلت إلى الشرطة وفتحوا ملف شكواي، كانت طائرة الخطوط الجوية الجزائرية في السماء. وبقيت أنا في باريس إلى اليوم. أخي كان أسوأ من بابا. جاءني من الجزائر فقط ليتهمني بأني كنت عقرباً وشيطانة رجيمة أفقدت والده عفته. حتى أمي لم تكن أقل سوءاً. عندما زارتني في باريس، طحنتني بأسئلتها القاسية التي كانت تضعني في زاوية الاتهام أكثر مما كانت تتهم زوجها.

- ألم تفكري بالعودة؟

- - كلما فكرت في الذهاب، خفت منه، فتنتابني رغبة لا تقاوم للتقيؤ. خليني منه أرجوك. يبدو أن كلانا منفي من أرض لم يعد له فيها إلا الرماد والخوف الذي لن يتخلص منه.

أريدك أنت ولا شيء آخر. أنت أبي وأمي وأخي، أنت صديقي وحبيبي وروحي. لم تسألني هل عرفت اسم العطر، هل عرفته أم لا؟

- ضيعتني؟ ههههه.

– أقول.

– مارينا. نعم عطري هو حبيبي مارينا. لن أقول لك إيف سان لوران: Un Homme Libre[129]

– نعم... رجل حر. لا شيء غير ذلك.

[129] هو عطر جديد لإيف سان لوران، ويعني اسمه: الرجل الحر.

59 الإصدار «٥٩» مارس ٢٠١٢

الفصل الرابع
صحراء الفتنة والقتلة

كتاب 59
الإصدار « ٥٩» مارس ٢٠١٢

-١-

واجهة مركز الشرطة المتواضعة في الضاحية الشمالية، لم تكن توحي بأن شخصية كبيرة تحاضر في داخله عن حركة الشرطة الأخيرة في الكشف عن الكثير من الخلايا النائمة التي كانت تحضر لارتكاب أعمال إرهابية في المطارات الفرنسية، وفي مترو باريس، والتي أسالت حبراً كثيراً إذ كيف سُمح لهذه الخلايا أن تكبر وتترعرع وتعيش بتهريب العملة والمخدرات ومساعدات بناء المساجد التي كان جزء كبير منها يُحوّل بطرق ملتوية نحو هذه الخلايا.

أربع ساعات دون توقف، حكى فيها برنار سكوارسيني، مسؤول مكافحة الإرهاب، عن كل التفاصيل التي جاء من أجلها إلى المركز لمعاينة الأوضاع الأمنية للضاحية عن قرب. كان يتحدث وأمامه خارطة ضوئية تبين أماكن وحركة الخلايا النائمة والنشطة، وتنقلاتها قبل تفكيكها، والأماكن التي استقرت فيها ويبدو أن الضاحية الشمالية كانت الأكثر مسّاً، إذ كانت كل الأضواء في الأحمر، مما يدل على أن حركة الخلايا نشيطة جداً.

فجأة أصبح المدرج الواسع فارغاً بعد أن اتسع لضجيج أكثر من ٥٠٠ شخص وفدوا من كل مراكز الضاحية الشمالية.

هدأ كل شيء، وعادت حركة المركز إلى آليتها الأولى.

كان برنار سكوارسيني قد انسحب قبل الجميع، بعد أن أنهى لقاءه مع مجموعات صغيرة من مفتشي الشرطة. اضطر إلى المغادرة السريعة بسبب لقاءات إعلامية تنتظره في العديد من دوائر باريس.

التفاصيل التي حكاها سكوارسيني تشبه فيلماً بوليسياً حقيقياً.

كانت وجوه الكثير من المشاركين متعبة. علامات الإرهاق تبدو واضحة على كل الملامح.

في البهو الطويل، ركضت ماري وراء إيتيان دافيد وهي تلتقط أنفاسها.

- شوي شوي يا إيتيان. أعرف أنك رياضي، وأعرف أن البريفينغ ينتظرك في مكتبك، ولكن يا حبيبي كن رحيماً على الأقل مع من ليست لهم لياقتك.

- لياقتك أحلى وأجمل مني بكثير. كيف رأيتِ الاجتماع مع سكوارسيني؟

- Trop de détails qu'il ne fallait pas dévoiler, ça fait vraiment peur الاجتماع كان ثقيلاً ككل الاجتماعات الرسمية. لكن يبدو أن خيط العنكبوت أكثر مما تصورت.

إخطبوط تمد أذرعها في كل مكان: الدين والمال والسلطة.

- الإرهـاب لم يعد رهين الصدف الانتقامية، كما كان. أصبح منظماً جداً ويستهدف السلطة وليس شيئاً آخر. الملفات التي تنتظرنا ثقيلة، وعلينا أن نضاعف الجهود وإلا مسحتنا الموجة الساحقة للإرهاب التي تحتل كل يوم موقعاً جديداً.

- كنت أعتقد أن الصيد سمين؟ يبدو أن سكوارسيني يبالغ قليلاً في تحليله. لم يقنعني كثيراً؟ الكثير مما قاله عن الخلايا النائمة والنشيطة أيضاً، نعرفه وقد أرسلنا تقارير كثيرة للتنبيه. وفي كل مرة يقال لنا لم يحن الأمر بعد. وهاهي الخلايا نفسها تستعد لارتكاب جرم لا يغتفر.

- المعرفة وجدها لا تكفي، نحتاج إلى المزيد من المعلومات مع ترك الخلايا تتحرك في هامش مراقب، ونتدخل عندما تتكشف كل الخيوط السرية. ضرب الرأس مهم جداً وكل ما نراه في الواجهة لا علاقة له بالرأس. على كل سأعود إلى كل هذه التفاصيل. يجب فقط أن لا ننسى أبداً أننا في عمق أزمة أمنية كبيرة وحقيقية. عندما تُلقي القبض على شبكة بكاملها عليك أن تستفيد منها معلوماتياً. لا تسبق كثيراً ولا تتأخر كثيراً أيضاً. بهذا الصيد وضعنا خارج دائرة الضرر أشخاصاً كثيرين، الواحد فيهم كان يمكن أن يخلف خراباً كبيراً، وتركه

مؤقتاً حراً خارج أية رقابة، يفيدنا جداً. أي واحد منهم، هو خزان معلومات مهمة. على كلٍ مهما يكن، سنحاول أن نتحدث عن كل هذه التفاصيل بعد قليل، في البريفينغ.

لم يخفف إيتيان دافيد من مشيته. كانت ماري تبدو برفقته قصيرة على غير العادة.

– المفروض أن تتفادى أية امرأة السير بجانبك، ستبدو أقصر من اللازم هههه، وخلاص، تورطت في الوقوف بجانبك وأنت تركض وبدأت أتعب في مجاراتك.

– هههههه ... مصيرك أن تظلي معي. لا خيار لك، عليك أن تتحملي قصرك وطولي.

– هههههه. أتصور أن بقية الخلايا النائمة أكبر بكثير مما كشفه سكوارسيني. المعلومات المتوفرة لدينا تؤكد أن الخلايا النائمة تتنامى ولا تقل، ولهذا يجب كشفها ما دمنا نعرف جزءاً مهماً منها.

– مشكلة الخلايا النائمة لا نعرف وجودها الحقيقي إلا مع بداية تحركها الفعلي. يجب أن لا نستهين بما حققناه لأنه هو ما يقودنا نحو تفكيكها.

التحق إيتيان دافيد بمكتبه متبوعاً بماري. كانت الفوضى كبيرة في الداخل. ضجيج وأحاديث متقاطعة عما جاء به تدخل

سكوارسيني الطويل. كل واحد كان يعلق بطريقته عن الاجتماع الأخير. تصريحات سكوارسيني وإرشاداته لم تمر بسهولة.

عندما عدل إيتيان دافيد من متكأ كرسيه كانت الهمهمات قد قلّت في القاعة الصغيرة.

– عذراً أعرف أنكم متعبون من اجتماع طال كثيراً، ولكن يجب أن نعرف كيف نتحرك بعد المستجدات التي وصلتنا من سكوارسيني ومن أجهزتنا الخاصة. البلاد تنام على بركان خطير ستبدو أمامه أحداث الضواحي في السنوات الماضية مضحكة، لا أحد يعلم متى سينفجر. فقد تم الكشف عن ثلاث خلايا إسلامية نائمة. في حوزتها خطط وأسماء كثيرة. من بينها واحدة تخص تنفيذ عملية شاتلي[١٣٠] التي تم إحباطها البارحة. كما تم العثور على وثيقة ثانية في شكل بيان يبدو أنه وزع في دوائر ضيقة، وفيه تردد اسم مارينا العديد من المرات. أمر هذا الرجل يخصنا كثيراً لأنه موجود في دائرتنا الأمنية.

– هناك تعب عام. كثرة الانتظار ترهق لدرجة أننا نتساءل عن جدوى ما نقوم به.

قالت ماري بثقة كبيرة. لم تشذ عن عادتها المعروفة.

– الأخطر من هذا كله يا ماري، أن مارينا أصبح في الدائرة

---

١٣٠ Chatelet.

التهديدية الضيقة. على العكس من بقية المهددين. علينا أن نضاعف من حذرنا لأن المسألة تشبه انتظار صحراء التتر. نحن في وضعية من ينتظر هجوماً قاسياً لا يأتي، ويوم يأتي، نكون قد أصبنا بحالة إرهاق شديد. هذا الهجوم الأخير ضد الخلايا النائمة، أعطى قوة كبيرة للقوى الأمنية لتفادي إرهاق صحراء التتر.

– ما وصلنا من وثائق يؤكد على ما أقوله.

واصل إيتيان دافيد ثم قلب أوراق الملف الذي كان بين يديه، بعصبية ظاهرة. ثم سحب إحدى الوثائق، التي تم العثور عليها لدى خلية من الخلايا النائمة.

– ما قلناه لم يكن كلاماً عاماً، ولكنه كان حقيقة يجب التنبه لمخاطرها. اسمعوا ماذا تقول هذه الوثيقة، المرتبطة بمارينا: إن مارينا عندما كتب عرش الشيطان، حكم على نفسه بنفسه. ثم إن الحكم عليه جاء لعمالته إضافة إلى كتاباته التي تعمل على إفساد أخلاق الناس. السم في الدسم. مارينا بعمله هذا، كان أسوأ من سلمان رشدي. الأمير أعطى الأمر باختطافه أو قتله أو مجازاة كل من يقوم بذلك. لأن قتل الكافر من أمر الله. وقد تم الاعتماد مع الإخوة في ألمانيا لتنفيذ العملية ضده في المعرض، ولكن في آخر لحظة تراجع لكي لا تكون النتائج

وخيمة. لم يحدد اسم البيان أو أسماء المنفذين. الطغاة يجب أن يقتلوا. يجب أن يدفعوا الثمن وأن يعرف أعداء الإسلام أن هناك يداً للقصاص. وكان يفترض أن يأتي القصاص من أحد الإخوان الأتراك في ألمانيا، ولكن في آخر لحظة تلقى إشارة بعدم التنفيذ داخل المعرض لأن ذلك سيضر بصورة المسلمين في دوسلدورف التي كانت من وراء التفكير في عملية التنفيذ.

– هذا أمر سيضعنا أمام مسؤولية أكبر وأصعب، وربما أخطر.

تدخل المفتش الذي كان في آخر القاعة، يكاد لا يظهر إلا جزءه الأيمن لقلة الضوء في الزاوية التي كان فيها. لم يره إيتيان دافيد جيداً بسبب الضوء الذي كان مواجهاً له بقوة.

– لا نعرف شيئاً عن التفاصيل الأساسية لهذه العملية؟ أشعر كأن جزءاً من قضية مارينا يظل خفياً. وأن الخلايا النائمة أوسع مما نتصور وأذرعتها كثيرة.

– أنت قلتها. أذرعتها طويلة ويجب أن تقطع إذاً لكي نشل حركتها. المهم أن يونس مارينا تحت طائلة مسؤوليتنا رسمياً، وعلينا أن نكون يقظين جداً. أي تهاون هو فتح مسلك لهم. ألقينا القبض على الكثيرين وعرفنا تنظيمهم الهيكلي، وهذا يفيدنا لإيقاف العمليات المحتملة على باريس والضواحي المتداخلة معها. جماعة عملية شاتلي والمترو أوقفت. تأكد

لنا بما لا يدع مجالاً للشك، أن مارينا مقصود شخصياً من طرف هذه الجماعات. هذا هو عملنا في الوقت الحالي. يجب ألاّ نغفل لحظة واحدة. الخلايا النائمة المتبقية هي أخطر شيء في المدينة لأننا لا نعرف بوجودها جدياً، إلا عندما تتحرك كما قلت لكم، وكثيراً ما نصل متأخرين للأسف. من هنا يجب ضرب النواة لحظة تكونها.

– مهما يكن قال روجي أحد مساعدي إيتيان دافيد، يجب أن نكون إيجابيين. ما حدث ليس هيناً. تستطيع فرنسا وباريس تحديداً، أن تتنفس قليلاً بعد هذا الصيد السمين الذي أخذ منا وقتاً كبيراً للوصول إليه. لقد اجتهد الجميع للوصول إلى هذه النتائج. لم يكن الأمر سهلاً أبداً. فقد تم استعمال فرقة التدخل السريع للدرك الوطني Le GIGN، كانوا سنداً عظيماً في العملية.

أضافت ماري باستفزاز واضح.

– كومة أوراق لن تعيد إلى الحياة من ماتوا ظلماً بأياد مجرمة ودموية. أنا مازلت مع فكرة إعادة تنفيذ حكم الإعدام. البشرية غير مهيأة لذلك في الوقت الراهن. هناك بعض الناس يحتاجون إلى ردع قاس لا تكفي معهم القوانين. يتحول القانون مع القتلة أحياناً إلى سند للمجرم أكثر مما يساعد المظلوم على فرض حقه. ثم لا أفهم كيف يخرجون من السجون، ونبقيهم

على هذه الأرض التي مات أجدادنا الأوائل من أجلها. أجيال احترقت مقابل أن ينعم اللاحقون ببعض خيرها.

رد إيتيان بشكل تلقائي، حتى دون أدنى تفكير.

- يا ماري، بعض هؤلاء المجرمين فرنسيون مثلك ومثلي، ومثلنا جميعاً، يعاقبون بقانون نخضع له كل فرد منا. هل تتخيلين كل هذه الوثائق التي بين أيدينا زوائد؟ لا. هي عيننا لفهم هذا الإخطبوط الإرهابي. لسنا خارج الاستهداف، وهو ما يجعلنا في قمة الحذر. ما يحدث وراء المتوسط من أعمال إرهابية، يهمنا كثيراً لأنه لا يوجد بلد خارج رهانات القتلة الذين لا تهمهم أرواح شعوبهم ولا الشعوب الأخرى. بفضل هذا التعاون استطعنا أن ندفع ببعض الخلايا النائمة إلى الظهور.

- لا أعتقد أنهم يعطوننا الحقائق التي نحتاجها، وهم يومياً يطالبوننا بالاعتراف بالذنب وطلب العفو. هل تتصور أن الجزائريين الذين صدروا لنا الإرهاب، نسوا حربهم ضدنا؟

تدخل روبرت، أحد محافظي الشرطة المرتبط بفرقة إيتيان دافيد.

- حربنا ضدهم، أدق يا روبرت. لم يأتوا عندنا ولكننا ذهبنا نحوهم بدباباتنا وجندنا. حرب الجزائر نزيفنا المشترك. سيأتي جيل أكثر جرأة سيوقفه، أنا متأكد من ذلك. حتى ذلك

التاريخ، هم يتعاونون معنا بجدية لأن مصلحتهم أيضاً رهينة بذلك. نعتمد أيضاً على عملاء ونقاطع الحقائق فيما بينها. وقد سمعتم جميعاً ما صرح به سكوارسيني. فبحسب بعض التقارير التي وصلته إن تصريحات عمر نصيري ساعدتنا جميعاً في الكشف عن هذه الخلايا النائمة. تتبعنا كل خطواتهم حتى تهريبهم الأسلحة وتمريرها عبر الأراضي الإسبانية والمغربية. للأسف، المتفجرات كما يقول سكوارسيني ساعدت على تفجير محافظة الشرطة المركزية بالجزائر العاصمة، شارع عميروش في ٣٠ يناير ١٩٩٥ التي أودت بحياة العشرات من الأبرياء. كان يمكن أن توقف السيارة في منتصفها لكي ننقذ الناس،ولكننا لم نفعل.

– لماذا لم يوقفها سكوارسيني مادام كان يعرف؟

– التقيت بسكوارسيني العديد من المرات. لم نكن نعلم بدقة ما كان يحدث، لأن عمر نصيري نفسه، بدهائه وحيلته، كان يحتفظ ببعض أسراره لتنظيمه. هناك تواطؤات تتجاوزنا لأننا لا نتحكم فيها. ولكن لم نكن نعرف الطريقة التي سيسلكونها. الأسلحة تمر عبر إسبانيا، ومنها نحو الحدود المغربية الجزائرية، والجزائر بلد كبير. ربما هناك حسابات سرية بين الإسلاميين ومهربي الأسلحة الذين يوجد بعضهم في رأس

الدولة. ولهذا عندما نتحدث عن الإرهاب يجب تأمله في حركته وليس في ثباته. لم يعد اليوم أي بلد بعيد عن بلد. نستفيد من كل التقارير المتاحة بما في ذلك التقارير الأمريكية التي تبدو بعيدة وهي ليست كذلك. ميخائيل شيوير رئيس وحدة المخابرات المركزية الأمريكية لمطاردة أسامة بن لادن، وهو أحسن من وصف عمر نصيري سعيد الماجدة، وهو من أدق التقارير التي عرفتها من بين كل التقارير الأمريكية السرية الخاصة بالإرهاب.

وكأن روبرت لم يكن مقتنعاً، أضاف:

فرنسا بلد كبير يجب ألاّ يمس في تاريخه ووفائه. كلود مونيكي، رئيس مركز الأبحاث الاستراتيجية[١٣١] نفى كل ما قاله سوارسيني. في نقطة توضيحية مؤرخة في ٢٢ نوفمبر ٢٠٠٦، ومعنونة عمر نصيري وخلفيات المناورة المعادية لفرنسا، يتهم فيها كلود مونيكي أنه على العكس من كل ما قيل، فإن عمر نصيري مستعمل من طرف مجموعة هدفها الإساءة لفرنسا، قبل أن يختم: نحن صارمون فيما نقول. الماجدة لم يكن أبداً عميلاً فرنسياً ولكنه كان يعمل لمجموعته بالدرجة الأولى.

---

١٣١ Claude Moniquet, le président de l›Esisc.

- ربما. لا معلومات لدي أكثر مما قلته.
- على الدولة أن تعرف ما تريده يا إيتيان؟
- ماري. هؤلاء في عمق الجريمة، ولا يهمهم أي واحد، تتساوين أنت مع كل من لا يجاريهم. انظري الوثائق كيف هي مرتبة؟ يونس مارينا موضوع تحت أضوائهم.
- نحن نقتل أنفسنا وهو لا يأبه كثيراً بمصيره. قبل أيام سهر حتى ساعة متأخرة من الليل مع صديقته الجديدة عارضة الأزياء لولا. أو لوليتا. أو نوّة، اسمها الحقيقي.
- لا يمكنك أن تحجزي إنساناً في علبة. لكن معك حق يجب أن يحذر قليلاً، وقد نبهناه حتى إننا نصحناه بتغيير أمكنته من حين لآخر لكي يمحو آثارهم. صديقته لوليتا لها عملها، فهي من طائرة لطائرة.
- أحب أناقتها، وأفاجأ أحياناً كيف أن مجتمعاتنا منحت فرصاً كبيرة لم تمنحها لذويها؟ كان يمكن أن تكون لوليتا مجرد أمّ بعشرة أولاد في بلدها المسلم؟ أو تقبل أن تُرجم إذا أصرت على أن تكون عارضة أزياء وعشيقة لرجل بلا زواج؟ لأنهم وقتها لن يرحموها ولن تجد أي قانون يحميها.
- لا توجد خلطة سحرية، لوليتا شابة موهوبة ببساطة يا ماري.

- نحن في جلسة ضيقة وتعلمنا في ثقافتنا أن نقول بصراحة وبصوت عال ما نريد قوله. ما يخيفني ليس هذا. مشكلة الإسلام أنه نقل كل حروبه المدمرة وصراعاته، نحو أرضنا. أكثر من ذلك كله، عددهم أصبح مخيفاً. لقد تكاثروا بشكل ملحوظ.

- لا أعتقد ذلك. ثم كما قلت لك، أغلب الذين قاموا بالتحضير للعمليات هم فرنسيون.

- ليسوا كذلك. المسلمون في هذه الأرض يتوالدون بشكل أصبح مخيفاً. وزير الداخلية لم يكن مخطئاً، يجب أن ننظر لكل ذلك بجدية.

- رأيك قاس يا ماري. قالت ربيكا بشكل واضح وحازم. عدّي: كم يهودياً، كم هندياً، كم آسيوياً، كم إيطالياً؟ كم برتغالياً؟ كم إسبانياً في فرنسا، كم أرمينياً، كم كردياً، كم قبائلياً، واسحبيهم من العدد لأنهم ليسوا فرنسيين بمقاساتك، وستفرغين فرنسا من جوهرها؟ الموقف من الغريب متشابه في كل الثقافات. نسكت على الأوروبيين لأننا نشترك معهم في المساح نفسها، ولكن إذا تأزم الوضع سنفعل ما فعلناه مع اليهود بأناقة أكثر وسنحمّل الإسبان والبرتغال كل مشقاتنا.

تدخل إيتيان دافيد.

– لسنا محامي الشيطان ولكننا نقوم بما كُلّفنا القيام به. وجهات نظرنا ليست مهمة جداً، لكل واحد وجهة نظره الخاصة. أنا معكم، إن على الإسلام أن ينظر لنفسه من داخله بالجرأة التي تليق به، دون ذلك سيظل يكرر في الدورات نفسها وسنظل نحن نبحث عن أكثر الحلول اختزالاً. نحتاج إلى تربية أخرى. على كل حال بينت فرنسا عن فراغ قانوني ومعلوماتي كبير في حربها ضد الإرهاب.

– مع ذلك، ستة ملايين مسلم كثير يا حبيبي؟ جيش سري سيطالب يوماً بحقه ليس فقط في القوانين ولكن في الأرض أيضاً.

– قلت لك يجب الحذر من الاختزال يا ماري، الذي يحكم كل ردود أفعالنا. مسؤول مكافحة الإرهاب برنار سكوارسيني[١٣٢] رفع درجة الحذر إلى الإشارة الحمراء. مما يعني أن المعلومات التي يتوفر عليها خطيرة. وعلينا أن نصطف بشكل موحد، ونشتغل وفق هذه القرارات. يعجبني في رؤية سكوارسيني أنه براغماتي، يرفض التسليم السهل بأن كل المسلمين انزلقوا نحو الراديكالية. لكنه في الوقت نفسه يؤكد أن التهديدات الإرهابية على الأرض الفرنسية حقيقة، مصدرها الحقيقي هي القاعدة في المغرب الإسلامي التي هددت فرنسا ويجب

---

١٣٢ Bernard Squarcini.

أن يؤخذ ذلك بجدية. يونس مارينا جزء يومي من برنامجنا الأمني، في دائرتنا. نحن اليوم في مستوى تهديدات ١٩٩٥ التي أدمت فرنسا.

تحركت رِبيكا في مكانها بنوع من الانفعال تبدى بوضوح على وجهها. لاحظ إيتيان دافيد ذلك. لم يقل شيئاً، لكنه قلب ببعض الانفعال الظاهر الأوراق والوثائق التي كانت بين يديه، ثم واصل حديثه متفادياً الالتفات نحو وجه ربيكا الذي كان يقول أشياء كثيرة دون أن يقولها.

– المخاطر كبيرة.

– يجب أن نعطى الوسائل الضرورية. أنت لا تستطيع أن تحارب جهازاً فتاكاً كالإرهاب دون تجديد وسائل الدفاع الحقيقية.

– الوسائل موجودة وقد طرحت ذلك بوضوح أمام سكوارسيني. الخطر الكبير يحتاج إلى وسائل كبيرة، وإلاّ فلا جدوى من الحرب التي نخوضها.

– أنا موافق تماماً.

– على كل هذا ما أكده أيضاً مسؤول المديرية المركزية للمعلومات الداخلية[١٣٣] إذ قال: من خلال ما وصلنا من معلومات من طرف شركائنا، هناك ما يبرر التهديدات ضد

١٣٣ (le chef de la Direction centrale du renseignement intérieur (DCRI.

بلدنا، التي أصبحت كبيرة. التهديد يأتي من ثلاثة أطراف، الفرنسي المتأسلم الذي يتطرف ويريد أن يقوم بفعله وحده، القاعدة في المغرب العربي الإسلامي، لاكمي، التي أرسلت كوماندوس إلى فرنسا للقيام بعمليات انتحارية وإرهابية، من بينهم نساء كثيرات لأنهن أكثر اختراقاً للمنافذ الضيقة. والجهاديون أي الفرنسيون الذين ذهبوا إلى أفغانستان أو اليمن أو الصومال وتدربوا هناك ثم عادوا سرياً جاهزين للعمل الإرهابي على الأراضي الفرنسية. لهذا رُفعت درجة الحذر إلى الأحمر لتنبيه الناس لما يدور حولهم.

– ما زلت أعتقد أن القبض على الخلايا النائمة تحول كبير سيسرع من ظهور القتلة.

أكّدت ربيكا بثقة أكبر.

– وأنا معك يا ربيكا. لهذا لا نترك أي شيء للصدفة. وأكبر وسيلة لخوض هذه الحرب، تجفيف منابع المال وعلى رأس ذلك بارونات المخدرات. ثم السيطرة على الجانب الإعلامي مسألة ضرورية، وإلا لا قيمة لكل هذه الجهود. على كل سنعيد ترتيب المواقع التي تجب مراقبتها، لأنه لدينا الإيراني المهدد بدوره ويحتاج إلى حراسة مقربة قليلاً. الإرهاب في حالة يأسه يمكن أن يتحول إلى قوة عمياء لا رادع لها. لقد ارتفعت درجة الخطر إلى الإشارة الحمراء ويجب أن نتحرك داخل هذا

المنطق. أتمنى أن يكون هذا البريفينغ قد أفاد قليلاً. ربيكا أحتاجك قليلاً لترتيب لقاء يونس مارينا لنرى ما يمكن فعله للقاء به.

لملم إيتيان دافيد أوراقه، ثم رفع رأسه باتجاه الجميع:

–أتمنى لكم بقية يوم جميل. انتهى البريفينغ

بينما تفرق الجميع في اتجاهات متعددة بين المكاتب والمغادرة، انفرد إيتيان دافيد بربيكا التي ظلت في نهاية المكتب تنتظر خلو المكان نهائياً.

-٢-

فتح يونس مارينا الباب بعد أن تأكد من صوت إيتيان دافيد ومن دقاته المتوالية بانتظام لا أحد غيره يعرفه. كان ينتظره.

- C'est moi, Etienne[١٣٤]

– أهلاً. كنت أنظرك.

– مرحباً سيد مارينا، أتمنى أن لا أكون قد أزعجتك؟ أعرف أن انشغالاتك كثيرة. ولكن للضرورات أحكام، قاسية أحياناً.

– مرحباً عزيزي دافيد. حضورك دائماً قيمة مضافة.

– كيف الأمور؟ منور.

– شكراً. من محبتك وطيبتك الكبيرة.

– لن أبقى كثيراً. ربيكا ستلحق بنا بعد قليل.

– جيد. جئت فقط لأؤكد لك أن شكوكنا كانت كلها في محلها. فككنا الكثير من الشبكات النائمة. عليك أن تحذر يا عزيزي لأن ما اكتشفناه في بعض الوثائق، لا يبشر بخير. اسمك تردد في أكثر من وثيقة. أعرف أن شخصيتك قوية، ولكن درجة الخطر العامة هي في إشارة الأحمر. ردة فعل اليائس خطيرة جداً. لم تكن شكوكنا فارغة.

– قرأت في بعض الجرائد عن هذا الصيد السمين Un vrai coup de filet.

---

١٣٤ أنا، إيتيان.

- بفضل تكاتف عمل الجميع. كنت فقط أريد أن أسالك: هل التقيت في معرض فرانكفورت، في الخريف الماضي، بألماني من أصول تركية هددك بالقتل، أو بدا منه شيء خاص؟

- في اعتقادي لا. كان الجمهور غفيراً جداً وطيباً إلى حد كبير. لم ألاحظ ما يمكن قوله؟ لم أبق أكثر من بضع ساعات. مرّ عليّ المئات، ومن الصعب عليّ جداً تذكر كل التفاصيل. بتّ ليلة واحدة هناك ورجعت. كنت سعيداً.

- أردت أن أقول هل هناك شخصية أثارت انتباهك في المعرض؟ يجب أن تتذكر لأن الأخبار التي وصلتنا من شرطة دوسلدورف لم تكن مطمئنة، بل وخطيرة. كل شيء يتغير بشكل مخيف. أنت تعرف حتى كرنفالها هذه السنة لم ينج من التهديدات. المغني سعد هارون الذي غنى بسخرية عن مظهر اجتماعي يتعلق بالنقاب، حكم عليه بالإعدام. مع أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد أغنية.

- سمعت الأغنية. طبعاً من حق أي إنسان أن يقول ما يريد، ولكن في لحظات الأزمات العلاقات مع الآخر تتغير بقوة. لم يكن من الضروري السخرية من الناس على أساس خيارات دينية. التطرفات كلها تتساوى وتتقاطع في النقاط نفسها، وتعمق الأحقاد في مجتمعات هشة أصبحت فيها العنصرية ومعاداة الآخر علامة العصر المخيفة. ما كان يعاقب القانون

عليه، أصبح مباحاً بشكل متواطئ. نحن في عمق أزمة خطيرة لا أحد يتنبأ بما ينتظرنا. كل الفاشيات جاءت محمولة على ظهر الأزمات الخطيرة. لا أبرّر شيئاً، لكني أعتقد أن سعد هارون لم يكن عادلاً في أغنيته: بريتي وومان[١٣٥]. Burka woman, sous votre drapnoir, burka woman, avec vos pieds sexy, mon amour pour vous, s'amplifie chaque fois que j'entrevois vos orteils Une fois chezmoi, je flirte avecle rideau du salon[١٣٦]

– على كل مجرد رأي. طبعاً لسنا مجبرين على التعدي على قناعات الآخرين ليستقيم الوضع. معك حق. على كل حال هناك من يجدون ضالتهم في هذا الوسط القاسي. الذي يهمني هو ما تتذكره عن معرض فراكفورت؟ هذا ما أريده منك.

فكر مارينا للحظات. هو يتهالك على الصوفة عاوده فجأة وجه الشاب الذي رفض أن يشتري الرواية.

– تذكرت حادثة بسيطة ولا أرى إن كانت لها أهمية تُذكر، سوى كونها تعبيراً خاصاً عن رأي. أثناء حفلة التوقيع، جاءني شاب كان يريد أن يشتري رواية عرش الشيطان، ثم تراجع وهو يسمع إلى أغانيه. طبعاً لامني على موقفي من الإسلام. ثم

---

١٣٥ Pretty Women.

١٣٦ نساء البرقع، تحت ردائكن الأسود، وسيقانكن الشهية، حبي لكن يكبر كلما لمحت رؤوس أصابع أرجلكن... عندما أعود إلى بيتي ألتصق عشقاً بستائر الصالون.

انسحب. حاولت أن أقنعه بأني لست عدواً له ولا عدواً للإسلام، فأنا كتبت عن سمسرة و حالة تاريخية تتجاوزني و تتجاوزه.

– أسألك لأن هناك وثيقة عثرنا عليها في منتجع إحدى الخلايا السري، دفعت بأجهزتنا للاتصال بألمانيا لأن التنسيق أصبح كبيراً في السنوات الأخيرة. وما كان شكوكاً أصبح حقيقة تتطلب منا حذراً أكثر.

– لم أفهم؟ الشاب كان يبدو عليه أنه خارج هذه الأرض على الرغم من بعض تصلبه الديني. شعرت به في عالم آخر، داخل المخدرات. كان يحدثني والسماعة معلقة في إحدى أذنيه.

– يبدو أن الأمر ليس بكل تلك البساطة. استدعاه الأمن الألماني وعرفوا منه أنه تلقى أوامر خاصة من جهة من الجهات باغتيالك، قبل أن تطلب منه الجهات نفسها الانسحاب من المعرض بسرعة.

– واااا إلى هذه الدرجة. أكاد لا أصدق.

– على كل حتى الآن لم تتضح الأمور بشكل نهائي، لكن الألمان فككوا خلية دوسلدورف القوية التي كانت مراقبة، بالخصوص أحد أئمتها الذي كان ينادي جهاراً بالقتل. على كل سأحيطك علماً بكل المستجدات. طبعاً لم آت من أجل هذا

فقط، ولكن من أجل اللوحة كما وعدتك. ربيكا ستكون تحت تصرفك. تأخرت قليلاً بسبب وضعية ابنتها المريضة.

ابتعد يونس مارينا قليلاً نحو البار في زاوية البيت، ليعود بكأسين من الويسكي. في الوقت الذي ظل فيه انتباه دافيد مشدوداً إلى اللوحة التي بدت أكثر إشراقاً مما كانت عليه.

– هل نظفتها؟

– جاء إلى هنا أحد أصدقاء لوليتا ونظفها بماء جاء به معه وحاول أن يختبر ألوانها. يبدو أنه يعرف جيداً هذا النوع من الفن. أعاد لها بعض ألقها. منذ سنوات وهي هنا خرساء، ولكنها كانت رفيقي مثل ذبابة الرئيس التي ظلت تؤنس عزلته. كلما رأيتها، شعرت أن العالم ببعض الخير.

أعاد إيتيان دافيد تأمل تفاصيل اللوحة بدقة من حين لآخر يحاول لمسها ولكنه بالكاد يتحسس ألوانها.

– تدري يا يونس، كلما جئتك شعرت بشيء غريب يشدني إلى هذه اللوحة. ناهيك عن حاسة الشم المتطورة. أشم عطراً يأتي من بعيد. صديقتي ربيكا متعددة الوظائف، نستغل طيبتها ومعرفتها في مجال تهريب الآثار واختبارها، وهي أيضا في الشرطة العلمية كما تعلم. ستصل بعد قليل وستساعدنا على فك أسرار هده اللوحة. ما زلت مصراً على أنها من فترة النهضة

الجديدة، في القرن السادس عشر. طلبت منها بعد إذن منك أن تأخذ عينة صغيرة من اللوحة، كما قالت، دون أن تؤذيها، ويمكنها على الأقل أن تحدد زمانها. يبدو أن كتلة خارجية وضعت على الكتلة الأصلية ولهذا تبدو الألوان ثقيلة بعض الشيء، كما تتصور ربيكا.

– ربيكا طيبة جداً. ممكن طبعاً لا يوجد أي مانع أبداً.

– أتمنى أن لا أكون قد أثقلت عليك.

– لا. أنت تقوم بواجبك وعملك لا أكثر.

عندما دخلت رِبيكا بعد ربع ساعة من وصول إيتيان، نزعت تلقائياً معطفها المثقل بمطر الشتاء، واتجهت نحوهما. حيتهما. ثم وضعت رواية عرش الشيطان بين يدي يونس مارينا:

– هل أثقل عليك بإهداء بسيط؟

– أكون سعيداً لذلك. ماذا أكتب لامرأة استثنائية مثلك يا ربيكا؟

– شكراً على كل حال، ولكني لا أعتقد أن فيّ ما يُثير.

– تعطين الإحساس بالألفة والأمان وهذا يكفي ليشع المرء من حوله نور لا حد له.

– من ذوقك. الشكر كله يعود لك لأنك تمنحنا فرصاً عظيمة

لننسى شطط اليومي القاتل. البارحة بقيت مع روايتك ثماني ساعات، ولم أنم إلا فجراً. أحسست حقيقة بثقل المعاناة. الذي يخيف في مثل هذه الحالات ليس الاختلاف، لكن الجهل الذي يقتل حتى دون حاجة إلى تبرير الفعل. العدمية هي لغة الإرهابي وإلا كيف نفسر الظلام الذي يعوم فيه. المهم أترككما. أحتاج إلى تفحص اللوحة.

ثم غرقت رِبيكا بسرعة في دقائق الألوان القادمة من بعيد. تلمست تفاصيلها بنعومة. ثم رجعت قليلاً إلى الوراء. تأملت اللوحة من جديد، طويلاً. تتقدم ثم ترجع مسجلة كل ملاحظاتها. تتقدم حتى لتكاد تلمسها وكأنها تتشممها، ثم تبتعد من جديد وكأنها غير معنية بها.

– رِبيكا خبيرة مهمة، كرر إيتيان دافيد. منذ أن رأت اللوحة لأول مرة، أحبتها وشعرت بأنها قريبة منها. إضافة إلى ذلك، أكتشف الآن أنها من قارئاتك المدمنات.

– قرأت شيئاً يقول إن روايتك الأخيرة مرشحة لجائزة السلام للمكتبيين الألمان التي تعطى في معرض فرانكفورت. لأنهم يرون في جهودك تطويراً للقيم الإنسانية والأفكار السلمية. لقد كتبوا عن روايتك الأخيرة كثيراً.

التفتت ربيكا نحوهم. قالت بثقة كبيرة كأنها تعرفه منذ

زمن بعيد.

- بعضهم يقول إنك هذه السنة أصبحت مرشحاً لنوبل؟ رواياتك تستحق.

ضحك.

- كثير. تعرفين رأيي في الموضوع يا ربيكا؟ نوبل أو أية جائزة هي مجرد صدفة لا أكثر. مثل هذه الأشياء من الأفضل أن لا نفكر فيها وأن نتركها تأتينا من تلقاء نفسها إن شاءت، وإذا لم تأت فلا ضرر، نكون قد كتبنا ما اشتهينا في زمن لم يعد يحفل كثيراً بأشواقنا الداخلية الأكثر نبلاً. التفكير في نوبل يصيبنا بمرضها الكبير الذي اسمه شلل المخ وحالة التثبت. مرض لا نشفى منه بسهولة. لي كم من الأصدقاء يعيشون الحالة بجنون. أحياناً أشتهي أن أحولهم إلى موضوع للكتابة.

- تستحق كل الخير. نصوصك جميلة ومؤثرة جداً. قرأت الحافة، وبقيت معلقة معها حتى النهاية، قرأت طبعاً عرش الشيطان، وقبلها ثلاثية كتاب الحشرات: طنين الذبابة وحرائق الفراشة وذئاب العقيد.

- معناه لم تتركي شيئاً.

- وسعيدة اليوم بدخولي إلى بيتك المتواضع للمرة الثانية.

نصنع أحياناً صوراً للكتاب غير حقيقية وعندما نكتشف دواخلهم نشعر بأنهم يشبهوننا فنزيد حباً لهم. أو بالعكس، نهرب بعيداً لكي لا نراهم أبداً بغية الحفاظ على علاقتنا بكتبهم.

كانت ربيكا في عز ألقها. كل حركاتها كانت تقربها من الفنانة على الشرطية. أنيقة وجميلة، ولو حملت عيناها بعض الحزن العميق الذي كثيراً ما يجعلها تتفادى أعين الآخرين. حيرة ما ترقص فيهما بشكل دائم. وهو يتأمل حديثها وحركاتها، لمع فجأة في عينيه وجه لوليتا الصافي من كل شيء، إلا من النور الهارب. لوليتا كانت شيئاً آخر.

مرة أخرى عاد به إيتيان دافيد من جديد إلى معرض فرانكفورت وكأنه تذكر أشياء لم يقلها قبل المغادرة. اقترب من يونس مارينا أكثر.

- ألم تغرِك فرانكفورت؟ لقد عادت إيفا غاضبة إلى فرانكفورت.

لم يغب عنه مطلقاً أنه لم تعد له أسرار، وأن كل ما يتعلق به، يصل بسهولة إلى الأجهزة الأمنية.

- أنت تعرف أن فرانكفورت جميلة ومريحة، ولو أنني في النهاية ظللت محجوزاً في النزل. قضيت وقتاً لطيفاً مع

مترجمتي إيفا، امرأة صلبة ومدهشة في عملها...

– ولوليتا طبعاً؟ هههه احذر سيتهمك أعداؤك بالاعتداء على القصر وستصبح مثل همبر همبر. قلت هذا وسأكرره عليك. والذين يطاردونك لن يرحموك ولن يرحموها أيضاً.

هو على يقين أن الأمن يعرف كل تفاصيله الحميمية. لم يستغرب كيف عرفوا. منذ زمن بعيد وحياته منتهكة مقابل حمايته من قتلة هم مجرد احتمال. يرفض أن يعيش بالإحساس الغريب لحيوان مطارد.

– لوليتا ليست ألمانية، ولكنها فرنسية من أصول جزائرية. لم أكن أعرف اسمها الحقيقي إلا لاحقاً. امرأة ساحرة. لأول مرة أشعر بقربها الغريب. استغربت امرأة عارضة أزياء، وتقرأ كتباً هي أقرب إلى السياسة من الأدب الوردي الذي كثيراً ما تغرق فيه العارضات. هل تريد أن أقول يا إيتيان إن حضورها آسر ومدهش. هذا ما أملكه. أن تحبك امرأة من أجل كتاب، هذا يعني أنك في عمق الأنثى. رهاني كان دائماً كيف أدخل عمقها بقوة بحيث أتماهى فيها.

– كما قلت، المعروف عن عارضات الأزياء أنهن لا يقرأن إلا الروايات الوردية، وهن أكثر ارتباطاً بالمجلات المصورة وكل ما هو سهل للاستهلاك.

- قرأت كل شيء لي. وهي في غاية الطيبة.

قاطعتهما رِبيكا وهي تتأمل تفاصيل اللوحة. في الوقت الذي قام فيه إيتيان دافيد للخروج.

- ممكن أقاطعكم؟ لا أعرف إذا ما كانت اللوحة أصلية أم لا، ولكنها مهمة جداً. كل شيء فيها يدل على أنها ليست عادية أبداً وتحتاج إلى بحث كبير في اللون، لأن ما لاحظته عليها كأن فوقها العديد من الألوان المتراكمة، ربما كانت ترميمات جاءت لاحقاً.

أخرجت من جيبها إبرة فارغة من الداخل:

- بعد إذنك، سأدخلها في الجزء الأكثر تراكماً للألوان لندرك من الألوان المتراكمة تاريخ بعضها. نأخذها إلى المخبر وهناك من هو متخصص لمعرفة ذلك حتى أتفادى تحريك اللوحة من مكانها. وستعرف تاريخها بكل تأكيد. إذا سمحت لنا. لكن يجب أن تحذر بقوة بعد سرقة اللوحة المنسوخة واسترجاعها. معناه هناك من ينتظرك في منتصف الطريق.

- المهم ألاّ تتضرر اللوحة. غالية علي لا لأنها مهمة تاريخياً ولكن لأنها ترسم جزءاً من مساري الحياتي. نزَلت في هذا البيت بنزولي في هذا المكان.

- أنا حريصة جداً على ألاّ يلحقها أي أذى. لا شيء يظهر.

حتى الثقب صغير جداً لأخذ عينة يمكن تحديد من خلالها كل التراكمات اللونية لأنقلها إلى المخبر. سأغلق الثقب بسهولة من ألوانه الأصلية.

- أثق في عملك.

في النهاية، وحتى يصبح عملها أسهل، أنزلت رِبيكا اللوحة، وضعتها على الطاولة الكبيرة التي تخترق المطبخ بطوله، كمن يقوم بعملية تشريحية لجسم حي. وبدأت تتحسسها برؤوس أصابعها لتجد المكان الأكثر انتفاخاً لتأخذ منه مادة قليلة للفحص. كان يقف عند رأسها.

- ربيكا، أرجو أن لا يقلقك وجودي. يمكنني أن أنسحب وأغرق في عملي.

قالت بابتسامة أشرقت بين شفتيها.

- لا أبداً. بالعكس، أنا لا أتحدث كثيراً، ولهذا، الحضور يعطيني دائماً نوعاً من الأمان. كان والدي هكذا

دائماً كنت أريده في كل عمل لأن رأيه كان سندي، وحضوره يمنحني شيئاً غريباً هو مزيج من الراحة واللذة والأمان. يوم فقدته شعرت بخسرانه الفادح. بل إن شيئاً من حياتي يسقط بشكل مفجع.

دارت من الجهة الثانية تماماً مثل جراحة بعد أن وضعت

على جبهتها النظارة المكبرة للشقوق والألوان. اقتربت أكثر، ثم أنزلت النظارة قليلاً على أنفها.

– أصبحت شبه متأكدة من أن هناك ترميمات كبيرة لحقت باللوحة ربما لأنها تنقلت من أمكنة كثيرة ومرت بأيد كثيرة أيضاً، ودمرت أصولها الأولى.

– هناك فكرة مجنونة تراودني لكتابة رواية عن هذه اللوحة بالذات؟ رحلة في أعماق التاريخ والألوان. بدأ الموضوع يشغلني منذ أن دخلت في حوار حولها مع دافيد ومع أصدقاء كثيرين.

– نصيحتي أن تؤمنها أولاً مهما كانت قيمتها. ولكنها لا تؤمن حتى يتم تحديد قيمتها الفعلية. ولهذا يجب عرضها على مختص ثان غيري لتستأنس أكثر. لي أصدقاء في المحيط يمكن أن يقوموا بذلك أفضل.

– على كل سأسافر قريباً لاموزيل[١٣٧] لأرى ما يمكن فعله بالنسبة لروايتي القادمة لأخرج من دائرة العنف التي تأسر كل ما أفعله. الكتابة هي أيضاً تسريب للعنف وإشراك الناس في هذا التسريب.

أحنت ربيكا رأسها أكثر تحاول لمس اللون وتنظر بالمكبر الزجاجي الذي كان في يديها إذا كان الثقب الصغير قد أغلق

١٣٧ La Moselle.

نهائياً. قربت المكبر الزجاجي. بدا لها كل شيء مسدوداً.

– كلامك صحيح يا سيد مارينا. شيء فيك يذكرني بوالدي. مثلك كانت تشغله التفاصيل الصغيرة التي كثيراً ما ركض وراءها. كان هشاً على الرغم من سطوته بحضوره فقط. لم أره يوماً يقول شيئاً في غير مكانه. حتى عندما كان ينزعج، يصمت ثم يلتفت نهائياً نحو عمله، ثم يغرق كلياً فيه. وهو ما كان يزعج أمي التي كانت مصابة باكتئاب دائم، وتفسر أي شيء يقوم به بشكل مقلوب.

– أي حظ عظيم. أبي لم أشبع منه. مات في الحرب التحريرية، ولهذا كبرتُ ولي كره شديد للحرب. دائماً أحمّلها مسؤولية الحرائق وتدمير العنصر البشري. فهي التعبير الأقصى عن الأنانيات البشرية القاتلة.

توقفت ربيكا وهي تمسح عرق وجهها. ثم التفتت نحو مارينا الذي كان لايزال متكئاً على الأريكة. نظرت إلى وجه كأنها تكتشفه للمرة الأولى.

– نشترك في هذه الصفة. أنا أيضاً كبرت بحقد ضد كل ما يجعل الناس يموتون بلا سبب ولا جدوى. حياة البشر غالية، ولا تعوض. بل إن مصائر كثيرة ظلت معلقة على المقتول. ربما كان هذا ما جعلني أحب روايتك الأخيرة. في لحظة من

اللحظات شعرت بنفسي أشبه بشيء ما في رواياتك. أو على الأقل وجدت نفسي فيما كتبته. المعاناة التي تحدثت عنها في نصوصك أبكتني. لماذا يستصغر الناس حظ الحياة؟ كلما قرأتك شعرت بوالدي ورائي يتابعني وأنا أقرأ. ومن حين لآخر يسألني عن رأيي فيما أقرأ.

- ماذا كان رأيه فيما تقرئين؟

- لم يسمحوا له بأن يكون له رأي. سرقوا منه الحياة.

- عذراً ربيكا.

- لا تعتذر يا سيدي. هذه هي الحياة، هذه هي دليلي الكبير في النهاية. مات والدي في جريمة تفجير قطار ضواحي باريس خط ب في سان ميشال[١٣٨]. مساء ٢٥ يوليو ١٩٩٥. يومها بقي والدي من أجلي، ورفض الذهاب إلى عطلته الصيفية لأنه كان يريدنا أن نقضي العطلة مع بعض. كانت الساعة تشير إلى حدود الخامسة والنصف مساء. ثماني ضحايا على عمق عشرين متراً تحت سطح الأرض، لن يكتب لهم الركوب مرة أخرى قطارات الضواحي. و١١٧ جريحاً. على رصيف خط ب. القنبلة كانت عبارة عن قنينة غاز مليئة بالمسامير والمواد المعدنية القاتلة، والبارود والكبريت الحارق، ووضعت تحت أحد الكراسي. وأصبحت الصدفة هي سيدة الجريمة. عرف شخصان

---

١٣٨ RER B Saint-Michel.

من واضعي القنبلة هما خالد قلقال، وبوعلام بن سعيد. آثار الأصابع فضحتهما.

- لا أدري ماذا أقول؟ أشعر أحياناً بخجل الانتماء لهؤلاء القتلة.

- ما ذنبك؟ ما ذنب تلك الأرض الطيبة أصلاً التي هي أولى ضحاياهم. لقد ارتسم اليوم في جرح الذاكرة نهائياً. في اليوم التالي للحادث، في ٢٦ يوليو مررت مع والدتي على مكان الجريمة، وبكيت طويلاً. شعرت فجأة كأن الحياة عبث غريب، ولم يعد لها أي معنى. تعرف عندما يموت لنا عزيز، نتمنى أن تتوقف الحياة نهائياً في اللحظة نفسها وأن ننظر في عيون الناس لنقول لهم مأساتنا القاسية، ونشركهم بالنظر وحده في آلامنا، ولو ليوم واحد لندرك فقط أننا لسنا وحيدين في الألم. ولكن للحياة نظامها.

- أفهم آلامك. المأساة أننا نتحول إلى حيوانات برية ضائعة في مواجهة مصائر القسوة.

- عادت الحياة إلى طبيعتها واستيقظت القطارات الباريسية باكراً لتحمل أثقالها من الفجر حتى آخر الليل. قالت لي أمي لتخفف من عزلتي وحزني: لو كان أحدنا تعرض لما تعرض له والدك لحزن كثيراً، ولقبل في النهاية بعودة الحياة

إلى نظامها. أكبر ضربة للقتلة هي استعادة الحياة لنظامها لأنهم لا يستطيعون شلها وهذا مقتلهم. يعني انتصار الحياة على الموت. بكيت. لم يكن كلام أمي قوياً لينسيني والدي.

شعر يونس مارينا بشيء من الفراغ يرتسم في أعماقه. لا يدري من الذي ذكره بعمي أحمد الشايب الذي وشم ذاكرته بقوة، الذي كان يصحح مقالاته، ومات في ظروف غامضة ولم يعثر له على قبر.

- إلى اليوم، في كل ذكرى، أمر على محطة القطار بحزن، مثل الذي يزور مقبرة. أجلس على كرسي محطة سان ميشيل قليلاً، أبكي في وحدتي وقهري، أحاول أن لا أحقد، ثم أنسحب. ينظر الناس إلي بعطف، حتى إن أحدهم، كان شيخاً كبيراً. قال لي: ابكِ يا ابنتي. ابكِ. الزمن غير رحيم. لا أعرف من هو مفقودك، لكني أعتقد أنه كان يملأ حياتك. يستحق يا ابنتي أن تبكيه. كان قلبي مثقلاً وجريحاً، ولكني شعرت براحة لسماع صوته. بعض الناس يعبرون إلى مشاغلهم دون أن يتوقفوا. مرة واحدة ضحكت في أعماقي. سألني أحد الإسْ- دِي- إفْ[١٣٩]، أي الذين لا مأوى لها، كما يسمونهم: هل هو أسى عاطفي يا ابنتي. قلت نعم. ضحك. ثم أضاف: ستكبرين وتنسينه عندما تجدين غيره. أنت وفية على الأقل ولست مثل الحمقاء زوجتي،

---

١٣٩ SDF Sans Domicile Fixe.

التي طردتني من بيتي عندما جف معين نقودي، وجاءت في اليوم نفسه برجل آخر ليعوضني في الفراش. كان أحسن مني في أدائه، أكيد. قالها ساخراً، بلكنة أهل جنوب فرنسا. لم أستطع مقاومة سخريته، فضحكت، وشعرت بوالدي يضحك معي أيضاً.

هز يونس مارينا رأسه بحزن.

– وماذا ربح القتلة في النهاية؟

– أسأل نفسي دوماً السؤال المقلق الذي لا أجد له جواباً مقنعاً، كلما انفصلت عما يحيط بي ودخلت في نفسي تساءلت: ماذا ربحوا بقتل رجل لم يكن عدواً لهم، بالأصل لم يكن عدواً لأي شخص. ظل يحمل جرحه حتى النهاية. جرحه كان موغلاً فيه. وكان يحاول أن يقلل من شططه بالحديث معي. عندما بدأ يشفى منه بالفعل وكان سعيداً، جاء من يوقف حياته؟ اليوم لم يبق الشيء الكثير من دمهم ونداءاتهم، سوى إشارة رخامية مدفونة بشكل شبه خفي في محطة الحادثة، تؤكد على حميمية الموت، كُتب عليها اسم الضحايا مع ملاحظة: حتى لا أحد ينسى. نادراً ما يلاحظ المسافرون وجودها باستثناء يوم ذكرى الحادثة حيث يضع بعض العابرين باقات ورود، يقفون قليلاً، ثم ينسحبون بانحناءة احترام وتقدير ومرارة الحزن

والعبث، ترتسم في العينين وعلى حركة الرأس التي ترسم شيئاً شبيهاً باليأس.

عاد مارينا بكأس الشاي ووضعه بجانب ربيكا.

– لم يبق الشيء الكثير في المكان. المحطة نفسها شكلها ثقيل. متاهة من المعابر التحتية والأدراج الميكانيكية وممرات بلا نهاية. مظلمة جداً، يخترقها بشكل دائم، تيار هوائي بارد ومليء بالرطوبة. بدأ تشغيلها في ١٩٨٨. قسم من المحطة أنشئ تحت نهر السين وهو ما يجعله رطباً وثقيلاً. وبسبب هذا العمق الذي يشبه قبراً فرعونياً، لم تصل فرق الإسعاف إلا بصعوبة. أقول أحياناً، في لحظات الحزن الأقصى، كان يمكن أن ينقذوهم لو التحقوا بالإسعافات بسرعة. لكن عندما نعرف مكونات القنبلة الفتاكة، قنينة الغاز المليئة بالمسامير وقطع الحديد السميكة، والبارود والكبريت، والأسمدة الكيماوية الحارقة، لا أعرف كيف يمكن أن يخرج الإنسان سالماً من جهنم مثل هذه، وحتى لو خرج سالماً كيف ستكون حياته في ظل الإعاقة. لهذا أشعر براحة أنه مات وانتهى أفضل من أن يقضي بقية العمر في مأساة قاسية.

– كأنه واحد من الأقدار التي علينا خوض الحرب ضدها باستماتة.

- سوء حظه أنه وُجِد في المكان الذي كان يُفترض أن لا يوجد فيه. الغريب أن دمه اختلط بالجزائريين وأن نصف أهله مدفونين هناك. هو أيضاً ولد بوهران وظل يحمل الجزائر جرحاً عميقاً. كان يقول لي دائماً: ما ذنبي إن ولدت وكبرت في تلك البلاد؟ التطرفات القاسية أفقدتنا فرصة البقاء مع بعض، وفتح صفحات حياتنا من جديد. المنظمة السرية[١٤٠] أسكنت رصاصة في رجله بقيت معه علامة تخط جسده. لأنه خرج مع والده رافضاً التقتيل الذي تبنته المنظمة السرية وقتها واليد الحمراء[١٤١]. نعرف أن التاريخ هو مجموعة من الصفحات التي لا تنزع ولكن يتم تأملها بقوة وبقسوة كبيرتين. ولو أن ذلك يؤلمنا، ولكن كيف نصنع سريراً لأبنائنا خارج أحقادنا المميتة. تطرف أخطأه بالصدفة، وظل يحمله طوال حياته في جرح رجله، وتطرف آخر أتى على ما تبقى فيه من نبض. في الحياة عبث غريب.

- تعرفين يا ربيكا، ظننتك في البداية روسية، لا أعرف السبب ربما كانت هيئتك.

- أنت لم تخطئ. علاقتي بروسيا من أمي كارينا، هي من أورثني أدب بلادها وفنونه. أمي كانت هي الزوجة الثانية

---

١٤٠ المنظمة العسكرية السرية OAS Organisation Armée secrète.

١٤١ La Main rouge.

لوالدي الذي ظل حزيناً على فقدان زوجته، إذ لم يصدق أبداً كيف سرقتها الأقدار منه. كانت رهانه في كل لوحاته. ظل وجهها يتكرر في كل لوحاته. ذهابها كان قاسياً، لأنها كانت صوته لمحاورة الماضي. وجد جزءاً من ضالته فيه. عندما تعرف على أمي خف ثقل الذاكرة. من صداقة، إلى حب إلى زواج. كارينا مترجمة معروفة، تتقن سبع لغات بما فيها العربية. تعرف ما الذي أثارني يومها وأنا أرافق أمي إلى مكان الحادث؟ حتى موت والدي قبلته كجزء من ظلم الحياة القاسية التي لا تستشيرنا عندما تريد. اندهشت فقط من شباب الشرطة العلمية الذين كانوا يشتغلون على التفاصيل الغريبة والدقيقة لتحديد يد المجرم. والدي علمني الفن، وكان يقول إن الفن رهان به نحيا عندما تسد كل الأبواب. لم أكن فنانة مثل أبي وأمي، ولكني وجدت ضالتي في الشرطة العلمية وانخرطت في تكوين خاص لمطاردة اللوحات المسروقة واقتفاء الملامس على كل شيء. أنا سعيدة بذلك. تركت وظائفي الصغيرة السابقة، بما فيها السنة الثالثة طب التي درستها إرضاء لأمي.

- برافو.

اقتربت ربيكا مرة أخرى من زاوية اللوحة اليمنى. انحنت قليلاً ثم قربت المكبر أكثر من عينيها. تأملت دقائق اللوحة،

بالخصوص الزاوية التي أخذت منها العينة. ثم ابتعدت خطوة إلى الوراء وتأملتها من جديد. شعرت بأن كل شيء عاد إلى وضعه الطبيعي. ثم رشفت قليلاً من الشاي.

– والدي بقي حسرة في قلبي لأن أشياء كثيرة كنت أنوي أن أقولها له عندما أجد وقتاً. كان رجلاً طيباً ولم أجد الوقت للشبع منه. ربما لأني كنت آخر جنونه الجميل مع أمي. الصدفة أحياناً قاتلة وقاسية.

– الحياة هي مملكة الصدف الغريبة. كل ما ننشئه في الحياة مصدره صدفة: الحب، اللقاءات؟ الزواج؟ لا ندري أي قدر وضع شخصاً في طريقنا لكي نقاسمه الحياة، وهو ما لم نفعله مع غيره؟ في الشارع؟ صدف الموت والحياة، ننجو حيث كان يجب أن نموت، ويموت غيرنا حيث كان يفترض أن ينجو بسهولة. هذا هو سحر الحياة أيضاً.

– معك حق.

– هذه اللوحة التي بين يديك، هي بنت الصدفة. لولا انكسار رِجْل الطاولة، ما توصَّلتُ إلى كشف سرها. وربما كنت رميت الطاولة وانتهى كل شيء.

– أنت لم تشترها؟

– اشتريتها بأرخص مما تتصورين قبل ثلاثين سنة، من

سوق شعبية في أوفيرن سور واز[١٤٢]، لكن من داخل الحقول القديمة في اليوم الشعبي الذي ينزل فيه الفلاحون نحو السوق المفتوحة التي يصنعونها بممتلكاتهم. كنت أبحث عن طاولة بها رائحة العتيق. وأنا أجوب في سوق القرية الذي يعقد مرة في الشهر حيث يُخرج الناس ممتلكاتهم القديمة لتغييرها أو بيعها، وقعت عيني على طاولة قديمة شممت فيها رائحة جدتي التي كنت أرافقها إلى السوق عندما كنت صغيراً. في البداية ظننتها من الزبوج أي شجر الزيتون المتوحش، قبل أن أعرف مع الزمن أنها من شجر الصنوبر الحلبي المقاوم لسلطان الزمن. تأملت كل جوانبها، أطرافها، خشبها، تحتها المغرّف مثل خشب العود، والمدعم بخشب يحمي متانته على الجانبين. قال لي صاحب الطاولة وهو أحد فلاحي المنطقة: أنت تشتري كنزاً. ضحكت وقلت: أي حظ هذا الصباح؟ أضاف: لا تضحك، أنا جاد. يكفي أن تطليها بزيت الخشب لتصبح جديدة في رونقها وكأنها خرجت للتو من مصنع. ثم أكد لي أنّ أحد أجداده اشتراها من الحدود الإيطالية الفرنسية، وجرها حتى هذه المنطقة الفلاحية، وبعضهم يقول جاء بها من لاموزيل، مسقط رأس جزء كبير من العائلة؟ لا أدري مدى صدق الحكاية، لكني صدقتها بلا تردد لأن الطاولة أعجبتني.

---

١٤٢ Auvernes.

أضاف الشيخ مدافعاً عن سلعته: الطاولة ظلت مقاومة للزمن. لم تنكسر ولم ترمم في حياة جدي ووالدي وفي حياتي. عندها رِجْل واحدة حساسة قليلاً، لكننا استطعنا تدعيمها من تحت بقطعة خشب مساندة لها لكي لا تنكسر. ولكنك لن تضع عليها أطنان الإسمنت، قال الفلاح الذي يشبه زوربا، ضاحكاً، بلغته الثقيلة التي بها رائحة الخشب. اشتريتها ليس فقط لأن الفلاح أقنعني بها ولكن لأن الطاولة أعجبتني منذ اللحظة الأولى. وضعتها في وسط الصالون. ذات مرة كنت أنظف البيت وأخرج بعض أثقاله القديمة، وأضع الأثقال الزائدة في البيت على الطاولة للتخلص منها. نسيت هشاشة الرجل الرابعة التي لم تتحمل ثقل الكتب، فانكسرت وانهارت الطاولة من جهة الرجل الحساسة. مما اضطرني إلى أن أقلب الطاولة التي انكسر جانبها التحتي أيضاً حيث تضررت اللوحة الواقية مبرزة عن خيش كثيف في الجزء المغرّف قليلاً. بدأت أخلص الطاولة من خيشها الذي كانت به رائحة الدوم. في لحظة من اللحظات فكرت أن أرمي بكل شيء وأتخلص من طاولة لم تعد تصلح لشيء. ولكني تذكرت إصرار جدتي التي لا ترمي أي شيء من أشيائها القديمة، وتحاول أن ترممها حتى النهاية. العتيق يورث الألفة ولو برائحته، كانت تقول. حاولت أن أتخلص من

خشبها المكسور وأبحث عن قطعة خشب أقوى لإسنادها من تحت. فجأة وأنا أسحب الخيش الذي بها، أخرجت كتلة ملفوفة في قماش واقٍ بلون أسود به رائحة الكافور بدهشة فتحته إذ لم أكن أتصور أن أجد ذلك في الطاولة. كانت تتخفى فيه لوحة بكل غبارها. حاولت تنظيفها دون أن أمسّها، فتبدت بشكل واضح. في البداية تأملتها جيداً. شككت في لوحة كنت قد رأيتها في اللوفر، ذهبت نحوها وقارنت بين اللوحة ولوحات دولاتور في المتحف. وجدتها شبيهة وتأكد لي وقتها أن التقليد كان رفيعاً وممتازاً ولكن أقل إضاءة من دولاتور وأكثر عتمة من كرافاج[١٤٣]. هي خليط من النور والظلمة. كانت حالتها جيدة باستثناء بعض التآكل على الأطراف لم يكن مضراً. رممتها عند صديق متخصص في الترميمات يعمل أيضاً في قسم الترميمات في الأرشيف الوطني. هو أيضاً وجد التقليد ناجحاً. نزع عنها كل الغبار الذي التصق بها طويلاً. ووضع لها إطاراً لحماية جوانبها التي كانت قد تآكلت. لوحة الصدفة، هذه هي قصتها. عندما علقتها على الحائط أصبحت أليفي اليومي. كان المنفى قد بدأ يأكل ما تبقى من طفولتي، وكنت أجد فيها شيئاً غريباً يربطني بالحياة وبوطني. تذكرت الرايس بابانا، وهو رئيسنا الأول الذي سجن بعد الاستقلال

١٤٣ Caravage.

الذي منحته ألفة ذبابة وُجدت بالصدفة في ظلمة الزنزانة، وطنينها المتواصل، الكثير من الرغبة في الحياة والمقاومة. أسميتها الذبابة لأن لوحتي كانت تمنحني الإحساس نفسه.

– رأيي أن تعرضها على خبير حقيقي لأن النصابين في هذا المجال كثر. يمكنني أن أساعدك دون أن تنقل اللوحة من مكانها. نأخذ فقط بعض عناصرها الخارجية دون أن تتضرر اللوحة، وإذا اتضحت قيمتها النهائية، من الأفضل أن تضعها في مكان أكثر أمنا وتضع لها وثيقة ملكية رسمية. جميل أنك سجلتها ورسمت وجودها، سواء كانت حقيقية أو تقليداً، لكن الموثق لا يكفي. اللوحة لا تحتاج إلى أكثر من بعض الترميم الجاد لتصبح جميلة. هناك بعض التلف الذي لحق بجوانبها، ولكنه ليس مؤذياً. المشكلة الوحيدة هي أن هناك الحشرات تتلذذ بقضم الخشب والألوان، ويمكن أن تؤذيها على الأمد البعيد.

– كان يمكن أن تظل العمر كله حبيسة الطاولة، في جزئها التحتي والمخفي. وكان يمكن أن لا أذهب في ذلك اليوم إلى سوق العتيق لولا تذكري جدتي التي كانت مولعة بكل ما هو قديم. علمتني كيف أشتري القديم فحسب، ولكن أيضاً أن أتنفس عطره وروائحه وذاكرته. كنت أجد متعة خاصة للخروج معها.

كل بيتها مؤثث بالقديم. كل شيء فيه كان يشبهها.

- ربما كنت تنام على كنز كبير. يجب أن تعرضها على مختص مأمون ليحدد لك تاريخها بالضبط. أنا أعرف بعض المرممين في المدينة، لكن من الأفضل أن ترى أيضاً ذلك في محيطك للتأكد. لدينا مخبر صغير في مركز الشرطة، ولكنه ليس كافياً. أرجو أن تأخذ المسألة بجدية أكثر لأنها في غاية الأهمية. الذين حاولوا سرقة اللوحة لم يكونوا فقط سارقين عاديين ولا أذكياء ولكني أشعر كأنهم كانوا مستعملين من آخرين يعرفون قيمة ما تملك؟ لا أملك أي دليل لذلك ولكنه شعور عميق.

- ممتن لطيبتك. شكراً رِبيكا.

- أتمنى أن لا أكون قد سرقت كل وقتك.

ثم التفتت آلياً نحو صورة بالألوان الجميلة، معلقة في عرض الحائط، في مدخل الصالون. لوليتا وهي تدور مثل راقصة باليه وسط عرس من الألوان المذهلة، في لباس جميل عمق قامتها المصقولة وقوة شخصيتها وأناقة اللباس الذي كان يغطي جزءاً من جسدها، ويكشف عن الجزء الفوقي من الصدر.

- لوليتا أفترض.

– نعم. في الفاشن السنوي، لعرض لوس أنجليس.

– مدهشة.

– ستصل اليوم ليلاً من سفرتها الطويلة.

– من جاكرتا؟

– كان من المفروض. ولكن برنامجها تغير جذرياً. تشتغل كثيراً. لا ستصل عن طريق طوكيو. لأن رحلتها الأخيرة مرتبطة بشتاء طوكيو أيضاً. لهم أربعة عروض كبيرة يقدمون فيها جديدهم الشتوي. هي الآن معلقة بين السماء والأرض.

– أحب الأناقة. أتمنى أن أحضر يوماً عروضها. على كل أراها في المجلات كثيراً. امرأة ساحرة. أضطر للذهاب الآن. اللوحة جميلة. المؤكد أنك سمعت أنها قريبة من دولاتور؟ ومن مدرسة العتمة. إذا ثبت أنها من ذلك العصر ستكون قد نمت زمناً طويلاً على كنز.

– سمعت ذلك. بل بحثت فيه وتأكدت لي هذه القرابة. لكن الذين يعرفون دولاتور من المختصين يقولون إن كل لوحاته هي ما هو موجود في اللوفر لأنه لم يكن غزير الإنتاج مثل كرفاج مثلاً. لكني سمعت أيضاً من محيطي أن هذه اللوحة مجرد تقليد معاصر لمدرسة العتمة [١٤٤] التي تبني مشروعها على منجز كرفاج [١٤٥]. وأن بها الكثير من النقائص مما يثبت

١٤٤ Le Ténébrisme.

١٤٥ Caravage.

أنها مجرد نسخ لأصل ضائع.

- حتى في هذه الحالة لها قيمة كبيرة إذا كان تاريخ النسخ قديماً. لا يوجد حل آخر سوى المرور عبر الاختبار العلمي. وحده القادر على تفكيك سرها.

نظرت إلى الساعة.

- واو لا أدري كيف مر الوقت بسرعة. أتركك تحضر نفسك لاستقبال لوليتا. تعرف أين تجدني، إذا احتجت إلى أي شيء.

ثم أعادت اللوحة إلى مكانها. رتبتها بشكل جيد على الحائط.

- ارتاحي قليلاً، تعبتِ كثيراً. لم تنهي شايك.

- عندما نشتغل ننسى أنفسنا. أنا مضطرة للذهاب. أمامي بقية يوم لن تنتهي. سآخذ كل هذه العناصر التي أخذتها من اللوحة وأسلمها للمخبر قبل أن يغلق أبوابه، ثم أعود إلى مركز الشرطة لتتبع أوضاع لم تعد تبشر بأي خير. على كل، أول ما تظهر النتائج سأخبرك عنها، أو أمر عليك لأشرح لك التفاصيل.

- سعدت لحضورك ربيكا.

ثم انسحبت وهي تغلق الباب وراءها مثل نسمة هاربة. لم تحدث أي صوت.

-٣-

كانت تمطر من وراء زجاج المطار.

يمر الزمن ثقيلاً وهو يتسلى بهبوط ونـزول الطائرات الكثيفين.

رفع يونس مارينا رأسه قليلاً متخلصاً من حروف الكتاب الذي كان بين يديه. نظر إلى التوقيت. الساعات الحائطية في مطار شارل ديغول ترسم توقيتاً مختلفاً، بحسب العواصم العالمية.على الرغم من الليل، فقد كانت حركة المسافرين والمستقبلين كبيرة. معظم الرحلات الطويلة تصل ليلاً أو فجراً. شعر بدفء طفولي وبعطر يأتي من بعيد. لم يبد عليه أي قلق. فقد كان منهمكاً في كتاب لوليتا لنابوكوف، كأنه يقرأه للمرة الأولى. ولا يدري أصلاً لماذا اختاره، بينما هناك كومة من النصوص الجديدة التي اختارها وتنتظر القراءة. وهو يقرأ لوليتا من جديد، لم يتخلص من الرغبة في البحث عن ملامح لوليتا التي سرقتها الأسفار التي لم تتوقف منذ أن عرفها، فلا يجد إلا ملامح مبهمة يشعر بها ولكنه لا يراها. شعر بشيء غريب لم يستطع لجمه.

- «يبدو أن المجانين هم أهم من يؤثث ذاكراتنا المضيئة

وليس العقلاء. كان قلب لوليتا الطفولي واسعاً، وكان همبر همبر ضيقاً كعيني مهزوم أمام حياة هي في النهاية مجرد نثار.»

كان ينتظر بسعادة كبيرة.

ثلاث ساعات انتظار. لا يعلم لماذا جاء مبكراً إلى المطار وهو يدرك أن الطائرة، أية طائرة، يمكن أن تتأخر، لكنها لن تصل أبداً قبل وقتها. وإذا فعلت فلا يتجاوز ذلك دقائق، بالخصوص بالنسبة للرحلات الطويلة.

شرب قهوة في الطابق العلوي. تمنى سيجارة ولكن كان عليه أن يجد مكاناً يسمح بذلك داخل المطار، وهو منعه من التدخين

عندما وصل إلى الصفحات الأخيرة من لوليتا، ارتسمت في ذهنه حيرة سرعان ما تبدّت على وجهه. كيف ننتقل من الحب الأقصى إلى الجريمة البدائية بهذه الطريقة البشعة؟ توقف للحظة في الفصل XXXV في حدود الساعة الثامنة صباحاً غادرت فندق أنسومنيا وتهت في شوارع باركينغتن. كنت مسكوناً بخوف فشل مهمتي لحظة التنفيذ. الخوف من أن يكون خرطوش الرصاص قد مسته الرطوبة طوال أسبوع عدم الاستعمال. فعوضته بخرطوش آخر جديد[١٤٦]. استغرب يونس

١٤٦ Rhumerie.

مارينا من هذه الدقة التي يفكر فيها القاتل غير المحترف ولا يترك أي شيء للصدفة. هذا الخوف الغريب من جريمة موصوفة سيدها ليست الكراهية ولكن الحب المرضي. ثم تدارك بسرعة راسماً ابتسامة سخرية سبقته: هل هناك حب صحّي؟ كل حب هو مرضي بامتياز، وإلا سيصبح ألفة اعتيادية. عندما نحب، نصبح مرضى بمن نحب؟ نحب ما يحب، ونكره ما يكره، وفوق هذا كله، علينا أن نسيّر شخصيتنا التي امتلكناها طوال رحلتنا الحياتية لأنها تظل فينا، وربما هي من يفجر فينا في النهاية كل شيء. ننتفي أمام حالة لا سلطان لنا عليها إلا الجنون.

عندما لامست عينا يونس مارينا الصفحات الأخيرة، شعر بأن ما كان يفترض أن يحدث بشكل شبه قدري، قد حدث، وكان دموياً وقاسياً. من كان يجب أن ينتهي استسلم نهائياً، ومن قاوم وجد نفسه وجهاً لوجه أمام قدر لم يفكر فيه أبداً. أغلق الكتاب نهائياً على نداءات لم يكن أحد يسمعها إلا هو: أغرب عن وجهي. حشرج كلار كيلتي، وهو يبصق الدم. وأنا في حالة هسترية، رأيته غارقاً في دمه، ولكنه لايزال يتحرك ويبحث عن مخبأ في سريره، متخفياً وراء فوضى الأغطية. أطلقت النار عليه مرة أخرى ببرودة. فانهار إلى الوراء لترتسم على فمه فقاعة وردية انتفخت حتى انفجرت نهائياً. ضيّعت

لحظتها و لثوان معدودات، أية علاقة بالمحيط. لا شيء كان يجمعني مع الغير. كل شيء أصبح أسود[١٤٧].

لوليتا... لا شيء سوى الجريمة الموصوفة حيث احتل المسدس مكان القلم. ولم ير ما يستثيره في هذه الشخصية التي لا يعرف أبداً كيف سكنته، وأصبحت جزءاً من يومياته؟ كلما عبر العتبة الرخامية في بيته، تأمل صورتها في الصالون طويلاً. يمسح بعينيه كل تفاصيلها القلقة. تتدحرج في أعماقه الكلمات الهاربة: كانت هنا، ثم خرجت ولم تعد. من كانت لوليتا؟ نوة؟ رذاذ؟ لالو؟ La louve؟ لالَّهم؟ طفلة؟ ملاك؟ شيطان؟ عاقلة؟ مجنونة؟ عشّاقة ملاّلة؟ مجنونة وهبلة؟ هي ذلك كله مجتمعاً. لم يكن يتصور أبداً أن يأتي يوم ويتعلق بها بهذا الشكل الغريب. حتى عندما قال لها في مساء من المساءات الخريفية الباردة. أحبك. خرجت الكلمة منه مشتعلة ولم يكن مجبراً على قولها، هي لم تطلبها منه. صمتت قليلاً، ثم ردت كالمنتصر: – «أعتقد حبيبي أن ما بيننا هو أكثر من الحب. عقد ووعد بأن تكون حبيبي وأبي. هل تستطيع يا عمري؟ أشتهي أن أجد فيك كل ما فقدته في هذه الدنيا، وتحول إلى خواء قاس في حياتي.» صمت ليلتها طويلا لأن كل إجاباته تعطّلت. بدت له شروطها قاسية. غابت عنه

---

١٤٧ Les deux Magots.

أسبوعاً بكامله وهي تترك له وصيتها الحزينة: – «انتظرت أن تأخذني ليلتها بالأحضان، وتضمّني إليك طويلاً وتقول: نعم أنا حبيبك، سأجعل كل حواسي الحية بين يديك.» كان يشتهي أن يقول لها أيضاً وهي تعاتبه بلذة ارتسمت في عينيها محللة بالحزن: – «أن تحب معناه أن تراهن على أغلى شيء فيك، عواطفك ونبلك وحماقاتك، وربما حريتك. أن تكون أباً، يعني أن تنسى أيضاً أنك عشيق امرأة الصدفة التي جاءت وتعرت أمامك ورأيت جروحها التي نزفت طويلاً وأنت لم تكن إلا لغة هاربة». بدل أن تقول هذا كله، فضّلت البكاء صمتاً، والتردد في قبول اللحظة التي وضعتهما في المسالك القلقة نفسها. غابت عشرة أيام بانكسار بدا واضحاً في عينيها، لتعود ثانية ولم تسأله عن أي شيء. دخلت إلى البيت بهدوء مثل خائف من أن يوقظ المرأى والنيام في مستشفى هادئ. فجأة عندما تخطّت العتبة، بدل أن تلتفت نحو لوحة الذبابة كما تعودت أن تفعل دائماً، وقع نظرها على صورة امرأة داخل إطار، كانت غارقة في عرس من الألوان. أحسّت أنها تشبهها. كانت هي في لباس حوّلها إلى أكثر من عروس. ملاك في عز عنفوانه. ارتمت بين ذراعيه وقالت بسعادة غمرت عينيها: – «انس كل شيء. نحن مع بعض، وهذا يكفي. لا أريد أن أرجع إلى القسوة التي

فرقتنا بغباوة. لست بغباء لوليتا. لا أحبها، ربما عطفت على بؤسها الكبير. أنا أذكى منها بما لا يقاس. أنت لم تسألني عن قصتي. ولا تعرف منها إلا بعض التفاصيل الصغيرة. حسناً فعلت، لأنك لو بحثت كثيراً في التفاصيل، كنتُ تركتك بلا تردد واعتبرتك في صورة والدي. أمي كانت غيرتها مرضية مني. لم أكن أعني لها الشيء الكثير. كنت منافستها في والدي فقط لأني كنت مرتبطة به بقوة. كانت تكرر: لا تنسي يا مجنونة أنه والدك. كانت تظنني أني أسرق منها زوجها الذي كان يدلعني كثيراً أكثر من كل إخوتي. أنام في حجره وفي فراشه. كان يركبني جنون كبير من حين لآخر. أجد لذة كبيرة عندما أفصل بينه وبين أمي في الفراش وأنام بينهما، ولهذا ظللت صغيرة في تصرفاتي، ولكن ليس في عقلي. هو صراع دائم بين عقلي وجسدي الذي كبر بسرعة. وكانت أمي تخاف من تفتحه.

يضحك يونس مارينا في أعماقه من جنونه. يراها وهي في الحمام، تخرج عطورها وهي تكرر مثل طفلة صغيرة تتسلى بفوضى اللعب: أنا أحب خلطة فوزية في العطور. جميلة ومدهشة. عطر أجنبي وعطران من المسك العربي والهندي. لا أحد يعرف قدرات تأثيره على جسد المرأة والرجل في الآن نفسه. عطرها تصنعه بيديها.»

لوليتا... أية صدفة وضعتك في صلب قدري؟ تمتم وهو يعبر بخطوات وئيدة بهو المطار الواسع تحت همهمات الناس الذين كانوا يستقبلون ويودعون.

كان الوقت مازال يسير بوتيرة ثقيلة، مملة إلى درجة الملل. كأنه جُمِّد في لحظة كانت ترفض أن تمر، بإصرار لوليتا المجنون نفسه. كأن كل شيء ثبت في مكانه. يتراءى له أحياناً حتى البشر والمحلات عبارة عن صور ثابتة.

فجأة تنسحب كل الظلال التي في رأسه، وتتضح له الرؤية شيئاً فشيئاً، عندما وقف تحت اللوح الإلكتروني الذي كتب عليه بخط ملون يغلب عليه الأحمر: وصول طائرة الخطوط الجوية الفرنسية، رحلة على متن A 380 والقادمة من مطار طوكيو ناريتا.

شعر برعشة غريبة في قلبه، كأنه أول موعد مع أول امرأة.

لم يغير من عاداته القديمة التي استيقظت فجأة. في أيام المنفى الأولى، كان يأتي إلى المطار ويتأمل الناس القادمين من الجزائر عن طريق مطار أورلي الجنوبي[١٤٨]. لا يسأل أحداً. يتأمل الوجوه المتعبة من ملامحها، وأحزانها المرتحلة في عينيها، ثم يعود إلى بيته بشعور غريب هو مزيج من السعادة والألم الذي يأتي من جرح بعيد في أعماقه.

---

١٤٨ Orly Sud.

تمتمَ وكأن وجهها كان أمامه مثل تلك الليلة التي عادت إليه بكل عنفوانها الطفولي. كانت مجنونة في كل شيء. قال لها نسافر مع بعض. أجابت: حبيبي تريث قليلاً. سنخطط لذلك. الليلة أولاً لنا، وبعدها سنرى. ربي ورحمته. ألم تقل إنه علينا أن نكون براغماتيين مع الحياة؟ نعم. قلت ذلك. أجاب بحسرة، قبل أن يواصل وهو يتأمل عينيها الصافيتين كماء الصخور الجبلية:

- «لا تدرين كم أنا معلق بالأسفار؟ في أيام منفاي الأولى، كنت أذهب للمطارات فقط لأشم رائحة القادمين من أرضي المسروقة. أقف طويلاً بلا جدوى ولا معنى لمن يراني، لكن معناي كان متخفياً في قلبي وكل حواسي المرتبكة. أحب الانتظار في المطارات، وأحب أيضاً من ينتظرني عندما أصل إلى مطار من المطارات. السفر غربة ممزوجة بخوف. مغامرة أحياناً، لا نعرف مسبقاً نتائجها ولكننا نفترض دائماً أننا نصل بخير لكي نتحمل قسوة السفر. يتحول الوصول إلى ولادة جديدة. نتساءل ونحن ندخل المدينة للمرة الأولى، كيف سنبدأ خطواتنا الأولى في الأحياء والفنادق الغريبة؟ نتمنى فجأة أن نرى من نحب من وراء الزجاج الثقيل الذي يفصلنا عنه للحظات، ونحن تقف أمام شرطة الحدود. من حين لآخر نرفع

رأسنا تجاه المرأة التي تنتظرنا من الجهة الأخرى بابتسامات يصعب كتمانها. ننغمس في أسئلة الشرطي ولكننا هناك، حيث لا أحد يعرف، وحيث تنتفي اللغة، بالقرب من المرأة التي تنتظر من وراء الزجاج الثقيل. يجتاحنا الحلم الجميل وندخل في تفصيلات الليلة الأولى التي تكون الأجمل والأعنف شوقاً وجنوناً.»

فكر منذ أن تخطى عتبة الأبواب الزجاجية للمطار، أن لا يعود بلوليتا إلى البيت أبداً إذا لم تكن متعبة. سيذهبان إلى أجمل بار تحبه ولو أنها لا تشرب إلا عندما يكون مزاجها مستوياً. في شوق حارق لأن يقول لها هذه المرة: أحبك وأفتقدك يا مهبولة. في هذا الخواء الذي لم يعد فيه ما يثير الشهية. لم يبق إلا الحب والكتابة، ربما كان ذلك رهانه الأخير ليجعل من الحياة حلماً مستمراً. سيشربان قليلاً كما تشتهي أن تقول دائماً في البدايات. ليصبح القليل كثيراً، والكثير أكثر، والأكثر جنوناً قبل أن يغيب فجأة عدّ الكؤوس، ويأتي صوتها من وراء غيمة السكر: حبيبي... أينك؟ إني لا أرى سوى ضباب الدهشة الذي يغيبك ويظهرك مثلما يريد ووقت ما يشتهي.

بدأ القادمون من طوكيو يخرجون. بعضهم وجوههم صفراء سرعان ما تعود لها حمرتها الطبيعية عندما تشاهد عن بعد

من ينتظرها، بعضهم الآخر يتعانقون وينسون أنهم قضوا ١٢ ساعة معلقين بين السماء والأرض، ثم ينسحبون بابتسامات هاربة.

كان يونس مارينا يحمل في يده وردتين، حمراء وبيضاء. تحب لوليتا كثيراً أن يفكر رجل فيها بالورد والعطر والابتسامة والحب.

عندما عانقها، بقيت لحظة طويلة ملتصقة به، جامدة كأنها تحاول أن تصدق أن ما كان يحدث أمامها حقيقة وليس مجرد وهم جميل. تمتمت بصوت متعب:

– دعني أصدق أولاً فقط أني هنا، وبين يديك، وأني لست أحلم. إلى اليوم لا أرى ما عشناه إلا مثل حلم هارب. لا أتذكر شيئاً سوى غيمة هاربة. لا تتخلص من الكتب حتى في المطار؟

– لا شيء سوى أحمقين مثل لوليتا وهمبر همبر.

ثم قبّلها ووضع في عمق يدها الوردة الحمراء، والبيضاء.

– شكراً حبيبي.

قالت وهي تحاول أن تكتم سعادتها:

– ها أنا ذي في باريس ثانية، كما اشتهيت، وبين يدي من أحب؟ هل هناك حظ في الدنيا أجمل من هذا؟

كان بريق لوليتا يأسره. في عينيها سحر لا يُقاوَم.

تمتمت في أذنيه وهي تكتم ضحكتها بصعوبة.

- «يا يماك، لو كان تعرف واش راح ندير فيك الليلة، كنت هربت مني هههه».

شعر بحرارة جسدها وبحواسه تستيقظ فجأة بعد نوم طويل. رآها في عمق باريس وفي مقاهيها وباراتها حتى قبل أن يدخلا أنفاق المدينة التي اشتهى. مسحت على وجهه بأناملها الرقيقة. شعر بكل نعومة العالم تغطيه. أغمض عينيه لكي يمتلئ بها أكثر.

خرجا من المطار، واتجها نحو التاكسي الباريسي.

كان المطر يسقط. فتحت لوليتا ذراعيها كمن يستقبل عالماً جميلاً وجديداً.

تنفست عميقاً:

- الله... ما أوسع هذا العالم، وما أضيقه. أشعر كأني في قارة.

- الحرية عمري، تعطي للفضاء اتساعاً بلا حدود. تحول الغرفة الصغيرة إلى سماء، والحلم إلى ضياء.

ثم اندفنا في عمق التاكسي الباريسي.

أسندت رأسها على صدره. تدفق شعرها على كتفه الأيسر

شلالاً من الأضواء الملونة. تهدهدها هزات السيارة. تغفو. تغمغم...

- يـاااااه كم افتقدك يا يونس... كأني كنت في قيامة أخرى... الآن فقط يمكنني أن أصدق أني أصبحت هنا، في مدينة باريس، وبين يديك. اشتهيت ذلك وكان علي أن أنسى كل أسئلتي المعلقة لأكون معك الليلة. لا شيء يعوض هذا الإحساس الجميل والمدهش.

- حتى وأنا أنتظر لم أكن متأكداً من أنك ستأتين، بالخصوص عندما تأخرت الطائرة.

- أنت لا تعرفني إذاً.

- لأني أعرف تقلبات مزاجك وجنونك بالقدر الكافي.

- لم أستأذن أحداً سوى قلبي. وضعت كل شيء ورائي. لم أعد أرى شيئاً غيرك. تصور، في الطائرة، تخيلت كل الحماقات التي ارتكبتها معك، والتي يمكن أن أرتكبها. لم أفكر في شيء آخر غيرك. لا تسألني عن هبلي لأني سأفقد عقلي.

صمتت قليلاً قبل أن يسألها:

- هل تشتهين مكاناً معيناً للسهر الليلة؟

- نذهب أينما شئت. المهم أن أكون معك ولك. أنا جاية من طوكيو وبي رغبة في أن أجدك كما أشتهيك. أكره البيوت،

حتى أغلق أمامك كل إمكانية للهرب إلى بيتك الآن على الأقل، أو بيت أحد أصدقائك، أو حتى النزل. تعرف أني أصاب بالكلوستروفوبيا كلما وجدت نفسي في مكان مغلق بما في ذلك البيوت والمصاعد. في رأسي خمسون ألف حماقة جميلة، أريد تحقيقها، أولاها حماقة البقاء معك دون التفكير في أي شيء آخر.

في السيارة، بدا له وجهها صافياً ومشعاً مليئاً بألوان باريس الليلية التي كانت تنعكس عليها بقوة. لم تكن لوليتا تفكر كثيراً، ولكن سعادتها كانت كسعادة طفل يكتشف عالماً جميلاً للمرة الأولى في حياته.

– أين تشتهين أن نذهب؟

– قلت لك يا مهبول لا تسألني عن شيء لا أعرف منه إلا حبك ووجهك. خذني حيث تشاء... فقط حافظ لي على حبيبي يونس مارينا. أنا الآن ضيفة على مدينتك التي تصنعها كل ليلة، قبل أن أسترجع حيطان غرفتي؟

ضحكتْ، فلمع وجهها بنور جميل تحت الأضواء المنكسرة في المدينة والمتسربة إلى السيارة.

– أو... محملة بأشياء كثيرة. خذني إلى أي مكان تحبه. وننهي الليلة في بيتك. أشتهي رائحتك ويهمني أمنك. بيتك

على الأقل محروس. لا أريد أن نقوم بشيء يكلفنا غالياً.

– إلى هذه الدرجة يقتلك خوفك؟ أحبك وأشتهي أن يستمر هذا الجنون المبهر.

– أنت متعبة.

– لا تكن بليداً وتتحول إلى رجل يعطي الدروس. أريد أن أحتفل معك هذه الليلة بجنوني الذي خسرته طوال مدة غيابي. أحب الأمومة ولكني لست مؤهلة لأكون زوجة، سأظلم الرجل الذي سيكون معي. أنا لا أتحمل نفسي أكثر من يومين، فكيف تريدني أن أكون لرجل وأنا لست لنفسي ولكني ملك لجنوني... نحبك ونمووووت عليك.

كان عليه أن يعيد تأثيث وترتيب ما تبقى من اليوم والليل.

– هل في رأسك مكان تريدين الذهاب له؟ غير البيت طبعاً؟

– طلباتي ليست كبيرة. أريد أن أشرب أولاً قهوة في لدوماغو٢٣. أن أتلذذ بكأس روم يرجع لي حرارتي التي خسرتها لكي أحبك أكثر. أريد أن أحس بذلك المهبول الذي اسمه جون بول سارتر الذي قرأت كل كتبه، وتلك المهبولة التي اسمها سيمون دو بوفوار، اللذين عرفا في وقت مبكر أن أبخس

مصيدة للبشر هي الزواج. لا توجد قوة في الدنيا نرهن من أجلها حريتنا العميقة فينا.

– هذا ليس طلباً كبيراً. سنمر إلى مقهى لدوماغو في شارع سان جيرمان، ثم نمر على الرّومري٢٤ وأدعوك إلى كأس روم حقيقي من مصانع الريف الفرنسي، ثم أستظيفك على نبيذ جميل ومؤنق. وبعدها... الله أعلم؟

– الله أعلم؟ هههه نحن نعلم أيضاً حبيبي...

– لستِ متعبة.

– لا. أشتهي أن أرقص معك. خذني إلى أي مرقص أو ملهى، أحس فيه بك وأنك صرت أقرب من نفسي. داخلي يشتعل بالأشياء الجميلة ولا أريده أن يتوقف أبداً. مليئة بك، فلا تقتل عطشي إليك. قل مجنونة إذا شئت؟ كل ما أعرفه في هذه اللحظة أني منذ أن قرأتك، عقلي طار.

– في باريس كل المراقص التي خلقها الله، من الهبل الشبابي، إلى التانغو الأرجنتيني، إلى الفلامنكو الإسباني، إلى السامبا البرازيلية.

– تصور. أتساءل أحياناً عن الغبي الذي قنن الزواج بالشكل الممل الذي نعيشه اليوم؟ ألم يجد غير ذلك السجن الذي نحشر فيه بقوة كالسردين؟ الناس لا يعترفون ولكني لا

أعتقد أن هناك شخصاً مازال فيه شيء حي في داخله، سعيد في زواجه؟ وإذا كانت هناك سعادة، فهي لحظة تدمير لصبر الآخر أو بكل بساطة، أصبح الجميع يتقنونها. وحياتك، لو قدر لي أن أحكم البشرية سأغير كل هذه القوانين الثقيلة وأرميها في أول مفرغة بلا ندم.

– ومع ذلك للزوجية هدووًها ومتعتها.

– وريني وين هي؟ ولماذا لم تتزوج أنت ما دمت تعرف كل هذه الكنوز في الزواج؟ أنت ملعون. بقيت حراً لتتمتع بحريتك إلى أقصى الحدود. أعرف الآن لماذا اخترت هذا المسلك. ولهذا أريد الليلة أن أشعر أني حرة بشكل مطلق وأن أشتهيك كما في اللحظة الأولى عندما ضمتنا تلك اللحظة القلقة، ورأينا مع بعض شروق الشمس. قد لا تكون طلبات كثيرة ولكنها مهمة في توازن الإنسان.

كان كلامها مليئاً بالجنون ولكن مليئاً بالحقائق المرة التي تعيدنا مثل المرايا المشقوقة إلى أنفسنا المتعبة.

– ماذا تخسر البشرية لو نظمت زواجها.

– البشرية نظمته عندما لم تضعه كشرط لقيام حياة مشتركة وإنجاب الأولاد. لم يعد الزواج هو ما يشغل الفرنسيين والأوروبيين عموماً. عندنا فقط لا تحكمنا القوانين ولكن

يحكمنا نفاق لا مثيل له. كذبات لا يؤمن بها حتى الذين يطبِّلون لها وينفخون في الرماد الميت لمثل هذه القيم.

صمتت لحظات وهي تتأمل تقاطع الأضواء وهما يعبران شارع لي شون إليزيه. تأملته طويلاً.

– ما يمنع البشر أن يتنقلوا بحرية نحو المكان الذي يشاءون؟ وما يمنع البشر من أن يتزوجوا بوثيقة لها بداية ونهاية، مثل عقود العمل، CDD, CDI، عقود محدودة المدة وعقود غير محدودة المدة. ليكن الزواج كذلك، محدود المدة. عشر سنوات مثلاً قابلة للتمديد مع إمكانية إنجاب أولاد، وبعدها كل واحد يتحمل مسؤوليته. وأنا متأكدة من أنه لن تكون هناك خيانات زوجية. الخيانات نمارسها يومياً مع أزواجنا وزوجاتنا. نخون عندما نحس بأن جسدنا لم يعد لنا وأن غيرنا أصبح له الحق فيه أكثر منا. كل واحد يدافع عن ذاته ويظن أنه يدافع عن زواج؟ كارثة، عندما أعد فتوحاتي الحياتية لا أجد شيئاً يستحق الذكر. أشتهي أن أقبلك في منتصف الطريق فجراً؟ أن أحتضنك في حديقة عامة وأمام الجميع في بلداننا؟ أضع يدي في يدك بلا تمثيل؟ أن أمشي بجانبك وأضحك من نكتة إباحية أو بايخة قلتها دون أن أشعر بأني اقتحمت شيئاً وأني رفعت ضحكتي أكثر من اللازم؟ أريد أن أفعل كل ذلك دون أن أشعر

بأني مدينة لأي أحد ولا مدانة في عيون أي منهم. أوطاننا ضاقت علينا وأصبح الكذب وسيلتها المثلى ولكنها كل يوم تأكل ما تبقى لها من مبررات الحياة قبل أن تنطفئ نهائياً.

كانت الأمطار لاتزال تسقط. تأملت لوليتا المدينة الهاربة من وراء الزجاج.

– أليس ممكناً أن نعيش في بلداننا مثل جميع البشر. أين الضرر؟ وما هو المستحيل؟ طاولات... كراسي ككراسينا وربما لدينا أجمل منها... ناس طيبون... القهوة... البيرة... لا شيء ينقصنا من ذلك. لمسة فقط من الإحساس بأن الآخر موجود أيضاً ويمكنه أن يعيش بشكل مختلف عنا. نحبه ويحبنا وغير مجبر على أن يكون على صورة أغبياء هذا الوطن من قتلة الروح.

التفتت نحوه مرة أخرى وهي تترك الخارج الذي ملأتها أمطاره وأضواؤه:

– تحمّلني، حبيبي، ربما كنت أخرّف، مازلت تحت وقع خيار صعب ولكن علي أن أتحمله كما هو.

– لا. أنت الآن تفكرين بصوت عال، وجميل أيضاً. بل وتفكرين في مكاني أيضاً.

– أنا لا أدري ماذا حصل لي منذ أن التقينا في فرانكفورت.

شيء غير نظام حياتي وأكد لي كم أن الحياة قصيرة، وكم هي مذهلة. جزؤها الجميل غير متاح وعلينا أن نركض وراءه لكي نصل إليه؟ وماذا فعلت بي أيها الأحمق. منذ زمن بعيد، بعيد جداً لم أسافر وأترك كل شيء ورائي من أجل رجل. هذه المرة فعلتها من أجلك. عندما قلت لك أحبك ولم أعد أتحمل غيابك لم أكن إلا تلك الطفلة الضائعة، نوة التي لا قوة في الدنيا تحرمها منك.

– لا أدري إذا كان علي أن أشكرك، ولكني أسعد رجل في الدنيا، هذا إحساسي على الأقل. لحظة الإشراق التي رأيتها في عينيك ليلتها، وفي صفاء الكأس التي شربنا.

– الحمد لله. كنت أخشى أن تكون قد بردت، ونسيتني وغرقت في نص من نصوصك.

– أصبحت أكثر نصوصي التي أعيشها ولن أكتبها أبداً لكي لا أدفنها.

مضت الليلة بسرعة.

كان الفراش دافئاً ولذيذاً. لأول مرة تنسى أن تتأكد من غلق الأبواب ولم تطل من الشرفة لتتأكد أن البيت كان محروساً كما يجب.

منتصف الليل. ثم تبعته ساعة أخرى. وساعة ثالثة.

لم تترك مساحة واحدة في جسده، لم تمسحها بشفتيها وكأنها كانت تداوي جراحات قديمة. كلما نظرت إلى عينيه، لمح نوراً غريباً وجميلاً، هو نفسه النور الذي رآه في أول لقاء بينهما وجره نحو دهشة لم يتحكم فيها وأغضبت إيفا. لأول مرة يطلق العنان لجنونه العميق. تأملها بعينين مفتوحتين كأنه يريد أن يحفظ كل تفاصيلها. كانت به شهوة لا تضاهى لكي لا تُسرق من عمره أية لمسة أو أية قبلة أو حتى أية حركة هاربة، حتى أصغرها.

عندما أغمضت لوليتا عينيها لأول مرة منذ أن نزلت من الطائرة لتنام قليلاً، كان يونس مارينا قد مسح كل علامات البراءة والعذرية عن جسدها. كان يرى في عينيها عطشاً كبيراً للحياة. أذهلته شفافيتها وجمالها كشعاع مغسول بمياه الأمطار الخريفية. وكان هو عاشقاً هشاً مثل غيمة. من شدة الخفة كانا بلا جسد، وأصبحا أخف من روح هاربة لكائن بلا اسم ولا هوية ولا ظل.

في أولى ساعات الفجر، غمغمت لوليتا:

– وينك عمري؟

– في مكان ما، في دمك، في جسدك... في لمساتك.

– أشعر بك. أنت هنا، حيث لا قوة في الدنيا تطالك... خليك.

لا تبتعد عني كثيراً. لو فقط تدري كم أنا مشتاقة لك، وجوعانة منك؟

ثم أغمضت عينيها كطفلة، ثم انطفأت شيئاً فشيئاً في دفء الفراش وهي تغمغم.

– «يا مهبولة... مين اللي قالك بأني سأتركك الآن؟»

أغمض عينيه من جديد على سعادة غامرة شبيهة بلحظة الحياة الأولى، وترك الليلة تستمر أكثر، وتسرق جزءاً من النهار الذي بدأ يعلن عن وجوده من وراء الستائر الخفيفة. رأى فجراً أو حلماً، لا يعرف بدقة، لوليتا وهي تقوم عارية من السرير، وتسحب الستائر الخشنة لتعيد الظلمة إلى الغرفة.

بلمسة واحدة عادت الليلة الماضية.

اندفنت لوليتا في حضنه كقطة تبحث عن دفء مسروق للمرة الأخيرة.

الفصل الخامس

فصل في جحيم التّيه

-١-

كانت تثلج بقوة على باريس.

كان الشتاء أقوى من خريف ثقيل وبارد أيضاً. تنفس طويلاً. لأول مرة يشعر بكل هذا الامتلاء. نظر من الشرفة إلى سيارة الشرطة المعتادة. لم يرها. ربما عوضوها بسيارة أقل شبهة. أو ربما دفع بهم البرد القارص إلى مكان أدفأ. تساءل. بدأت له الشرفة لأول مرة أنها أكثر علواً من العادي. تكاثفت حركة الناس وهم يلعبون بالثلوج التي لم تتوقف منذ يومين. لا يدري ما الذي ذكره بأغنية قديمة لا يتذكر إلا مقطعها الأول الذي يستيقظ فيه كلما لبست المدينة رداءها وبياضها.

Ce matin là, il neigeait à flot sur Paris

باريس لا تشبه في شيء مدينة مارينا التي كانت بوابة الصحراء. في الشتاء يجمد كل شيء بسبب البرد القارص ولا تدفئة في البيوت، وفي الصيف يشتعل كل شيء حتى الإسفلت تحت أقدام المارة والعابرين نحو وليتها الصالحة: لالة مارينا التي اشتق اسم المدينة منها. والتي كان يزورها بصحبة جدته وأمه في بعض أيام الجمعة عندما يزرون المقبرة والوقوف على بعض الذين فقدوهم. كانت أمه تحمل غصة والده. يحدث معها

أن تسير بين القبور وتشم روائح النباتات، والتربة والصخرة التي تعلم القبور في شكل شواهد متوحشة قليلاً. تمتم

- «لو فقط ترك لنا قبراً، وبرّد هذا القلب المحروق»

رن التليفون. رقم جديد كاد أن لا يرد عليه. لم يبذل أي جهد في معرفة بحة صوتها الذي بدا رائقاً هذه المرة، أحسن من اليومين الماضيين. منذ عودتها من طوكيو وهي منشغلة بشيء لم يستطع أن يحدده. ظن في البداية إخفاق الرحلة والعرض؟ ثم ذهب إلى أبعد من ذلك عندما تحدثت عن الأمراض التي تصيب البشر وإعجابها بالطب الصيني. عندما ألحّ عليها قالت بنوع من الخفة غيبت عن وجهها فجأة حالة القلق الظاهر:

- ما عرفتش السبب يا مهبول.

- خوفتني، لا أدري سبب حزنك وقلقك الكبير.

- أولاً أنا لست قلقة. كثرة العمل وقلة الراحة ربما كانت هي السبب. ثم... إني منشغلة بالغياب الفجائي لحركية الشرطة مما يضعك بين أيدي القتلة.

كاد أن يقول لها إنها استراتيجية أخرى للشرطة وهي التماهي مع السيارات العادية مما يسهل فعل المراقبة. لولا تذكره إنذارات إيتيان دافيد الذي نبهه إلى الحذر حتى مع أقرب الأقرباء وسماها باسمها. لأن ذلك سيضع في الخطر

لوليتا أيضاً والشرطة المرابطين في الحي والأحياء المجاورة لأن الحلقة بدأت تضيق على آخر مجموعة إرهابية في الحي.

– حبيبي، نقاشنا لم يكن صائباً. كالعادة كنت تافهة أمامك. حكاية الصلاة هذه لن نتفاهم عليها، لكل رأيه فيها. هل تعرف لماذا؟ لأني أحبك وانتهازية وأنانية إلى أقصى الحدود. فأنا أريد أن أكون لك حتى في الآخرة، وأنت عنادك مجنون. لست منشغلة بأي شيء آخر سوى بعملي وحبك إلى أقصى حد ممكن.

– ههههها... هذه المرة جئت مصممة على الصلاة؟ ومن أدراك أن الله سيسمع لنداءاتك؟

– سيسمع لأني أحبك وأحبه ولن يحرمني منك. نحتاج لقوة روحية في هذا الفراغ المخيف. أنا متيقنة أن هناك قوة تكبرنا جميعاً تنظم هذا العالم وإذا أرضيناها بما تريده، سترضى حتماً علينا. يا مهبول لا تهمني الصلاة إلا بالقدر الذي تمنحنا فيه الملائكة والزبانية، على حد سواء فرصة مضافة لنكون مع بعض، فقط. ربما كانت نظرتي انتهازية كما تقول لي دائماً، ولكني أريد أن يجمعنا الله أيضاً في اليوم الآخر الذي لا أحد يستطيع تفاديه. حمقاء؟ طيب؟ راضني بهذه الحماقة؟

– نعود مرة أخرى إلى نقاش لا يقود إلى شيء؟

– أنت أسميتني لوليتا؟ اعتبرني مجنونة. طفلة «مزربعة» كل طرف من أطرافها، في أرض من أراضي الله الواسعة؟ ولكنها بليت بك وأصبحت تحبك بصدق وتخاف عليك وتريد أن تضعك في عينيها؟ وقادرة على قتلك إذا شمت فيك رائحة الخيانة.

– يا ستّار؟ إلى هذا الحد. عدتِ من جاكرتا وطوكيو محقونة على حبيبك؟

– لأني أحبك وأريد أن أكون معك في كل مكان، حتى في الجنة أو جهنم. ليس في نيتي أن أختم السنة حزينة. فقد رتبت كل الأمور. لقد حجزت غرفة لنا مثلما أشتهيها لن نعيش إلا مرة واحدة. السويتْ مطلة على أجمل شارع في الدنيا: الشانزيليزيه، في نزل فوُكِتسْ– بَارْيِير. نلتقي هناك مساء. أنتهي من عملي وألحق بك.

– فوُكِتسْ– بَارْيِير نزل كبير علينا. أليس كثيراً؟ كان يمكن أن نقضي السنة في مكان دافئ وجميل. لكن إذا كان المكان يريحك أنا موافق.

– إذن أرجوك لا تتأخر. أريد أن نربح مع بعض كل الأمسية، قبل أن نفتح غداً أعيننا في أجمل شارع في الدنيا، على أحلى سنة بيضاء كالثلج، والأهم من هذا كله، أن أموت للمرة الأخيرة

بين ذراعيك. بعدها نفكر في الزواج إذا أردت. أعتقد أني هذه المرة لن أقول لك أشتهي أن أمنحك بقية عمري. سأمنحها لك لأنك أهل لها. الحياة استحقاق جميل. ألم تقل هذا؟

- مهبولة.

- ربما بهذا سترضى عن حبيبتك. حبيبتك مهبولة ويخونها أحياناً السلوك الحضاري. تربت بشكل متوحش. وهذا عذرها الوحيد، تقول الأشياء مثلما تشعر بها. تنام في أعماقها كل المتناقضات. فيها الملاك وعندما يتعب هذا الأخير من كثرة الأشياء الجميلة، يستيقظ الشيطان الذي يحرق نفسه قبل أن يحرق غيره وكل ما يحيط به.

شعر بالبرد وقسوته. رأى السيارة المدنية التي لم تتحرك من مكانها. رأى في الأسفل، سائقها يتأمل الطوابق التحتية ويسجل ملاحظاته. أحس بأمان داخلي. ثم عاد من جديد ليندفن عمق الصالون. تأمل وجه لوليتا في صورتها. تبدو أنيقة وهادئة مثل غيمة في عالمها المدهش بأنواره. كانت ملامحها واضحة ولم ير شيئاً يتخفى من ورائها. شعر بأزمة ضمير قوية في أعماقه. لماذا لم يقل لها عن السيارات المدنية التي عوضت سيارات الشرطة المكشوفة، ويقلل من

حيرتها وخوفها، هي التي جعلت من وجوده رهانها الحياتي والأبدي؟

كانت لوحة الذبابة في مكانها، تقاوم المبهم بعد أن قاومت زمناً قاسياً. قيمتها لا تتحدد بالنسبة له بما سمعه عنها من الخبراء ولا من إحساسه بها، فهي جزء من تاريخه الحي الذي لا يقبل الموت. من شدة خوفه عليها بدأ يفكر حقيقة في كيفية حمايتها ووضعها في البنك بشكل دائم حتى يتضح وضعه ولا يُطلع على ذلك إلا لوليتا في حالة حدوث أي مكروه.

وهو يفكر في سهرة الليلة الجميلة، لمعت فجأة في ذهنه فكرة هاربة سرعان ما استقرت. لابد أن يكون بيتها جميلاً. هو لا يعرف إلا غرفة نزل كريستال في عمق باريس والذي ترتاح فيه من حين لآخر. لكنه يعرف جيداً أن لها بيتاً جميلاً تقيم فيه أمها، لا يعرفه ولم يزره حتى لا يغير نظام أسرتها. قالت له ذات مرة: أنا بصدد إعادة ترتيبه وعليك أن تزورني فيه. سيعجبك. بيت واحدة مهبولة. ستكون اللوحة هديتها في رأس السنة التي تفتح بها إيقاع بيتها الجديد، سيخلصه ذلك من مسؤولية ثقيلة ولن يجد أثمن منها للحفاظ على هذا الميراث المدهش الذي ارتبط بقوة بحياته.

استقرت الفكرة جيداً في رأسه. ستكون هدية في مقامها

هي المعجبة بكل شيء جميل يعيد إلى الإنسان حنينه وألقه. سيضيف اللوحة مع عطر سيفوراه الذي تحبه، وخاتم الفضة الذي اشتهته وهما يتجهان نحو كنيسة سان بول[١٤٩] التي كانت معجبة بها لدرجة عالية ولا تتوقف عن ترديد الجمل نفسها: – «ياريت كانت جوامعنا الألق نفسه والدهشة. بيوت الله يجب أن تحتوي على رائحة الله، وليس رائحة الأحذية والكلام والغيبة وكلام السوء في ظهور الناس. كل شيء أصبح يشبهنا، حتى جوامعنا، حدائقنا، وألبستنا وعقولنا الرثة التي استسلمت للموت البطيء.»

لم يثنه البرد القاسي. ألقى نظرة أخيرة من النافذة الزجاجية العريضة للشرفة. السيارة المدنية في مكانها. استعمل كل حواسه الحية ليجد الورق المناسب والخفيف عند جورج بائع الهدايا، وصاحب واحدة من أجمل غاليريهات الضواحي الباريسية، في سانتوان[١٥٠]. مشكلته الوحيدة أن المكان ممتلئ حتى أصبح غير قادر على احتواء كل شيء واستيعابه. لم يكن بعيداً عن سكنه. انتزع اللوحة من الحائط ونزل بها راكضاً متحمساً لجنون ملأ دماغه فجأة. كان الورق الذي اختاره للهدية مدهشاً. مساحة بنفسجية مخترقة بكم لا يحصى من النجوم؟ سأله جورج وهو لا يستطيع كيف يلملم

---

١٤٩ Léglise Saint-Paul.

١٥٠ Saint Ouen.

حيرته التي جعلته يندهش:

– وماذا أفعل بهذا كله؟

– لا شيء، سوى أن تلف لي به اللوحة بشكل جميل ومتين يحفظها من أي كسر. هدية لصديقتي بمناسبة رأس السنة.

– واااااااووو أي حظ لهذه المرأة؟ على الأقل انصحها بوضع اللوحة في مكان آمن.

تأمل جورج اللوحة من جديد. يعرفها جيداً وكان من الأوائل الذين نصحوه بعدم تركها في البيت لأنها معرضة للسرقة. حاول أن يعيد قراءة تفاصيلها.

–اسمح لي عزيزي مارينا. أتساءل بيني وبين نفسي إذا لم تكن مجنوناً لتهدي لوحة بكل هذا الجمال وهذه الندرة لامرأة قد لا تستحقها؟

أجابه يونس مارينا بلا أدنى تردد:

– هي أكثر من امرأة؟ وأجمل من حبيبة.

– من يعني؟

– بين الملاك و الشيطان؟ أجمل من الأول، وأكثر جنوناً وهبلاً من الثاني.

– أنا شبه مسطول. لابد أن يكون هذا الحب خارقاً؟ لو لم أكن أعرفك جيداً كنت ناديت الشرطة حالا وورطتك؟ كيف يتخلى رجل عاقل عن لوحة عظيمة لجورج دولاتور وعطره

حتى ولو لم تكن له؟

- من قال لك إنها لجورج دولاتور، لمدرسة أصحاب العتمة؟ رأيت الأصول في اللوفر ولابد أن تكون مقلدة. يقال إن شخصاً اسمه مارشيلو، وهو إيطالي قد أنجزها وليس دولاتور؟ معروف أنه واحد من أكبر مقلدي اللوحات الكلاسيكية. ذهبت إلى متحف اللوفر ورأيت الأصلية وفيها قرابة ولكنها ليست هي، سواء في حركة اليد وربما حتى المواد التي دخلت في تكوينها، وحجم اللوحة. الأصلية ١,٢٨ على ٩٤، وهو ما يجعل الأمر متباعداً جداً. بينما اللوحة هذه لا تتجاوز المتر الواحد في ٦٢؟ والمعروف عن دولاتور أنه كان يفضل أن يرسم بشكل كبير وواضح لتتضح الملامح الغامقة تحت مسحة الضوء الذي لا تظهر إلا ظلاله.

لم يستطع مرة أخرى أن يكتم حيرته، ولا كيف يمنح الإنسان ميراثاً حتى ولو كان ميراث الصدفة إلى غيره من الناس ولا يمنح نفسه فسحة التأمل.

- لو لم تكن كاتباً كنت قلت إنك تسخر من عقلي. حبيبي، لابد أن تكون سكراناً؟ من أين جاءت هذه الإنارة الجانبية إذا لم تكن لدولاتور؟ وهذه خاصية لا توجد إلا لدى أصحاب العتمة. تأثر دولاتور بكرفاج، كبير لكنه أدخل عناصر من عنده فيها

بعض النور. هذه اللوحة فيها كل مواصفات دولاتور. لوحته الموجودة في اللوفر التي ذكرتَ أنك رأيتها، هي الصيغة المنتهية سبقتها سلسلة من النسخ التجريبية التي لا أحد يعرف مكانها إلى اليوم، لماذا لا تكون هذه إحداهن؟ لو كان بيننا روني شار لطار عليها وسلمك كل ما يملك من خيرات لم تكن متوفرة لديه. لقد أعطى وجوداً حيوياً للضوء في جانبه غير المعتم. أرجوك فكر في عرضها على مختصين، قبل أن تهديها. تساوي الملايين يا صاحبي. هل سجلت ملكيتها، وهل لديك حق الحيازة على الأقل؟ .

– نعم. كله مضبّط عند موثق مختص. تحدثتَ عن روني شار، ما العلاقة بينه وبين لوحتي؟

– القصة أصبحت معروفة اليوم يا مارينا. المجدلية على ضوء الشمعة[١٥١] هو عنوان اللوحة التي أنجزها دولاتور بين ١٦٤٠ و١٦٤٥، لوحة على القماش ١٢٨ في ٩٤ سم. التقى بلوحاته في معرض تشكيليو الواقع في فرنسا في القرن السابع عشر الذي نظمه متحف لرونجري[١٥٢] في شتاء ١٩٣٤، حيث تم عرض ١٣ لوحة من ١٥ التي نسبت للرسام. ستجد القصيدة في ديوان روني شار صخب وعجب[١٥٣] يقول: لن

١٥١ La Madeleine à la veilleuse. René Char et Georges de La Tour.
١٥٢ Musée de l'orangerie.
١٥٣ Fureur et Mystère , éditions Gallimard, 1948.

أرى ما يتخفى تحت يدك الفتية الشكل القاسي، دون صوت الموت[١٥٤]

ثم سحب له من خزانته القديمة صورتين متجاورتين لدولاتور شبيهتين بلوحته.

– انظر جيداً هاتين الصورتين. تأملهما بدقة وتمحيص؟ ماذا ترى.



– لم أفهم؟

– اقترب وقل لي ماذا ترى؟ الصورتان المتجاورتان لدلاتور.

– الظلمة نفسها. وجه المرأة نفسه؟ الحركة تقريباً نفسها! اليد نفسها على الخد الأيمن نفسه. الجمجمة نفسها على الرغم من التغيرات الطفيفة المتعلقة بالضوء، وبرؤية الفنان التي تتحرك من لوحة إلى أخرى، ومن موتيف إلى آخر أيضاً إلى أن يستقر نهائياً على شكل محدد يكون هو اللوحة.

---

١٥٤ Je ne regarderais pas sous votre main si jeune la forme dure, sans crépi de la mort.

– برافو. تماماً. هذا هو دولاتور الذي تعرفه. بين لوحتك وما تراه في النسختين تغيرات واضحة، ولكنها ظلت على هامش التّيمة التي تمس مريم المجدلية. دولاتور الذي ولد ١٩ مارس ١٥٩٣ لم يكن رجلاً عادياً. ولكنه كان عظيماً. لقد حمل عتمة لاموت- موزيل في أعماقه وهو ما جعلها تتجلى بقوة في لوحاته. مات في ٣٠ يناير ١٦٥٢ وهو يراهن على هذه العتمة التي هي بدء الخليقة ومنتهاها. وكان سعيداً أنه يوم تعم العتمة لن يكون هنا. اللعب على الظل والنور هو ما يكسو كل لوحاته ويحدد طبيعة فضاءاتها القلقة. لقد كان التلميذ الوفي لكرفاج. في التائبة[١٥٥] التي أنجزها في ١٦٤٠ كانت هذه العلاقة بين الظلمة والنور أساسية. امرأة جالسة على طاولة. تضغط برأسها على يدها اليمنى، وبيدها اليسرى تداعب جمجمة مقابل مرآة. المرأة غارقة في تفكيرها. المشهد بكامله غارق في الظلمة. النور الوحيد المنبعث، يأتي من بقايا الشمعة الموضوعة خلف الجمجمة. واللوحة جزء من سلسلة توبة المجدلية التي لم يكتف فيها بلوحة واحدة، تذكرنا بنور الحياة وشعلتها وانطفائها أيضاً. أو ما سماه Memento Mori[١٥٦] المرآة، الجمجمة، الشمعة، وكل ما يؤثث المشهد،

---

١٥٥ La repentante.

١٥٦ Rappelle - toi que tu vas mourir.

عبارة عن رموز تحيل إلى الهشاشة والشباب والجمال الآيلين إلى الزوال.

- يستقيم هذا الأمر بالخصوص إذا عرفنا أن المجدلية التي شكلت تيمته، قصتها معروفة. لقد أنقذها سيدنا المسيح من الشياطين السبعة. ثم مشت وراءه في رحلته القاسية حتى تحولت إلى واحدة من أهم أتباعه. وكانت حاضرة في صَلبه وعاشت مشهدية قتله، وعند وضعه في القبر، بينما كان جميع الأتباع قد هربوا باستثناء يوحنا، كانت هي أيضاً حاضرة بجروحها وآلامها. في اليوم الثالث كانت من بين النساء اللواتي اكتشفن فراغ القبر. وإذا بها تتحول إلى أول من ظهر لها وأبلغها بحمل البشرى لأتباعه إذ جعل منها سيدة أتباعه l'apostola apostolorum، قبل أن تنعزل في مغارة لمدة ثلاثين سنة. أعرف أن لوحات دولاتور تجسد الفترة الأخيرة من عزلتها بصحبة جمجمة، وكتاب ضخم للتدليل على هشاشة كل ما يحيط بنا بما في ذلك الحياة. اللوحة دعوة للحياة خارج الأطماع لأن كل شيء طارئ وهش في هذه الدنيا. المرآة تقول دائماً الحياة المتخفية وتضعنا وجهاً لوجه أمام الموت، والجمجمة ليست في النهاية إلا مآلنا الحزين.

- عد للوحات مارشيلو المقلدة، وستعرف سر ما أقوله. لن

أسالك من أين اشتريتها لأنك لن تقول لي. مارشيلو كان أكبر مقلد للوحات القرنين السادس عشر والسابع عشر، لكنه ليس مهماً. فكر طويلاً قبل أن ترمي هذه اللوحة النادرة بين يدي امرأة ربما لن تقّدر ما تملكه وماذا أهديتها؟

– لوليتا. سنفتتح سنَتَنا الجديدة بفصل حي أتمنى أن لا ينتهي أبداً. قد يكون فصلاً في الجحيم ولكنه سيكون جنتنا. هذه أول سنة حب وأريد أن أهديها كل ما هو استثنائي. أحببت وجه هذه المرأة. كلما دخلت عندي إلى البيت، وقفت طويلاً أمام هذا الوجه. عندما نفكر في الاستثناء هذا يعني أننا أصبحنا عشاقاً، العاديون هم من يقبل بالعادي أو حتى دونه أحياناً.

– ما دمتَ مصراً، وفقكما الله. يا لَحَظَّها؟ زوجتي نكدية، كل يوم تؤكد لي أنه لا ملائكة في الدنيا سوى الشياطين، وأني ربما كنت واحداً منهم. أكثر من هذا، أسوأهم. هههه... كل التوفيق وكل سنة وأنتما بألف خير. الكثير من الحب والصحة.

ثم لف اللوحة بأناقة، كما يلبس عروساً جميلة أفخر الفساتين.

عَبَر مارينا بسرعة الشارع الصغير بسيارته. صفها كما تعود أن يفعل تحت البناية التي يسكنها. بللته الأمطار الكثيرة. التفت نحو السيارة المدنية. كانت هذه المرة قد غيرت مكانها

وأصبحت على الزاوية الأخرى، أنفها موجه نحو الطريق، وعجلات مائلة قليلاً نحو اليمين، مستعدة للانطلاق.

زادت الأمطار قوة. شم رائحة شعرها التي هي مزيج من الحناء، وزيت والمختزلات النادرة من النباتات والعطور. تقول لوليتا إنها تحتفظ بالوصفة لنفسها لأن مصدرها، جدتها التي منحتها كل شيء قبل أن تنسحب من هذه الدنيا. لا تريد من جسد آخر أن يحمل عطرها.

من جديد تأمل يونس مارينا طويلاً السيارة المتوقفة التي رآها قبل قليل، ولكنه لم ير شيئاً هذه المرة. كانت الأمطار والثلوج قد غطت كل شيء. كونت حاجزاً شفافاً بينه وبين حركة الناس والشارع. غابت كل التفاصيل حتى أصبحت المدينة مسطحة ومتشابهة في كل شيء.

اندفن يونس مارينا في عمق البناية التي يشعر لأول مرة أنها باردة كقبر.

-٢-

كان نزل فوُكِتسْ- بَارْيير جميلاً. كل شيء فيه ساحر. موقعه. أناقته وصفاؤه الكبير. استطاع أن يجمع في وحدة غريبة بين الأصالة والحداثة. إطلالته على الشانزيليزيه ومقهى الفوكتس[١٥٧]، تضعه في أعلى رتبة وأجملها من بين كل النزل المحيطة بالمنطقة.

كان الثلج قوياً عندما دخلت إلى الغرفة. قبلت يونس مارينا مثل نسمة هاربة. ضحكت قليلاً:

- المطر يوقظ شهية الهبل.

مدت يدها نحو البيانو المغلق. مسّدت على خشبه الأملس دون أن تفتحه آلياً كما تعودت أن تفعل مع بيانو يونس مارينا عندما يكون مزاجها رائقاً، أو حزينة بشفافية عالية، وتجلس وراءه ساعات طويلة عندما لا تشتغل. تذكر يونس مارينا أول مرة عندما عزفت على البيانو القديم في بيته حتى تعبت وأصبحت أصابعها ترتجف. قالت. يحفظ كل كلمة هربت من شفتيها لحظة ألقها: هَلْ تَدْرِي حَبيبي أنّي كلّما وضعتُ أصَابعي عَلى مَلاَمِسِ البِيَانُو أحسسْتُ بك هنا وسط مساحة من النور، واقفاً على حافّة قلب يرفض أن يستسلم للنّسيان،

١٥٧ Le Fouket's.

تنصت بإمْعَان لصَوْت في داخِلي يُشْبِهك لدرجة التَّماهِي الغريب. أعْزفُ لا لأني أشْتَهي إغْواءك داخل شُعْلةِ أصابعي فقط، ولكن لأني أخاف صَمْتَ الحجارة ورعْشَة القُبور. رهَانِي أيُّها الغَالِي، أن أوقِظك من غَفْوة التِّيه لكي لا تنسى أنِّي هنا، امرأة من حليب الغَيْم وهشاشة نظرة العاشقة. هنا دائماً لتدرك أني مازلت حية، وأن أصابعي التي تحبّك لن تستأذن القتلة الذين سرقوا عذرية طفولتك، لكي تعزف نشيد الروح. ما تخافش عمري، قادرة على شْقَايَا، كما كانَتْ أمّي تقول.

شعر بالآلام التي كانت تنام في أعماقها، وتهزم بعنف عينيها.

ثم مشت نحو الزاوية وأشعلت شمعتين انعكس نورهما على لباسها الأبيض. شعر بجمال الحركة العفوية. كانت المصورة بين يديه. أراد أن يثبت اللحظة. صورها في كل الأوضاع وهي تتحرك بعفوية. في إحدى الوضعيات، وهي تتحرك تحت ظلال الشمعة، بدت كأنها ليست لوليتا ولا حتى نوّة، ولكن مريم ماجدالينا بكل تفاصيلها القلقة وحركتها الممتلئة. في تلك اللحظة بالذات أحس بنفسه يعود إلى آلام البدء في حياته، حيث اكتشف أن الجسد لا يحمل فقط طاقة الخوف ولكن أيضاً انفجارات الحب، التي لا قوة تمنعها من أن تتمادى في غيها

حد الاشتعال.

حين التفتت نحوه، شعر بقربها الكبير. كان وجهها مضاء قليلاً بينما بقي الجزء الآخر من جسدها في خلفية العتمة. أحس بشيء من السعادة يملأ قلبه، على الرغم من إخفاقه في طرد الكآبة الغامضة التي كانت تأسره وتقوده دوماً نحو الجهة المظلمة القلقة التي لا يمسها النور إلا قليلاً.

– أغمضي عينيك.

قال لها. استجابت لمقترحه باستسلام كبير.

قام من مكانه وهو يردد:

– لا تفتحيهما أرجوك..

ثم وضع بالقرب منها اللوحة مكسوة بغطاء ورقي جميل.

– افتحي الآن بهدوء.

– ما هذا عمري.

– افتحيهما وسترين.

فوجئت أنها لوحة الذبابة. نظرت إليه، ولثمته بشكل هارب وبدهشة. لم تصدق ما كانت تراه.

– يا أحمق هل فكرت في ما تقوم به؟ كثير عليّ؟ كنت أظنني المهبولة الوحيدة في الدنيا ولكنني وجدتك أهبل مني. هذه اللوحة لي؟ إلى هذه الدرجة تحبني؟ لا أدري ماذا أقول سوى

أنه لم يعد لدينا متسع كبير لفرح. لقد سرقوا منا كل حواسنا الحية أيها الغالي. شكراً عمري. تفكيرك فيّ بهذا الشكل يكفيني لأن أكون أسعد مخلوقة. سأضعها في صدر البيت الجديد. هل عرفتَ لمن في النهاية.

– أنتظر النتائج المخبرية. وعدتني ربيكا، وقد أخذت جزءاً من عناصر الألوان لتحليلها. لم أر إلا غرفتك في الفندق، ولكني لو كُتب لي رؤية بيتك الذي تؤثثينه، كنت اقترحت عليك مكان اللوحة على الحائط.

– أمي ترهقني بأسئلتها ولا أريد إحراجك معها.

– على كل سأترك هذه اللوحة بين يديك، افعلي بها ما تشائين. أنا لا أستطيع حمايتها ولا حماية نفسي. خذي مفتاح خزانة البنك أيضاً. كلما شعرت بخطر عليها، ضعيها هناك. سجلت اسمك معي حتى تستطيعين الدخول إلى البنك بسهولة. حياتي على كف عفريت. لا أدري كيف أحببتها منذ اللحظة الأولى التي عثرت فيها عليها في عمق الطاولة المكسورة. ربما كان بها شيء من ذاكرتي المتخفية.

– ألم تعرف بعد حبيبي، أنه ليس هذا سبب حبك لها؟ لا. من كثرة ما حكيت لي، أدخلت في رأسي السبب الخفي، من حيث لا تدري. أعتقد أن اللوحة تذكرك بعنفوانك الأول. مريم ماجدالينا.

يبدو أنها امرأتك الوحيدة، وما عداها تنويعات صغيرة عليها. لقد سرقت منك كل شيء. تصور، كنت أشعر أحياناً بالغيرة لأنك لم تكتب إلا نصاً واحداً اسمه ظل مخفياً: مريم ماجدالينا. ليس فقط لأنك لم تشبع منها، ولكن لأن مصيرها ظل معلقاً في قلبك كجسر قديم، كلما عبرته لا تستطيع أبداً تفاديها لأنك مازلت تحبها. ليس مهماً، فأنا أفهمك جيداً، ولا أحاسبك أيضاً. من يحاسب عاشقاً مجنوناً كل عوالمه هي حالات موازية، جميلة، ولكن عندما تريد القبض عليها لا تلمس شيئاً لأنها أصلاً غير موجودة. وربما كانت الحياة كلها كذلك. أعرف أنك تحبني ولكني أحبك أكثر. فقد كنتَ، من حيث لا تدري، منجاتي وقشتي الأخيرة. لم تكن في صورة أبي وإلا ما ترددت لحظة واحدة في قتلك. رأيتك في صفائك العشقي، وأحسست بلذة رجولتك الشهمة وأنوثتي الكبيرة. ولا حول لي ولا قوة إلا حبك. اللوحة في قلبي، ولكنها أكبر مني عمري ولهذا أنا مثلك، مرتبكة أمامها.

– بيعيها لأي متحف. ثمنها لابد أن يكون غالياً. وساعدي بمالها جمعية النساء المغتصبات. هناك جمعيات كثيرة تحتاج إلى مساندتك.

– لا. في هذه الحالة أفضل أن أعلقها على أجمل حائط

في بيتي. لن أبيعها لأني بعد هذه العشرة الجميلة، أصبحت أشبهك، ويعز عليَّ أن أضع ذاكرتك المتقدة في المزاد.

قامت لوليتا من مكانها. تدحرجت قليلاً نحو اللوحة ثم وضعتها فوق المكتب الكبير ذي الخشب الأحمر، تحت نور اللمبة الصغيرة التي أشعلتها، فبانت كل الظلال التي في اللوحة بشكل واضح. تأملتها طويلاً. اقتربت منها أكثر حتى التبست الألوان في عينيها وتداخلت. شعرت للمرة الأولى بألقها الخفي؟

– لا يمكن إلا أن تكون لدولاتور ولا أحد غيره. هل تعرف كم مليون دولار سعرها؟ حبيبي، عندما أفكر بموضوعية، أقول في خاطري أليس من الأفضل وضعها في البنك؟ ضعها هناك. فهي أكثر من سعرها. هي عفويتك يوم سرقت طفولتك، يوم استقبلك غول المدينة قبل أن يعصرك في أحضانه القوية. هي عفويتك الأولى التي وضعتها بين يدي امرأة لم تكن تريد شيئاً سوى أن تملأ جسدها وقلبها وعينيها بك.

– مريم ماجدالينا. ذاكرة النور والضوء. حتى الآن لا شيء يثبت بأنها لدولاتور، ما عدا الانطباعات الأكثر تناقضاً. قيمتها الوحيدة الآن هي ارتباطها بحياتي. فهي لحظة لا يمكنني أن أتفاداها. على كل ستأتيني رِبيكا، كما قلت لك،

بـالخير اليقين.

ضحكتْ.

- سعيدة عمري بهذا الحب، لكني في قمة ارتباكي.

فجأة ارتسم في عينيه وجه لوليتا وهو يرى ارتباكها وعلامات الفرح الناقص، التي ارتسمت على وجهها الذي لم تنطفئ صفرته.

أحبك. كنت غبياً متوحشاً، ولكني كنت أحبك. كريهاً وخشناً وعديم ذوق، كنت كل هذا مجتمعاً، لكني كنت أحبك. أشعر أحياناً بثقل معاناتك، وكان هذا بالنسبة لي عذاب اليم، صغيرتي. لوليتا الحبيبة، دولي[١٥٨] شيلر الوفية[١٥٩].

أخيراً نزعت معطفها الخشن كما تعودت أن تفعل، ولم تنزع ألبستها. لم تدخل إلى الحمام للتخلص من كل ما كان يثقلها، كما تعودت أيضاً أن تفعل. ولكنها جلست على مسافة من مارينا، على الكرسي المقابل.

على الرغم من كل محاولاتها لتخبئة ما كان يخترق ملامحها، إلا أنها لم تستطع أن تمحو انفعالها وارتباكها الذي كان يتصاعد كلما تحدثت أو أبدت ملاحظة، بالرغم منها.

---

١٥٨ Lolita, P: 453.

١٥٩ Dolly Schiller.

– ها أنا ذي أعود لك بالسؤال وبالقلق نفسه. هل تقبل أن تتزوج بي؟ أشتهي الليلة أن أنام على ذراعك الأيسر وأسمع إلى دقات قلبك براحة، وبلا أدنى قلق.

– تعالي حبيبتي. ممكن. ولكن هل وضعنا الحالي يقلقك؟ وماذا بعدها؟

– أن نرحل مع بعض حتى نتخلص من أنانياتنا الصغيرة نهائياً. أن نذهب نحو أبدية بلا حدود. مشتاقة إلى الوصول إلى هذه النقطة التي تنتفي فيها الحدود.

– ألم أمنحك خاتماً جميلاً قبل أيام؟ يفترض أننا تزوجنا به... هههه.

تحولت فجأة ملامحها الدافئة إلى حديد بارد.

– أتكلم بجد. كان الخاتم كذبتنا الجميلة الأكثر صدقاً. يبدو أن أبعد نقطة في الدنيا، هي المكان الذي نقف عليه بالنسبة للذي يقف على الطرف الآخر من الأرض. لا توجد أبعد نقطة في الدنيا ولا أقرب نقطة في أرض كروية، لا بداية لها ولا نهاية. كل نقطة نهائية، هي بداية لنقطة أخرى يقطعها الذين يحبوننا وهم يهرولون باتجاهنا. نحتاج أحياناً أن نتخفى وراء بعد المسافات، لنوقن أن الحب لايزال هنا وأننا نستحقه. وأننا نعني الشيء الكثير بالنسبة للذي يقف هناك. رحت إلى

جاكرتا وطوكيو وأنا مترددة ومتربكة، وعندما عدت كنت ممتلئة بك وعلى يقين من أنني لن أتركك تفلت مني، ولن أترك قلبي يخادعني بالهرب نحو وهم آخر للحياة. لا أريد أن أفقدك. أشتهي حقيقة أن أربط مصيري بمصيرك. لا شخص آخر لي أثق فيه لأرحل معه نحو كل الجنون الذي يملأ قلبي وجسدي وروحي المكسورة.

- يبدو أنك في أقصى الجدية. الزواج فقدان منذ اللحظة الأولى؟

- حبيبي، هذه فلسفة قديمة وميتة أيضاً. أنا غير مقتنعة بما تقوله.

- أنت تخيفينني كثيراً؟

- أنا أيضا خائفة حبيبي. خائفة لدرجة الانهيار العصبي. حاول أن يخفف من برودة الجو.

- فيه واحد في الدنيا يخاف من نفسه... مرعووووووب يا ناس.

- مرعوب مني؟

لم تستطع أن تكتم ضحكتها التي انفجرت إلى درجة ارتسام دمعات كثيرة في عينيها. .بان وجهها مشرقاً وجميلاً وصافياً على الرغم من روائح، وظلال الخزائن القديمة التي كانت تملأ

السويت التي حجزتها في نزل فوُكِتسْ- بَازْيِير بهذه المناسبة التي لا تأتي إلا مرة واحدة في السنة ولهذا يجب أن تكون استثنائية، كما قالت له في آخر مرة.

مسحت وجهها وهي تحاول أن تسترجع جديتها الهاربة.

- تركت غيرك على أقل من هذا الخوف. لو لم أكن أحبك كنت تنصلت منك إلى لا رجعة. من قال لك إن امرأة مهبولة مثلي تريد أصلاً رجلاً؟ إلى اليوم لا أعرف كيف استطعت ترويضي. أنا امرأة مستحيلة مع نفسي قبل أن أكون مع غيري. في داخلي مليون عقدة عليّ حلها قبل معاشرة أي رجل. بي حكايات وديون لم أصفِّها مع غيري. ها أنا أهذي من جديد وكلها علامات غير معلنة عن انهيار عصبي يرتسم في الأفق. لن أزعجك يا روحي. أنا أمزح. أنا أيضاً أكره الزواج. لا أراني في حوزة رجل كيفما كان، أحتاج إلى نظام أكبر من هذا كله يستطيع أن يحوي كل هذه الحرائق التي تملأني. جئت فقط لأودعك. هل تعلم حبيبي، كل الأسابيع الكثيفة التي قضيناها مع بعض علمتني شيئاً نادراً. كيف أظل معك ولكني أيضا كيف أكون في قمة أنانيتي. أنا جادة عندما قلت لك أشتهي أن أرحل بك معي.

- نتركها لعرضك القادم في طوكيو أو أية عاصمة جميلة،

ونذهب مع بعض. أو ترافقينني إلى بومباي، بعد شهر. أنا أيضاً أصبحت أصاب بالقلق من البلد الواحد، أو من الدائرة المغلقة. مصاب بك، أشتهي أن آخذك من يدك وأركض بك العالم كله.

قالها بعفوية كما تعود أن يفعل معها دائماً. لا يدري إذا حسب وقع الكلمة. نظرت إلى وجهه بحدة كمن سمع شيئاً جارحاً مع أنه كان يمزح.

– هل تدرك حماقة ما تقوله؟ هل تريد أن تموت؟ عرفتك مجنوناً على الحياة؟ ما الذي غيرك؟ هل حدث شيء فيك غير حياتك؟

– أنا لم أتحدث عن الموت، تحدثت فقط عن رحيل. طوكيو، وبكين، أو جاكرتا ليست مدناً بعيدة أبداً. يمكنني أن أرحل معك حقيقة. أعرف أنك لا تريدين أن يصحبك أي شخص في عملك. تريدين أن تكوني للعمل وحده بكل التركيز الذي يفرضه عليك. ولكن يمكن أن نجد مسلكاً لهذا الوضع. تذهبين لعملك، وعندما ترتاحين نخرج مع بعض.

صمتت قليلاً. قامت من مكانها. نظرت إلى المرايا وكأنها كانت غائبة. فتحت بشكل آلي البيانو. تحسست ملامسه الخشبية القديمة محدثة صوتاً مخنوقاً أخرجهما من صمت اللحظة وثقلها. لم تعزف على البيانو كما تعودت أن تفعل كلما

دخلت إلى بيته، عندما يكون مزاجها رائقاً. التفتت نحو المرآة الكبيرة من جديد. اقترب من ورائها وهي ملتفتة، غارقة في صورتها القلقة المرتسمة على المرايا زجاج النافذة. أراد أن يسحبها من ورائها كما تعود أن يفعل معها لأنها مأخوذة دوماً بتلك الوضعية. عندما يلفها رجل تحبه من الوراء، تشعر بقوة أنها في أمان كلي. المهم هو الظهر. الشد بنعومة من الخصر ومن الوراء يحدث هزة عنيفة في الجسد. لا تمل من تكرارها: – «أريدك أن تقبلني في عنقي حيث سر الشهوة الغامضة، ووجهي ملتصق بالسماء وحركة الغيوم. لا أريد الحالات المغلقة، أشعر فيها بفوبيا الاختناق والتكرار والثبات في المكان الواحد الذي يشبه القبر. البيت والقبر وجهان لنهاية واحدة. الفرق الوحيد بينهما هو أن القبر استسلام للسكينة، بينما البيت يمنح فرصة للتحرك.»

فتحت زجاج النافذة العريض. كانت ثلوج رأس السنة تتساقط. الشرطة يغلقون معابر أجمل شارع في الدنيا في وجه حركة السيارات والمارة قبل أن يحرروه أمام الزوار. الأضواء التي كلفت البلدية كثيراً، اشتعلت قبل وقتها المعتاد. تذكر رحلته الأخيرة إلى لوس أنجليس وكيف عبر ليلاً في سانتاماريا، الأمكنة التي تحولت على أشجار مضاءة وأفراح

صغيرة في أجلى لحظات فرحها. بيوتاً غارقة في الأضواء والألوان.

- أشعر بالرعشة من هذا الجمال المدهش؟ جو ساحر وجميل. اليوم يجب أن لا يهرب في الفراغ لأن الغد سيكون يوماً آخر. يوماً أوسع وأجمل وأطول، أقل ضيقاً أيضاً.

- ثلوج ديسمبر تتساقط باردة. بردها يدخل نحو الغرفة حاملاً غربته وأنينه الخفي.

تأمل الغرفة. المرايا. الستائر. كل الخزانات القديمة التي تختلف حتماً عن أثاثه البيتي القديم، تعطي إحساساً غريباً بالعزلة على الرغم من جمالها، والراحة أيضاً. كل الخشب هو من الصنوبر العتيق والمتين الآتي أغلبه من برازيليا غابات اسكندينافيا. لكنه هو أصيب بلوثة حب الضيق في بيت لا يتسع على أكثر من خمسين متراً. يشعر كأن الاتساع يفقده حميميته. خمسون متراً فيها غرفة النوم، المطبخ والمنتفعات الصحية، والصالة التي يقطعها يومياً كأنه في أكبر شوارع المدن العالية بالخصوص عندما يدخل سحر الكتابة. في الزاوية الخلفية، المظلمة قليلاً، لاميزانين [١٦٠] التي توفر سريراً واسعاً لصديق وعشيقته، يكفي إنزال الستائر القديمة ليصبح البيت مستقلاً. كل خزاناته وطاولاته وحتى سريره، اشتراها

١٦٠ السرير المزدوج. بالفرنسية la'mezzanine

من سوق العتيق.

«جدتي كانت تكره الجديد وتقول إن القديم يخلق الألفة. وأنا ركضت وراء هبلها.»

لا شيء في الغرفة والصالة على الرغم من أنه لا يحب الحيطان العارية. لولا لوحة الذبابة لأصبح كل شيء أبيض. ضحك. وهو عبر المكان. حتى اللوحة كانت حظاً من حظوظ سوق العتيق. أصبحت قيمتها كل يوم تزداد قليلاً. وضعها في مكان لوحة غريبة وجدها في المكان نفسه أول ما حل بالبيت. لم ترق له أبداً لرجل يشبه بهلوان نيتشه، يضحك ويمشي على خيط رفيع. الكتابة لا تقبل السير على الخيط الرفيع. هي الخيط الرفيع نفسه، وهي البهلوان أيضاً. وضع في مكانها بوطنية زائدة، خارطة بلاده الكبيرة، وظل يبحث فيها عن مدينة مارينا. لم يجدها، فوضع دبوساً صغيراً بلون أحمر، في المكان الذي تخيله الأقرب، قبل أن ينزعها، بعد أن أدرك بأن كل ما نرحل به ونعلقه في الذاكرة أو على الحيطان لشحذ القلب نحو المزيد من الاستمرار في الحب، علينا أن نتعلم كيف نقتل بعضه على الأقل. المنفى هو أن تتعلم القتل أيضاً، والوقوف بشراسة ضد أقرب محارب أشرسه: ذاكرتك. لا يدري ما الذي جاء بالرجل ذي الشعر الأبيض، عمي أحمد الشايب، الذي كان

يصحح جنونه وعلّمه، بشكل غير مباشر، سحر الكتابة دون أن يتحول يوماً إلى معلم ثقيل الظل. ولا يدري أيضاً كيف اندغم وجهه بملامح إزميرالدا. «الوطن يا عمري ليس اسماً يوضع على خارطة، ننام ونستيقظ عليه، قلق شنيع يصعب سجنه في لوحة أو خارطة أو كتاب. تعلم كيف تنسى آلامك أو تكتبها لتستمر في الحياة بأقل الكوابيس ضرراً.»

قالت له صديقته التشيلية إزميرالدا قبل عشرين سنة. المرأة الوحيدة التي عاشت معه خارج المؤقت. هربت مع الأفواج الأولى من طغيان بينوشيه. قبل أن تعود إلى وطنها لتموت هناك عندما فاجأها سرطان الكبد القاتل وغير الرحيم. لم يمنحها حتى مدة المحكوم عليه بالإعدام وحظه الأخير. وهو يرافقها في الطائرة يومها، انحنت على رأسه مع بداية شروع الطائرة في النزول.

– «حبيبي كنت قاسية معك جداً. لقد كنتَ محقاً عندما اختزلت وطناً أو مدينة، على رأس دبوس.

– مع ذلك. أشهد أنك كنت محقة. وحررتني قليلاً من ذاكرة مثقلة بالألم، وفتحت عيني على عالم آخر، كان علي أن لا أنساه، ولا أضحي به.

– وماذا أفعل أنا الآن سوى العودة إلى الدبوس الذي أشرت

به على مدينتك؟ أعرف اليوم أن الوطن الأم هو وطن المقابر والناس الذين نتذكرهم ويتذكروننا.»

ثم نامت. في ليلة وصولهما الأولى إلى العاصمة التشيلية، لم تذهب عند أهلها، ولكنها اختارت أن تنام معه في النزل الذي التقيا فيه لأول مرة عندما كان عابراً في متحف الفنون المعاصرة، وسمعها تشرح اللوحة بالفرنسية. كانت أولى جملها. كل الحب كان رهين جملة وربما كلمة واحدة هاربة: «– شعرت بألفة عندما سمعتك تتكلمين لغة أتقنها، وأكتب بها غربتي وتيهي.» في الليلة التالية، باتت في بيتها بين أهلها. كانت سعيدة. ثم همست: – «هل عرفت جيداً ماذا ينقصنا في تلك المدينة؟ لقد ضاقت المدن حبيبي ولم تعد تحفل بالغرباء، حتى عندما يلبسهم الزمن والمنافي ألبسة المدينة نفسها.»

طلبت منه أن يبقى معها مدة أطول: «– القادم سيكون قاسياً حبيبي ولا أريدك ان تحتفظ بصورة الموت فقط فهي الأقسى. احتفظ بآخر ليلة مجنونة، تلك التي نصر على سحبها وراءنا نحو القبر.» كان سعيداً لأنها عندما غادرت، فعلت ذلك بهدوء وسكينة كالذي يركب طائرة ولا يستيقظ إلا لحظة الوصول. كانت يده في يدها ولم يعرف كيف انسحبت من هذه الدنيا لأن كل شيء فيها ظل دافئاً: أصابعها، يديها،

ملامحها، نظرتها المستكينة لنوم هادئ وطويل. ماتت براحة على سرير أخيها الذي ظلت مرتبطة به ولم تعرف عنه أي خبر سوى أنه أُخِذ مع بقية الشباب المنتفضين ضد انقلاب الجنرال بينوشيه الإجرامي الذي سرق أول ديمقراطية ناشئة في أمريكا اللاتينية.

-٣-

نظرت لوليتا إلى الساعة للمرة الأخيرة بقلق واضح.

- حبيبي... ممكن تأتي ورائي وتقبل عنقي وشعري، أريد أن أشم عطرك. ولكن لا تحضني كثيراً. أريدك فقط أن تبقى بجانبي وتقول لي في أي شيء تفكر بالضبط. الآن؟

- أي شيء أفكر فيه الآن؟ أن أعريك بكل الجنون الذي يليق بسنك وعنفوانك، وأحبك حتى أسمع انفراط أغطية قناني الشمبانيا الفلينية وفرقعاتها الليلية إيذاناً بالسنة الجديدة.

بدوره أراد أن يسألها بشكل عفوي وأنتِ؟ ماذا يقول لك قلبك؟ في أي شيء تفكرين؟ ولكنه كان يعرف إجابتها. الغريب أنه عندما أطفأ فكرة تعريتها، لم يفكر ثانية في أي شيء آخر، سوى إلباسها معطفها الخشن لدرء البرد القاسي، والتجول

في حدائق لي تويلوري[١٦١]، والمشي تحت الثلج، والشبع من وجهها إلى أقصى حد ممكن؟ فكر أن يقول لها ذلك كله لكنها سبقته إلى الحديث.

– أرجوك لا تضحك مني أنا جادة. ربما ليس حلماً عظيماً ولكني تمنيته دائماً. أن نمشي مثل عصفورين بردانين مخطوفين بأضواء نهاية السنة. ثلوج ديسمبر تذكرني بأشياء بعيدة. بطفولتي في بلدتي قبل أن تأتي يد ثقيلة وتسرق مني كل شيء.

– كنت غارقاً في الفكرة نفسها.يدك الثقيلة شبيهة بالآلة الجهنمية التي حصدت كل شيء في طريقها، قبل أن ترمي بي بعيداً عن كل ما صنعته في أرض ظننتها لي ويمكنني أن أحبها كما يحبها الآخرون، قبل أن أكتشف فجأة أنها ليست أكثر من جرح يضاف إلى طفولة سرقت في عز عنفوانها. أربعون سنة وأنا أبحث عن أجوبة ممكنة بلا جدوى. لا أعرف حتى الآن الشخص الذي أخرجني وساعدني لأعيش هنا. وغطى بسخائه على كل أنانياتي الصغيرة. لا أعرف أية صدفة قادته نحوي. قال لي فقط: يريدون قتلك وعليك أن تغادر البلاد. سحبني من يدي التي وضع فيها كتابين غيرا جزءاً كبيراً من حياتي لا شبه بينهما: لوليتا الذي ظل مقاسي للرواية الناجحة خارج فكرة

[١٦١] Les Tuileries.

الذوق العام، والإنسان في عز تألقه في الصفر واللامنتهي. ثم خبأني في ماخور عيشة الطويلة، عند امرأة لم أعرف وظيفتها الحقيقية إلا ساعات قبل خروجي، لأنها منحتني عذريتها الحقيقية، وأخذت مني، لأول مرة وبرضاي الكامل، عذريتي. ثم خرجتُ نهائياً على متن سفينة رأيتها مثل جبل في أول يوم، ولكني لم أكن غريباً على ظهرها، بل إن هناك من كان يخاف جرح وجهي وشبابي. يبدو لي الأمر كله حالة بياض غريبة شبيهة تماماً بهذا اليوم المثلج ؟

– لا أدري لماذا نتذكر كل شيء بعيد وكأننا نستعد لفراق لا نستطيع مقاومته. أنا؟ قصة طويلة عمري لم تعرف إلا لحظاتها الهاربة، ولكن تفاصيلها ظلت مؤجلة. هل يمكنني أن أسالك سؤالاً سخيفاً.

– لا يوجد أي سؤال سخيف.

– لماذا لا تصلي؟

– لا أدري ماذا فعلت فيك طوكيو، ولكن منذ عودتك من هناك وأنت مركزة على السؤال نفسه حتى أصبحت لا أعرف الجد من السخرية؟ هي خيارات شخصية عمري.

– لم تجبني حبيبي.

شعر برعشة غريبة تسري في كامل جسده. مع ذلك، لم

يستطع أن يكتم ضحكته.

– ألم أقل لك أن سؤالي سخيف.

– أضحك لأننا نرتكب كل حماقات الدنيا التي يعاقب عليها القانون رجماً، شنقاً وحرقاً، وتحدثينني عن الصلاة؟ لا. لست مؤهلاً لكل هذه الازدواجية، كثير عليَّ.

– عنادك يخيفني. أعرف أني ساذجة جداً، ولكني مؤمنة جداً. لم تر هذا فيَّ وأنا بين ذراعيك أو وأنا أئن لذة وحباً. أشتهيك ولا أقاوم نفسي على ذلك، بل لا أفكر في أية عقوبة إلهية فقط لأني مقتنعة أني لا أمارس أية كراهية والله كله حب. لكن الصلاة شيء آخر. قلت لك أنا انتهازية، أريد أن أكون معك حتى الآخرة. هذه هي شهوتي الصغيرة.

– من حقك. اقتربي من الله بالشكل الذي يروق لك. الصلاة ليست إلا مسلكاً خاصاً للتقرب والإفضاء الداخلي. لا أدري لماذا يريد الناس تعميمها بشكل يكاد يكون واحداً. هل نحن مجبرون على أن نحب بالطريقة نفسها؟ إذاً ماذا نساوي أمام أنفسنا إذا كنا مجرد نسخ مكررة؟ ماذا يفعل بنا الله إذا كنا نسخة مكررة، يكفي أن يحاسب أولنا الذي علمنا، ربما كان سيدنا آدم، ليطبق علينا المسطرة نفسها لأننا في النهاية نتشابه في كل شيء.

- حبيبي افهمني. أنت لا تسمع إلا لنفسك. ليس هذا غرضي. فقط لأني أريدك أن تكون حبيبي هناك أيضاً. في الآخرة. يقول فقهاء وعارفو جاكرتا، إنه حتى عندما نُعذب ويعاد بعثنا وغسلنا من كل ذنوبنا، واقتيادنا إلى جنة الخلد، يستطيع الرجل وقتها أن يختار رفيقة خلوده الأبدي وخلوته الجميلة. من بين كل الحوريات يستطيع أن يقول للملائكة: لا. أريد حوريات ولا ولدانا مخلّدين، أشتهي فقط حبيبة خسرتها بغباوة. أريدها أن تكون لي وأن أشبع جوعي إليها، وتشبع مني. يقول المؤمن خاشعاً خشوعاً: لقد جئتك جائعاً يا مولاي، لا تدخلني فيما لا أريده. صليت طوال عمري، فقط لتسمعني. لكن هذا كله مشروط بأداء الصلوات الخمس.

مرة أخرى لم يستطع مارينا أن يكتم ضحكته. بدت له لوليتا طفلة معاندة داخل هزائم اللامعنى.

- لوليتا، عمري. ألا تريدين أن تكبري.

- لا. أريد أن أغرق في طفولتي التي سرقت مني في وقت مبكر. أشعر أني إذا خسرتها، ذهب مني كل شيء. أشتهي أن ترجع لي اسمي. نوّة. توحّشته. اسمي الأول كما سماني والدي. نوَّة. التي تعني المطر. أنا مطر حبيبي ولست امرأة معتوهة مثل لوليتا. في اليابان وجدوا اسمي الأصلي نوّة، أحسن من

لالو... حتى صديقي جيروم اغتصبني بطريقته، فقد سرق مني هو أيضاً ما تبقى من عفوية جسدي وحولني إلى دمية لاتيكس مثل كلارا التي أحرقتها يوماً من شدة غضبي على صديقي.

صمت يونس مارينا ولم يجب. تأمل وجهها من جديد. لاحظ أن صفرة قريبة من صفرة الموت، قد علته، لم يرها فيها من قبل. تدحرج في أعماقه صوت همبر همبر الذي غرق في تفاصيل كانت تتجاوزه.

أنت بصدد كسر حياتك وحياتي معك. لنتصرف مثل مخلوقات حضارية. هذا هذيان. أنت مجنونة. هذه الملاحظات التي وجدتها على ورقة، هي في الأصل عناصر روائية خاصة. اسمك واسمي لم يوجدا هنا إلا بالصدفة. هي هنا لأني أحتاجها قريبة مني. فكري في قليلاً. سآتيك بكاس ماء[١٦٢].

– حبيبتي؟ أنت لست على ما يرام؟

– لا... لا... مرهقة قليلاً من شدة العمل الصعب.

وضع في كفها المرتجفة كأس ماء بارد. شربت.

– عرفت السبب... هههههه

قال ساخراً.

– أرجوووووك قلل من السخرية. أنا جادة. لا أريدك أن تتحدث هكذا. ارتكب كل موبقات الدنيا. افعل ما تشاء. نم مع

١٦٢ Lolita, P:154.

المرأة التي تريد، لكن صلّ من أجلي. الصلاة حالة خاصة. يعيشك. ارتبكت عندما سمعت إماماً إندونيسياً قريباً من عائلة وحيد خان يقول الكلام نفسه. في أولى زياراتي كاد والدي أن يزوجني بأحد هؤلاء التجار الذين يجمعون بين التجارة والإمامة، لكنه رفض عندما رأى إصراري على عدم الزواج. في العمق كان والدي سعيداً لأنه كان لايزال في حاجة ماسة لي لتسيير تجارته. حضر الإمام الإندونيسي كل عروضي وأقنعني بأن الآخرة لا تتناقض مع الحياة. وأن اللذة سيدة الإيمان. شيء واحد يقربنا من الله وممن نحب، هو الصلاة. كنت سعيدة بلعبة الألبسة لأني بدأت أشعر أن عدد المعجبين كان يتضاعف في كل مرة، وأنا كنت لاأزال صغيرة على أية مغامرة. كانوا يجربون كل جديد على جسدي. في البداية شعرت بالانتهاك لكني مع الزمن بدأت أجد متعة كبيرة في ذلك. كانوا يجدون وجهي وجسدي صالحين لذلك كله. حتى وأنا صغيرة، كنت أبدو لهم امرأة مكتملة. وبالصدفة أصبحت عارضة أزياء لهم ولوالدي. ظل الإمام المجنون يقول لي إن بشرتي، منورة وتركب عليَّ كل الألبسة. من شدة ما سمعه، نسي والدي نفسه وركبني قبل أي رجل آخر، بدل الاكتفاء بالألبسة.

أحنى يونس مارينا رأسه قليلاً بعد أن أحس بآلامها العميقة.

- عذراً. سورّي عمري. لم يكن هذا قصدي. فوجئت فقط بإصرارك على الصلاة، وأنا لا أعرف حتى اللحظة إذا كنت جادة؟ أدرك حاجة إنسان مثلك إلى متكأ روحي يمنحه بعض التوازن، وهذا خيار وحق. من عاش حياتك القاسية لابد أن يشعر بهذا الاختلال.

- لقاءاتي هذه المرة وضعتني صدفها العجيبة في مسلك الإمام التاجر، الذي كان يريدني زوجة. لم يذكر لي شيئاً عن أحلامنا ولكنه دعاني أنا وكل العارضين لحفل نظمه على شرفنا في القصر. رأيت حياته الجميلة عن قرب، وهي حياة جملية خالية من البذخ الصارخ. جعلنا نكتشف إندونيسيا أخرى متصالحة مع نفسها. لم يذكر ولا كلمة عن رغبته في الزواج، سوى أنه أكد لي أنه لم يتزوج بعد وأنه سعيد بكل نجاحاتي، وأنه يتابع كل تحركاتي. لكن درسه في الصلاة جعلني أتمنى الموت فقط لأكون معك أبدياً... لكنك عمري لا تستطيع أن تفهم ذلك كله لأنه بينك وبين الحياة الأخرى غلاف من الخوف يمنعك من رؤية غير الذي تراه.

- أفهمك جيداً عمري وهذا حقك الطبيعي.

- أشياء كثيرة ربما لا تعرفها في هذه المجنونة التي ارتمت في أحضانك. يجب أن تعرفها لا لأني لا أحبك ولكن

لأني لا أستطيع أن أتفاداك أبداً. هذه المرة ذهبت إلى جاكرتا للمصالحة مع مدينة منحتني بعض الحياة، وانتهك فيها جسدي لأول مرة. على الرغم من أني أحمل ألماً كبيراً، سحرتني إندونيسيا، بلاد ال ١٧٥٠٠ جزيرة، أرخبيل حقيقي، و٢٤٠ مليون نسمة، وأكبر بلد مسلم لائكي. ساعدني الإمام في العثور على بيت التاجر سلطان وحيد خان، وهو من سلالة ملوكية قديمة أمير جافا، جده ديبونيغورو[١٦٣] الذي سجنه الهولنديون في القرن الثامن عشر. كان والدي يتعامل معه لأنه أهم تاجر حرير وكتان في جاكرتا ومحيطها. فترات عبورنا كنا ننام في نزله لأنه الأفضل والأضمن والأرخص. سأكسر لك رأسك بقصصي التي أرددها بلا توقف.

– من قال هذا الكلام؟ أشتهي دائماً سماعك.

برق في عينيها نور جميل انعكس على كل محياها.

– كنت ليلتها أعوم في المسبح بسبب الحرارة والرطوبة. جاءني بابا بعد أن تأملني طويلاً من النافذة، كما تعود أن يفعل معي وفي ذراعه ألبسة كثيرة طلب مني أن أجربها ليتخذ موقفاً حول ما يشتريه وما يتركه. كنت قد تمددت قليلاً لاستمتع بحرارة الأرضية الدافئة التي تشبه حماماتنا التركية. بدأت أجرب الألبسة وأنا غير مرتاحة من حركاته. شعر بتعبي.

---

١٦٣ Diponegoro

جاءني بكأس مانجو. شربتها. كانت لذتها غريبة إذ بسرعة شعرت بدوار يشبه حالة انتشاء. عندما أردت أن أقوم، شعرت بثقل كبير في جسدي. وبدل أن أخاف من شلل كلي شعرت بخوف كبير. رأيت فجأة وجه ابن الأمير سلطان وحيد خان، كان جميلاً ومدهشاً وطفولياً وشهياً. أغمضت عيني. نشف والدي جسدي على غير عادته وظل يضغط على أمكنة حساسة كانت تقربني من ابن الأمير أكثر مما تقربني من والدي. كنت أشعر بلمساته، ولكني كنت أجد لها الأعذار في كل لحظة. على الرغم من خوفي كنت أشعر بجسدي يتفتح كلياً كالزهرة. لم أكن أتصور أبداً أن الرجل الذي كنت أناديه بابا يفعل شيئاً مثل هذا. لعنت الأفكار الشيطانية التي كانت تنتابني من حين لآخر. شعرت بشيء غريب ومؤلم في أحشائي. تألمت ومع ذلك حاولت أن لا أفكر في شيء آخر إلا في ابن الأمير وحيد وهو يضمني إلى صدره ويلتصق بي بقوة لكي لا أغادره وأبقى معه. كان بجسدي عطش كبير لم أفهمه إلا عندما كبرت قليلاً. فجأة شعرت بشيء يشبه المطر على الرغم التمزقات التي استقرت كلها في حوضي.

في الصباح عندما أفقت، بدا لي الأمر بين حافتي الحلم والكابوس. الألم في بطني السفلي كان قوياً. ركضت نحو

الحمام. رأيت قطرات الدم وشممت رائحة في جسدي لم أعهدها، تشبه رائحة الخمائر. بجهد مضن تذكرت بعض المشاهد المرتبكة، ولكنها كلها كانت تتوقف عند حدود والدي وهو يمسح جسدي من الماء. ثم وهو يمنحني كأس المانجو. أردت أن أسأله، كان لايزال يغط في نوم عميق، ولكني أحجمت إذ خفت من سخافتي وقلت ربما يكون مجرد كابوس والدم ليس أكثر من دم العادة الشهرية أو تسربات لأن العادة لم يمض عليها عشرة أيام. في طائرة العودة إلى باريس ومنها إلى الجزائر، عادت كل الصور بشكل واضح وغريب. أدركت درجة البشاعة التي كانت فيه. البقية تعرفها. هربت منه في المطار وسلمت نفسي للشرطة التي أثبتت قيام الاغتصاب في المستشفى الذي بقيت فيه أكثر من أسبوعين. وأثبتت تحاليل ADN أنه والدي. أخي الذي بعثه والدي لاستعادتي إلى البيت كان أسوأ منه. كان نسخة أصلية منه. صارحته بكابوسي، بكل التفاصيل الكارثية. لكنه مثل الثور الهائج كاد يأكلني. عندما أصررت على رأيي وأظهرت له التحاليل التي لا يمكن تكذيبها. ضربني على وجهي. لم أسمع إلا كلماته تتساقط على وجهي كمطر من العقارب وكل جسدي يتنمّل من شدة الضرب: يا تافهة، نذلة، أيتها المومس الحقيرة؟ أنا نورّي

لك ما معنى الاغتصاب؟ بابا ليس نذلاً. سأقتلك. فعلتها مع غيره وتريدين أن تلصقيها بوالدك. لم أسمع إلا قفل حزامه وهو يفتح، وصوته الذي تضخم درجة الخوف. وينزل ضرباً على جسدي حتى فقدت الإحساس به وبكل ما كان يحيط بي. لحظتها شممت رائحة الموت مرة أخرى وعاودتني صورة والدي من جديد التي تشبه أيضاً رائحة الخمائر والضباع التي لا أعرفها ولكني تخيلتها. ذهبت لحديقة الحيوانات لأشم روائح الضباع، فقط لأتأكد أنها هي بالفعل ولم أكن مخطئة. شممت رائحة أخرى، أكثر تحملاً، وأقل كرها من رائحة أبي. عندما استيقظت، صرخت حتى سمعتني صاحبة الدار فجاءت نحوي، وفكت قيدي، واقتادتني إلى أقرب مستشفى من جديد، وهناك بقيت أسبوعاً تحت الرقابة الطبية قبل أن تأتي الشرطة وتأخذ إفادتي عن أخي. تقيأت يومها طويلاً. سمعت أنه هرب مثلما فعل أبي. بعدها حملت من وحش اسمه والدي. تخيل طفلة حامل؟ هو مطلوب في فرنسا وأنا مطلوبة في وطني لأن بابا قدم ضدي شكوى بالاعتداء عليه. سهّل علي مهمة العودة إلى أرض لم أعد أحبها لأنها جرحي العميق. فكرت طويلاً وبكيت كثيراً كيف أتعامل مع طفل هو ابني وأخي في الآن نفسه. لكن المرشدة النفسية أعانتني على تحمل الصدمة

وأقنعتني بإسقاطه. فعلت وأنا في قمة حرقتي. قتلتُ ابني وأخي. وأقسمت أن أموت هنا، حتى جثتي، إذا بقيت لي جثة...

ثم أحنت رأسها بانكسار وهي تردد: جثة؟

– لك جسد جميل عمري وليس جثة.

– بوووف. خليك، أنت طيب. مجرد ركام من العظام، والجلود التي تحولت إلى بلاستيك وكأن الاغتصاب كون لي حقداً ضد نفسي. ستُجمع يوماً في كيس بلاستيكي أسود وتنتفي علاقتي بالأرض نهائياً، علاقة كان علي أن أصوبها لأستطيع العيش، لكنك أربكت كل شيء في. كنت مرتاحة أن هذا العالم كاذب، مجرد غواية جميلة مفرغة من المعنى. بنت اللامعنى. كنت أحسد جيروم على انتحاره. جيروم الذي كان أشجع مني. أرأيت حبيبي كم أنا مخيبة؟ ولهذا عندما التقيت بالإمام التاجر واللطيف والطيب، كان جسدي وقلبي منفتحين أمامه إذ مرت بي كل الصور. كان الوحيد الذي طرد عني الخوف. قال لي جربي الصلاة. صليت مرة، مرتين... بدأت أحس بأن ما قاله لي كان صادقاً لأني وجدت بعض الراحة النفسية. ثم أعطاني كتيباً بالإنجليزية. قرأته بحماس لأنه قال لي إنه يخص علاقتي بك، وفهمت أن العاشق المصلي يأخذ معه حبيبته وسيفضلها عن كل الحور، وسيسمح له الله.

لم يجد يونس مارينا أية كلمة يضيفها إلى الحالة التراجيدية التي كانت تشتعل في داخلها.

– عذراً عمري...

– لا تهتم حبيبي. أنا ذهبت لعرض أوريونت فاشن[١٦٤] الأخير، لسبب بسيط ولم يكن عملي إلا مطية. كان يهمني أن أواجه القدر الذي صنعه لي أبي بقوة وشجاعة وبلا تردد إن أردت أن أستمر في الحياة. العرض كما قلت لك كان ممتازاً وجميلاً. كل شيء جرى في قصر الأمير وحيد خان الذي ربطته علاقة صداقة كبيرة بوالدي. في البداية عندما قبلت المشاركة في عرض الشرق الكبير كنت مترددة أمام وكيلي الذي أصر علي بجنون وهو يردد: كل شيء في هذا العرض بني على مقاسك. وبعدها قلت علي أن أواجه بكل القوة التي تليق بألمي، وإلا فأنا لا أستحق أن أكون. والدي كسرني، ولكني قمت من الرماد القاسي. كان العرض مدهشاً وكنت جميلة في الألبسة الحريرية التي اقترحت عليَّ. أؤمن تماماً أن العرض ليس جمالاً فقط، ولكنه شيء أعمق. فقد يكون الجمال بارداً ولا يحرك شيئاً في من يتفرج عليك ومعلق على كل حركاتك. هو أناقة وحركة جسدية ولغة يجب أن توصلها لمن يراك وإلا فأنت غير صالح لعمل مثل هذا. ليلتها غرقت في مقترحات

١٦٤ Orient fashion.

وطلبات مجلات عديدة وشركات الأجهزة الإلكترونية. كلها كانت تريدني. ومجلات آسيوية. في ليلة من الليالي كنت في قصر الأمير، اقترح علي العشاء على حافة المسبح، بالضبط في المكان الذي شربني فيه والدي مانجو ودس فيه مخدراً، فبدا لي كأني كنت وسط غيمة كانت تضغط في كل لحظة على أنفاسي لدرجة الاختناق. رأيت المكان، ورأيتني ممدودة قبل سبع سنوات. طفلة تردح مثل الشاه الذبيحة. كان الأمير يعرف جانباً من قصتي مع والدي وأخي. قال الأمير عندما استمع إليَّ طويلاً: يجب أن يموت التمساح في مكانه. بكيت كثيراً. بكيت. بكيت. ثم دخلت إلى التواليت وتقيأت كل داخلي. عندما عدت. مسد الأمير سلطان وحيد خان على رأسي، وقال:

– أنا أيضاً حزنت لما حدث. الوضع قاس.

– لا يهم يا سيدي. حنانك غامر وأعظم من كل شيء.

– والدك، مولاي أحمد، أصيب بالشلل النصفي. أقسى من الموت. كان يفترض أن يموت أحسن له. هذا ما قاله لي أخوك الذي عوّضه في تجارته.

ترددت في الإجابة. لأني لحظتها رأيت الطفلة البيضاء الصغيرة، وهي تقوم بالعمليات الحسابية الأكثر تعقيداً لوالدها الذي لم يكن يساوي شيئاً دونها. وترتدي الألبسة الجميلة

لتقنع المشترين أنها جميلة. طفلة بدأت في عمق الغواية وهي على يقين أن الغواية نفسها ستسحبها نحو قبر مجنون.

سألته وكأن أمره كان يهمني مع أني نسيته نهائياً ومنعت أمي من الحديث عنه.

- هل لك تفاصيل يا سيدي عن شلل والدي؟

- أخوك هو من أخبرني. تعرض لنوبة قلبية، دخل بعدها في غيبوبة كبيرة وخطيرة. لا تهتمي، أخوك هنا ولا يعرف بوجودك. اللهم إذا شئت أن نخبره. تركت حضوره سرياً بعيداً عن هموم التجارة. أعرف جيداً خلافك مع أسرتك، هم يرفضون كل شيء يأتي منك. وأنت مصرة على حقك في الانفصال عمن اغتصبك. من حقك يا ابنتي.

كان الأمير هو نفسه من وفر لي الدفاع عن نفسي، وأعفاني من أي تبرير لم أكن مؤهلة له أبداً. في تلك الليلة أكلت. وشربت. حتى ابنه حميد خان الذي كان يحبني ومرفقاً دائماً بالإمام التاجر، اقترح علي الزواج ولكن والده نهره بأدب. قال له معاتباً: لملاك مسؤوليات أكبر. زوجها ينتظرها. كنت أفهم ما كان يقوله ومؤمنة به. كان يتكلم عن مكتوب خطته السماء. كان يناديني ملاك. هذا الاسم أنساني اسمي الحقيقي وأراحني من اسمي العائلي، ومن لالو التي لا تعرف المجلات الملونة

ومراكز الدعاية غيره، حتى من نوة، الذي كنت أحبه كثيراً لأنه مرتبط برذاذ المطر، ولو أنه كان يحمل بصمة والدي.

– على الأقل سمح لك بتجاوز جرحك ومواجهته.

– وأيقظ جروحاً لم تكن في الحسبان. في آخر الليل عندما صعدت لأنام، انتبهت لرقم الغرفة كان هو نفسه، رقم غرفتي التي اغتصبني فيها والدي. حاولت أن أغادرها لأني شممت رائحة الخمائر في كل زواياها، ولكني لم أرد أن أثير أي شيء يؤذي ذلك الرجل الكريم، الأمير وحيد خان، الذي أكرمني وجعلني أتعامل مع جرحي بشجاعة. ركضت نحو الحمام. تقيأت. رأيت كل ملامحي التي ذبلت فجأة. وجهي كان متعباً ولم أكن سكرانة ولا غائبة عن وعيي. فجأة انفتح الباب من ورائي. ثم أغلق بهدوء. ثم انعكس الوجه المرعب في المرآة. أغمضت عيني إذ ظننتني في عمق الكابوس الذي هربت منه. كانت قسمات الوجه العابر للحمام مظلمة. زادت روائح الخمائر. أردت أن أصرخ، ولكن شيئاً سد حلقي. كانت يده الخشنة قد طوقت رقبتي نهائياً وبدأت تضغط. وامتدت اليد الأخرى نحو الحزام الذي نزعته ولفته نحو رقبتي. حتى تلك اللحظة كنت أظن أنه مجرد كابوس. عندما تحسست أصابعه وجسمه وحزامه عرفت أنه أخي. خرجت مني صرخة واحدة

كادت تفجر رأسي وكانت تشبه زعيقاً. في اللحظة نفسها وأنا أتخبط في الحمام، دخل علينا عسكري، لم يتردد لحظة واحدة في أن يطلق عليه النار، فسقط في بركة من الدم. ثم لحق به عسكريان آخران. سحبوا جسد أخي خارج الحمام. لحق بهم، بعد دقائق، الأمير وحيد. ضمني إلى صدره. شعرت بقوة حنانه الذي لم يكن يشبه في شيء أبي. كنت في حاجة ماسة إلى ذلك لحظتها. لم يخرج مخي عن فكرة الكابوس الذي سرعان ما ينجلي. خرجنا من القصر، ومن الغابات، وأعادوني في الليلة نفسها إلى الفندق لأني أصررت على ذلك، ولأستعد لسفرة طوكيو. في الصباح الباكر زارني الأمير وحيد خان للمرة الأخيرة في الفندق. قلت له إنه علي، قبل السفر، أن أقدم إفادتي للشرطة. هناك جريمة قتل. قلبي كان منتفخاً ولم أكن متأكدة مما رأيته. قال لي الأمير: لا تشغلي بالك. هو لم يمت. مجرد جرح اخترق عظمة الظهر ولم يمسس أي عضو حيوي. وتمنى لي سفرة هادئة واعتذر عن كل ما حدث لي. ولم أفتح عيني إلا وأنا في مطار طوكيو نارينا، واستلمت حقائبي غير منقوصة، مع بقية الفريق. لكني لم أتوقف عن السؤال حتى اللحظة: هل ما حدث لي كان حقيقة أم مجرد كابوس؟ أفضل أحياناً أن أدخل في غيبوبة لكي لا أرى شيئاً.

التفتت لوليتا مرة أخرى لتغرق في حيرة عيني يونس مارينا:

– هل الحياة حبيبي بهذا الرخص؟

– رخّصوها وابتذلوها.

– هل عرفت الآن البراكين التي قتلتني واجتاحتني؟ كنت أريدك أن تعرفها ونحن نستعد لسفرتنا الأخيرة التي ستقذف بنا حتماً خارج الزمن.

نظرت آلياً إلى الساعة مرة أخرى.

فجأة نزل عليها بعض الهدوء المفاجئ. دخلت إلى دورة المياه. عدلت من هندامها قليلاً وكأنها شعرت للحظة أنها خسرت أنوثتها. أخرجت أحمر الشفاه وكتبت: أريد أن أصنع معجزة: كيف أقفز إلى قلبك فقط لأطل عليك وأقول لك ياااااه لو تدري كم أحبك؟ اختطفني إلى مدنك لأختبئ في عينيك. لقد أصبتُ بعدواك ولم أعد قادرة على تفاديك. قلبك ينزل علي كمطر. سأركض العمر كله فقط لأراك وأحبك يا هبلي العظيم[١٦٥]. مهبولة إلى آخر رمق.

بقيت لحظات لا يدري كم استمرت ولكنها بدت بلا نهاية. فجأة شعر بلسانه مغلقاً. حاول أن يجد كلماته وإن بدت له كل لغات الدنيا باردة كقطعة ثلج.

---

١٦٥ حديث ومتفتح من الإنجليزية Modern

- أعتذر عمري أني حركت كل جروحك القلقة. غيرك ما تحمل كل هذه القسوة.

- الناس لا يرون حبيبي إلا المرأة البلاستيكية. الجميلة ذات البشرة الناعمة، والقامة الممشوقة. التي يتمنون ليلة معها قبل أن يؤكدوا لأصدقائهم الحميمين أنها لا تختلف مطلقاً عن الأخريات، وربما كانت أفظع. لا يرون ما يتخفى وراء مشاهد الموت؟ أبأس موت هو عندما يأتيك مسؤولك ذات صباح ويقول لك خلاص انتهى دورك. كبرتِ وأنت لم تتخطي عمر الطفولة إلا بقليل، ابحثي عن شغل آخر. أو... إنك سمنت قليلاً ولم تحذري على قامتك؟ كنت تأكلين بلا نظام؟ ويغلق ملفك وكأنك لم تكوني أبداً. لم تجبني؟

- ماذا أقول أمام ذعر ما رويته؟

- أبدو لك مركبة، متشابكة، معقدة جداً؟ ربما حتى أكثر من اللازم؟ مع أنك غيرت في الشيء الكثير. لأول مرة أصادف رجلاً لا يأمرني بأي شيء. يحبني مثلما أنا. لا أحلم إلا أن أسافر معك على متن غيمة، لا قوة في الدنيا توقفها. أحيي المطر والعصافير الهاربة وألعب مع الفراشات، وأقطف الزهور ونوار البنفسج البري، وأكوّن بها طوقاً من الياسمين، أضعه في عنقك وأعلن لك عن حبي. وأسعف الغيوم المتشابكة كي لا تتقاتل،

ولا أسمع أية رعود. ولكن؟ هشاشة الحياة هي هذه. نحاول أن نغير مسار الأشياء وفجأة نكتشف أن المرض الذي نعانيه أكبر مما نتصور. لمسة واحدة لا أكثر، لينفجر كل ما شيدناه إلى آلاف الجزيئات والذرات في الفضاء الواسع. نتحول فجأة إلى برميل من البارود ولا ننتظر إلا اليد التي تشعل فتيله.

سحبت لوليتا علبة فوغ Vogue البنفسجية من حقيبتها اليدوية الصغيرة. أخرجت سيجارة رقيقة وناعمة شكلها وحده يغري لحرقه بين شفتين منهكتين.

- سيجارة واحدة غير مقلقة.

ثم ضحكت قبل أن تواصل.

-الدخان مكروه وليس محرماً. ههههه

- ما ضر قليله، كثيره حرام.... ههههه؟

- لم أعرفك بكل هذا التفقه. أوكي.

حاول أن يصطنع ضحكة هاربة، لكن القلب كان ممتلئاً. كانت تريد أن تظل وحيدة. اشتهى أن يقبل يدها مثلما فعلت معه في المرة الأولى، لكن المسافة بينهما كانت بحجم طاولة.

- السيجارة هي أكبر تلذذ بالموت. أنت تقول عكس هذا بسبب موت صديقتك التشيلية، إزميرالدا، بسبب التدخين. أنت

أيضاً تدخن ولم توقفه.

– خلينا من هذا كله. ما رأيك لو ننسى كل شيء. أعرف أن جرحك غائر، وجيد أنك أخرجت دمه المتفصد وقيحه. نخرج قليلاً نحو الثلج؟ المدينة مذهلة الآن.

– لا حبيبي. أريد أن أبقى معك قليلاً لأشبع منك. هل تدري أنك إذا صليت وناديتني في يوم الحشر وقلتَ أريد حبيبتي نوَّة، ستضعني الملائكة بين يدك؟

– مازلت أعتقد أنك لست جادة.

– لا أمزح حبيبي. أنا مقتنعة بذلك وأنت تعرفني. أنام معك، لأني أحتاج إلى جسد فيه من القوة والعطف والحنان ما يأسرني. جسدك وعطرك أنسياني رائحة الخمائر التي تدفع بي إلى التقيؤ. أحياناً أشعر أني أنا من قتل جيروم من كثرة المنع والتردد، وأنا من دفع به نحو دمى السليكون واللاتيكس، حتى تشبع بروائحها ومراهمها وعطورها. لو لم أحرق كلارا، كنت طالبت بدفنها معه لأنه كان يحبها ويتحدث عنها كمن يتحدث عن امرأة حقيقية يحبها. كنت كذبت على أهله وقلت إنها وصيته.

رأى في لحظة من اللحظات الهاربة، شيئاً يشبه الخوف. نظرت إليه وعيناها مثبتتان على الساعة الحائطية القديمة.

لم تتوقف أصابعها عن الارتعاش منذ اللحظة التي تحدثت فيها عن والدها وعن أخيها. كانت السيجارة ترتجف أيضاً بين أصابعها بقوة. خاف عليها من السقوط. حاول أن يسحبها نحوه بحنان، ولكنها تمنعت:

– أرجوك حبيبي. خليك في مكانك. نحن ملاح كما نحن. أتمنى فقط أن تحبني يوماً بالشكل الكافي، وتصلي يوماً من أجلي. أعتقد أني أحببتك، ومازلت قادرة على الموت لحمايتك من نفسك ومن الآخرين. القتلة في البلاد كُثُر، وهوياتهم تعددت.

– طول العمر حبيبتي. ما تخوفينيش.

– أبداً ما أقوله، يأتي من قلبي.

نظرتْ إلى الساعة مرة أخرى. لاحظ يونس مارينا ذلك كله.

– أنت منشغلة بالوقت. طيب لوليتا، ربما كنتِ مرتبطة بموعد ما؟ لا يهم. أتفهم هذا جيداً. روحي إلى موعدك وتعالي إلى قلبي. لا يمكن أن نمضي نهاية السنة داخل فقاعة الألم. أحتاج إلى قلبك وابتسامتك.

– ما عليهش خليك في مكانك قبل أن أغير رأيي وأحتضنك حتى الموت.

– افعلي. ولكن لا تموتي.

– قلت لك حتى الموت. أي أن احتضاني سيكون قاتلاً. من الأفضل أن أخرج الآن.

قالتها وهي تثبت عينيها من جديد على الساعة الحائطية.

رن تليفون الغرفة فجأة واضعاً حداً للسكينة. ثبتت عينيها فيه. انتظرت أن يقوم يونس مارينا، أو يردّ، ولكنه لم يفعل. رنّ ثلاث مرات متتالية ثم سكن. قبل أن يرتسم على شاشة التلفزيون المفتوح على صورة لنزل فوُكِتسْ– بَارْيِير، وخدمات الغرفة: Vous avez un message sonore[١٦٦]. لم يأبه لذلك ولم يعره أية قيمة.

– ألا ترد؟

– سألته لوليتا وهي تنظر من جديد إلى الساعة.

– لا.

– طيب. سأنسحب الآن.

فكر أن يتبعها ويسحبها من أصابعها الناعمة كما تعود أن يفعل، يضمها ويقبلها. لكنها مدت له أصابعها الناعمة من بعيد. شعر ببرودة يدها على غير العادة على الرغم من نعومتها الحريرية. لم ير شيئاً في عينيها، إلا لمعة هاربة لم تستقر على أي لون. همس بخوف عليها.

١٦٦– لديكم رسالة صوتية.

- نوّة. حبيبتي. اذهبي وعودي بسرعة. لا يمكن أن نترك هذه الليلة تموت في البرودة والعزلة.

- نـوّة. لوليتا. ملاك. لا تخف عمري. كل شيء يتساوى في هذه اللحظة، حيث لا شيء غير البياض الذي يتجاوزنا ولا سلطان لنا عليه. خليك في مكانك حبيبي. لا تتعب نفسك. أحسن لي ولك.

- أعرف أنك مجروحة جداً. أنت لست في يومك. قلقة جداً؟

- لست متعبة. اليوم تخلصت من أثقال كبيرة لم يبق منها إلا القليل. ليس مهما. بعد قليل لن يبق أي أثر للألم، وسيسكن كل شيء نهائياً وأصبح أخف من فجر ساحلي.

- يا ريت. أحتاج لك أخف من فجر. نعم.

نظرت إليه طويلاً. بدت له فجأة عيناها فارغتان تخفيان خوفاً مضمراً. وبان ضياع خزرتها وكأنها لا تعدو أن تكون مجرد شخصية أدبية وسط تيه لا ينتهي أبداً. مجرد لغة عرضة لكل محن المحو وعواصف الذبول وتراجيديا النهايات القاسية التي نسجتها الكلمات القلقة.

- خائفة عمري؟

- نعم.

قالتها دون تردد، قبل أن تستدرك.

– ليس بالضبط. قلقة فقط.

نظرت إلى الساعة آلياً. أغمضت عينيها للمرة الأخيرة.

– لا تقلق حبيبي. سنحتفل بأجمل عيد ميلاد في حياتي. وبرأس السنة. سأخرج حبيبي، وسأعود لك بعد قليل نوراً منفلتاً، شظايا نجمة هاربة، في عرس من الألوان المعمية.

ثم غابت في عمق الحمام. لم يسمع إلا تكسر المياه وقلق البياض الذي ارتسم على كل الجدران. كان يعرف جيداً أنها قلقة، ولكن ليس إلى هذا الحد.

وقبل أن يلمس رؤوس أصابعها مرة أخرى، كانت قد خرجت دون أن تغلق الباب وراءها على غير عادتها، هي التي تخاف من كل حركة. حتى أنها علمته من شدة إصرارها على غلق الباب آلياً عندما تنشغل لوليتا بشيء ما. أراد أن يتبعها، ولكن حركة يدها جمّدته في مكانه. كان يعرف عادتها جيداً ويحبها كلما نزلت. على يقين من أنها ستبعث له قبلة من تحت محملة بندف الثلج التي يذوب جزء منها في الطريق من شدة حرارة القبلة.

أغلق آلياً الباب وراءها.

أطل من النافذة ليراها من هناك وهي تسترجع ألقها. رأى اتساع شارع الشانزيليزيه وكثافة الناس الذين بدأوا

يتكاثرون. لقد غاب كل شيء تحت الثلج الذي لم يتوقف. أحنى رأسه قليلاً. لم يرها. لم تخرج بعد من النزل على الرغم من أنه سمع المصعد ينفتح ويغلق وينزل بسرعة.

يعرف جيداً أنها لن تذهب دون قبلتها الهوائية التي عودته عليها.

رن التليفون من جديد ثلاث مرات متتالية. ثم ثلاث مرات أخرى. بلا جدوى. ليرتسم على الشاشة مرة أخرى في الزاوية التحتية: Vous avez trois messages sonores[١٦٧]

تأخر ظهورها في الطريق.

أخذ الورقة التي تركتها على الطاولة القديمة بعد أن خربشت عليها كلمات كثيرة ورسومات سريالية. فتحها. لم يكن بها شيء كالعادة إلا جملتها التي تعودت عليها منذ أن عرفها، منذ اللحظة الأولى: أحبك يعني أن أكون لك حتى اللحظة الأخيرة حتى عندما ترفض أن تشبهني. لن أطلب من الله أكثر من أن يضعني بين يديك كفاكهة الجنة، أو كفراشة تحرس العمر كله لكي لا تفقد ألوانها الهشة.

– مهبولة...

تمتم يونس مارينا.

١٦٧ لديكم ثلاث رسائل صوتية.

لا يعرف إذا ما كانت قد سمعته أم لا، ولا يعلم إذا كان صوته قد خرج من فمه أصلاً. لم يكن الأمر مهماً. كان يشعر بقربها الغريب وبحرارة أصابعها وجسدها الطفولي.

وسع أكثر من فتحة النافذة ليدخل هواء بارد جداً مصحوباً بقطع هاربة من الثلج. كان المشهد جميلاً في أجمل شارع في الدنيا. خفت الثلوج وأصبحت تتساقط بهدوء، في إيقاع جميل وبطيء.

انتظر خروجها وقبلتها الهوائية الهاربة حيث تمد أصابعها الناعمة نحوه، وتفتح كفها عن آخره، ثم تنفخ على أصابعها نثار قبلة باتجاهه، تتدرج طويلاً قبل أن ينام على شفتيه

ماااححححححححححححححح.

-٤-

رن التليفون ثلاث رنات ثم توقف بشكل جاف وكأن يداً خنقته.

سجلت الشاشة في الزاوية التحتية. لديكم أربع رسائل صوتية. اضغط على زر الرسائل الموجود في أسفل التليفزيون لسماعها. لكنه لم يأبه لذلك. لا يريد أن يعكر صفوه أي شيء.

الثلج كان يحجب الرؤية قليلاً ولكنه سيراها عندما تغادر مدخل النزل. آخر شيء سمعه في بهو النزل هو حركتها السريعة ووقع خطواتها وهي تتجه نحو المصعد بسرعة وكأنها كانت متأخرة عن عملها أو عن موعد مهم. ثم سمع صوت المصعد الخافت وهو ينزلق بهدوئه المعتاد.

فجأة رآها في الشارع للمرة الأخيرة أيضاً. خرجت بسرعة. شعر بسعادة غامرة.

لم ترفع رأسها وهي المرة الأولى التي تفعل فيها ذلك. نظرت إلى الساعة التي في يدها. ثم دخلت بسرعة إلى مقهى الفوكتس الذي كان يعج بالبشر. استغرب كثيراً هذا الدخول. هي تكره الفوكتس وتعتبره أكبر كذبة اجتماعية. فكرة أنه

المكان المفضل لكريما المجتمع وزبدته، أكبر كذبة. كان الناس هادئين، يشربون قهوتهم أو يأكلون، في الداخل وفي الشرفة الخارجية المتماهية مع الشارع والمغطاة. البرد لم يمنعهم من التمتع بالجلوس في الشرفة. أغلب الناس كانوا من السياح الأجانب الذين جاؤوا ليحتفلوا برأس السنة في هذا الشارع الذي تتلألأ أشجاره بفاكهة النور.

ما الذي أدخلها مكاناً تكرهه بشدة؟ تساءل يونس مارينا. تذكر جملها القاسية:

– «لو كنت حاكمة كنت محوت رب هذا المقهى من الوجود. كل ما فيه كذب. بعض الناس عندما يدخلونه عليهم أن يتركوا صورهم الحقيقة عند العتبات، ويلبسون الأقنعة. كل الصفقات التي عقدتها مع وكيلي الفني كانت ألعاباً وكذباً في ذلك المكان. حتى القهوة التي يقولون إنها برازيلية، ليست إلا من زبالة الفئران المحروقة. لاحظ كلهم يلمسون مؤخراتهم كمن يخاف عليها من الهرب أو الانفلات؟ لو كنت إرهابية كنت اخترته كأول مكان لتفجيره وتدميره قبل أي موقع آخر لأنه الكذبة الأكبر في باريس.

– وااااو يبدو أن غضبك شديد العمى. مع أن المكان لطيف. إلى هذه الدرجة من الكراهية؟

– وأكثر نعم. والدي نفسه كان يعبر من هنا. يلتقي مع بعض زبائنه من المغرب العربي والخليج، وبعض التجار اليهود والإيرانيين، قبل أن يفرض عليه اغتصابي مسلكاً آخر. فعوضه أصدقاؤه الذين يشتغلون معه. التقيت أحدهم في مرة من المرات في الفوكتس، وحاول إغوائي. لم يذكر لي حتى علاقته بوالدي. وعندما فشل في محاولاته المكشوفة، انفصل عني للذهاب إلى مكان آخر، معللاً ذلك بموعد مهمّ. مع أنه هو من دعاني للغذاء. حيوانات مفترسة والفوكتس زريبتها. أنا لا أتحدث عن العابرين والسواح الذين يحلمون بشرب قهوة في الفوكتس ثم ينسحبون، أتحدث عن الذين يعقدون صفقاتهم الكاذبة هناك. عن الذين يحتفلون في زواياه المظلمة. يوجد الكثير من الكذب في عالمنا الذي لا يعدو أن يكون صفقة مربحة للقتلة.هناك كذبة معممة. من دخله يصاب بعدوى الكذبة المعممة.

– استغرب من كل هذا الحقد. هو في النهاية مجرد مكان يلتقي فيه من لهم مال زائد يريدون بعثرته في قهوة يمكن أن يشربوها في أي مكان آخر بثمن أرخص. هي الذنب اللطيف[١٦٨] كما يقول الفرنسيون.

– اعذرني حبيبي فأنا جد منفعلة. الظلم يؤذيني.

١٦٨ Le péché mignon.

– ولا يهمك من مر بظروفك لابد أن يتصرف بذلك الإحساس على الأقل.»

بدت له يومها صادقة أكثر من أي زمن مضى. فجأة شم عطرها الهادئ القريب من رائحة البسكويت: خرجت... مازلت أشم ذلك العطر الناعم القريب من المسك، وصابون التواليت الذي سرقته من خادمة أمها الإسبانية. تتماهى مع رائحة جسدها التي تشبه البسكويت وحواسي المتوفزة[١٦٩].

عندما سمع رنة التليفون مرة أخرى، كانت لوليتا قد خرجت فجأة من الفوكتس. نظراتها ضائعة كانت كأنها تبحث عن شيء كان ينزلق منها بسرعة. أوكأنها كانت في سباق مع الزمن. هذه المرة أيضاً لم ترفع رأسها تجاهه. لم تلتفت يميناً ولا شمالاً. عينها مثبتة على ضوء المرور الأخضر، وعلى ساعتها وعلى حركة المرور التي قلّت كثيراً بسبب الغلق التدريجي لشارع الشانزيليزيه قبل الغلق النهائي، بمناسبة نهاية السنة.

انتظر أن تلتفت نحوه. كانت بالضبط في مرمى بصره إذ لا يمكنها أن تخطئه لو أدارت رأسها ورفعته قليلاً. دخلت في عمق الشارع عندما اشتعل الضوء الأحمر في وجه سيارات قليلة، بينما بقي الناس على حافة الرصيف. كانت لوليتا

---

١٦٩ Vladimir Nabokov: Lolita, Gallimard, p:24.

تحتل شارعاً شبه فارغ. لم يفهم ما كانت تفعله. ربما كان أحد جنونها تريد أن تسم به رأس السنة.

ابتسم يونس مارينا، مع حيرة عميقة.

توغلت لوليتا أكثر في عمق الشارع تحت الأنوار التي كانت تخترق بألوانها الأشجار والبنايات والمحلات الكبيرة وقاعات السينما. كانت الثلوج الكثيفة تجعل الحركة ثقيلة. الناس واقفون على الرصيف في انتظار العبور واشتعال الضوء الأخضر.

فجأة رفعت رأسها نحو يونس مارينا. شعت ابتسامتها بقوة. هذه المرة لم تنظر إلى الساعة. كأن الشارع كان لها وحدها. شعر بسعادة غامرة لأنها لم تنس عادتها الجميلة في هذا اليوم بالذات. كان شبه متأكد من أنه مجرد هبل من جنون نهاية السنة، وستعود ركضاً نحوه لينهيا الليلة الكبيرة مع بعض. ليلة ميلادها، وليلة رأس السنة. وليلة جنون الشوق.

زادت قوة الثلوج.

فتحت يديها بشكل صليبي، إلى آخرهما، ثم جمعتهما ومددت كفيها نحو النافذة التي كان يونس مارينا معلقاً فيها. ثم نفخت بشفتيها وبعثت بقبلة هاربة نحوه.

تدحرجت القبلة في فراغات الثلج كالعصفور الجريح.

وما كادت ترفع رأسها من جديد نحوه، وتعيد الحركة نفسها بقبلة أخرى، حتى لمع برق معمي للبصر. انفجرت بكلها. فتطاير جسدها الهش في كل اتجاه مشكلاً حرائق صغيرة ظلت مشتعلة في مكانها على كتل الثلج. تبعتها لحظة بياض تجمد فيها كل شيء. النظر. حركة الناس. الصور. الأضواء. السيارات. الناس. توقف أيضاً تساقط الثلوج للحظة. انسحب وجه لوليتا الطفولي نهائياً من المشهد، وحل محله فراغ شديد البياض مثل ضباب حليبي نزل فجأة على ساحل مهجور.

شعر فجأة بمريم المجدلية تقوم داخل اللوحة، من على الكرسي الذي كانت تجلس عليه، تنظر نحو الخارج. تنفصل من لوحة الذبابة وتخطو خطوات مرتبكة، ثم تعود إلى اللوحة لتطفئ القنديل الزيتي الذي كان لايزال مشتعلاً، قبل أن تسرع الخطى وتغادر المكان، تاركة وراءها عتمة كلية. لم يسمع وهو في الشرفة إلا الصرخات الخارجية ممزوجة بصوت المصعد الذي أصبح خشناً محدثاً صوتاً قاسياً شبيهاً بصليل السلاسل.

أغمض يونس مارينا عينيه، تفادياً للكابوس الذي رآه قبل لحظات، وعندما فتحهما كانت الصور البشرية قد عادت إلى حركتها التي ثبتتها قوة الانفجار. كان محيط الأمان قد

وسعته الشرطة أكثر بأشرطتها الحمراء. بينما امتلأ الشارع بالمارة وبالهواء الذي دخل بقوة إلى عمق الغرفة. ثم رأى سيارات الإسعاف تقف على حافة مربع الأمان. كانت أصواتها مخنوقة، قبل أن تخفت وتتوقف. أضواؤها المشتعلة انكسرت في كل الأمكنة على كومات الثلج الذي زاد سقوطه بقوة.

عندما التفت وراءه رأى اللوحة التي كانت لاتزال في مكانها. وجه امرأة في العتمة. ولكنه هذه المرة تغير المشهد أيضاً. لم ير إلا الشمعة المطفأة والجمجمة التي اتسع حجمها واحتلت مكان سيدة العتمة. وتشققت مرايا اللوحة من شدة الانفجار الذي سرق جسد نوّة، رذاذ، أنزار، ملاك، لالو، وحتى لوليتا.

بدا له كأنه سمع صوتاً يأتي من أغوار سحيقة. عندما رفع عينيه نحو المصدر، رأى فراغاً يضيئه ضوء بارد محا كل شيء حتى العلامات الصغيرة وتفاصيل الغرفة التي اهتزت من شدة الانفجار. حتى الأجزاء الناعمة من جسد لوليتا الطفولي، انمحت هي أيضاً وبدت شعلاتها مثل لوحة مارشيلو، أو دولاتور، لم تبق منها إلا بقايا النار، التي رمت كل التفاصيل في الظلمة. سمع جملتها المحاطة بسيل من الغضب، وهي تلتفت نحوه قبل أن تستسلم لصمته:

- C’est quoi le mal absolu dans un monde qui

se redéfini dans le mal[١٧٠]? Tu ne vois pas les vieux démons qui se réveillent? regarde autour de toi, tout s'écroule d'une manière effroyable. Même le monde que tu crées dans le langage ne peut y échapper? réveille-toi mon père, mon vieil ange, mon Marina Adoré. Ce n'est pas du ténébrisme, moins encore du nihilisme, c'est juste un retour à la vraie vie. Nous vivons en plein mal absolu, on n'a pas besoin de le définir, il se fait par le mal lui-même.

كان يريد أن يسألها فقط عن فكرة الشر المطلق. ولكن الفكرة بدت له بعيدة جداً. لقد قضى ليلته ما قبل الأخيرة معها يتحدثان في الفكرة.

فجأة سمع صوتها الحزين يخترقه بعنف: سيتحدثون يا صديقي حتماً عن إرهابية فجرت نفسها في الساحة العامة، جاءت لقتل يونس مارينا، وعندما لم تستطع فكرت في الفوكتس، وعندما لم تستطع فجرت نفسها هرباً من أيدي الأمن الساهر على راحة المدينة.

---

١٧٠ ما معنى الشر المطلق في عالم يعاد بناؤه على الشر؟ ألا ترى الشر القديم يستيقظ من جديد؟ انظر من حولك، كل شيء ينهار بشكل مفجع، حتى العالم الذي تنشئه داخل اللغة لا يستطيع أن ينفذ من ذلك. استيقظ يا أبي، وملاكي الهرم، مارينا المعشوق. ليست نظرة معتمة ولا حتى عدمية، مجرد عودة إلى الحياة الحقيقية. نعيش في صلب الشر المطلق، لا نحتاج لتعريفه، يعرف نفسه بشروره.

سيقولون أكثر من ذلك كله يا عزيزي. هي امرأة سرقت لوحة دولاتور: توبة مريم المجدلية، من مخازن متحف اللوفر، وكانت تريد بيعها. كانت الشرطة تبحث عنها وتقتفي أثرها، وعندما كادوا يلقون القبض عليها، فجرت نفسها لمحو جيدها وهويتها وتاريخها الشخصي، نهائياً. مجرد فرضية لعالم يقتله كذبه ونفاقه، وهو ضحية يقينه.

لوليتا كانت شيئاً آخر. لوليتا كانت ضحية لأصابعها. من الذي سماها ملاك النار القاسي؟ من الذي أعطاها هذا الشوق الغريب؟ من قربها من الحنين الذي لا يموت أبداً؟ من أعطاها صفة الغرابة وهو لا يعرف شيئاً عنها؟

في اللحظة نفسها دق التليفون للمرة الخامسة. ضغط مارينا للمرة الأولى على السماعة. عرف صوت صديقه إيتيان دافيد جيداً. فقد بدا واضحاً.

«سيد يونس مارينا. لا أدري إذا ما كنت قد سمعت رسائلي الصوتية السابقة أم لا. لا تتحرك من مكانك، أنت في خطر حقيقي. أرجوك ابق في غرفتك ولا تفتح الباب لأحد، حتى لوليتا. لا تعد إلى بيتك فهو مشمع بعد تعرضه لسرقة احترافية هذه المرة. يبدو أن اللوحة هي التي كانت المستهدفة. سرقت، لم نعثر لها على أثر. أكرر: لا تفتح غرفتك لأحد. حياتك في

خطر كبير. لا أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك الآن بالتليفون. سأصل بعد قليل.»

أغمض يونس مارينا عينيه للمرة الأخيرة على ظلام اللوحة التي لم يعد مهتماً برسامها، دولاتور أو مارشيلو، أو غيرهما؟ لا يهم. بها الروح الهاربة المنشغلة بخوف غامض. لا فرق بينها وبين تلك التي رآها بدقة في اللوفر إلا في تفصيل صغير. الإنارة كانت أقوى والمحيط المضاء كان أوسع. ثم أن الأصابع كانت تنام على ركبتها، ولم يكن أي أثر للجمجمة. فقط ليصدق أنه كان في عمق عتمة جحيم ملاك النار. مجرد كابوس انتابه من شدة التعب.

اللوحة. كانت ماجدالينا وراء قنديل الزيت. لماذا ماجدالينا وليس المجدلية؟

ضغط على الزر الأحمر لسماع بقية رسائله الصوتية:

«... آلو. ألو. معك دودي.F35 . أرجوك لا تفتح باب غرفتك لأحد ولا حتى لوليتا. اسمها الحقيقي نوة أو ملاك. وهي متابعة من طرف الإنتربول بسبب جريمة ارتكبتها في جاكرتا ضد أخيها الذي كان يتاجر في إندونيسيا في مكان والده الذي أصيب بشلل نصفي يمنعه من التنقل. اسمها في إندونيسيا ملاك. وهذه جريمتها الثانية. فقد سبق أن بينت تحرياتنا

أنها كانت وراء انتحار صديقها الأول آلان جيروم. الذي تسبب بحرق قصر الزجاج الخاص بعروض الموضة وكان أحد رموزها، الذي تملكه عائلة إمارة موناكو. هو في الجوهر عمل إرهابي. بعد جريمتها الثانية، هربت من إندونيسيا، وهي مكلفة بقتلك من طرف تنظيم مرتبط بجهة متطرفة عرفناها، وضعتك على رأس القائمة بسبب روايتك: عرش الشيطان. كانت تنتظر الإشارة فقط، ويبدو أنها أُعطيت لها.»

شعر يونس مارينا بوخز في القلب. سمع همساً يأتي من نفق بعيد يتخطى اللوحة بعيداً. من فم مريم المجدلية: يبدو أنه لا مرايا للمومسات. رؤية وجه غير وجهك في مرآتك الحميمة، لا يعذب فقط ولكنه يقتل بالتقسيط. لا شيء ينعكس على المرآة إلا الكتاب والنور الذي أضاء جزءاً جانبياً صغيراً منها، بينما ظل كل شيء يعوم في العتمة. اليد اليسرى على الخد، بينما أصابعها تصغي إلى أنين الحياة الكاذبة. أي سحر في ضوء يقاوم ليقوم ولتستمر شعلة الحياة؟ الكتابان الثقيلان على طاولتها، هما كتاب الأرض وكتاب الآخرة؟ ثم هذا الجسد الذي ينزل لباسه الخفيف ليبرز نهداً طفولياً ظل خفياً، نزل سهواً منها، ولم تكن تعرف أنها كلما أمعنت النظر في النور، نزل أكثر لتتقاتل حوله الشياطين والملائكة. الجسد هو فضاؤهما

المشترك. يشتهي الشياطين أن يظلوا في عمق الغواية، وتشتهي الملائكة أن تلمس جسداً لا تراه إلا في الغفوة أو اللغة وفي النور المعمي للأبصار.

عندما أطل يونس مارينا من جديد من أعالي الشرفة، كانت الحياة العادية قد عادت باستثناء مربع الأمان الذي ضاق قليلاً، حول أجزاء الجسد الهش، المترامية في أمكنة عديدة. كانت النار لاتزال تشتعل فيها. خيل له أنه رأى أصابعها الناعمة التي ارتفعت لتبعث له بقبلة هاربة. خمن أن تكون النار ودوي الانفجار قد فشلا في حرقها. ظل يبحث عنها بعينيه. بينما عادت حركة الناس على رصيفي الشانزيليزيه.

أجمل شوارع الدنيا...

اشتعلت الأضواء على كل أشجار الرصيف، فتلألأت مرة واحدة تحت تصفيق الناس وأفراحهم.

على شاشة التلفزيون، رأى شريطاً صغيراً أحمر، يرتسم أسفل القناة الإخبارية عليه: جريمة إرهابية في الشانزيليزي تنفذها امرأة.

« وقع قبل قليل عمل إرهابي في الشانزيليزيه، نفذته إرهابية. ويبدو أن الجانية شابة من الخلايا الإرهابية النائمة التي تحدث عنها برنار سكوارسيني المسؤول عن ملف الإرهاب

الضخم. كانت مكلفة بتفجير نفسها ضد كاتب سياسي لاجئ في بلادنا وضعته مصالح الأمن الداخلي تحت حمايتها. ونظراً لنباهة قوى الأمن، اضطرت الكاميكاز إلى الالتجاء إلى مقهى الفوكتس لتفجير نفسها، ولكن مطاردة الأمن منعتها من ذلك، مما اضطرها إلى الهرب، إلى الشارع ليضطر الهدف إلى تفجير نفسه قبل أن يلقى عليه القبض، أو يقتل. فُتِح تحقيق حول ملابسات القضية. »

استمر سقوط الثلج بكثافة، وازدادت الحركة أكثر كأن شيئاً لم يكن باستثناء المربع الصغير الذي كان الناس يقتربون منه، يتأملونه، ثم يمضون بعيداً نحو أمكنة الاحتفال.

تذكرها مرة أخرى. أحس كأنها كانت لاتزال بالحمام. سار وراءها يتشمم ما تبقى من عطرها. رأى ما كتبته على المرآة بأحمر الشفاه: «أريد أن أصنع معجزة: كيف أقفز إلى قلبك فقط لأطل عليك وأقول لك ياااااه لو تدري كم أحبك؟ اختطفني إلى مدنك لأختبئ في عينيك. لقد أصبتُ بعدواك ولم أعد قادرة على تفاديك. قلبك ينزل علي كمطر. سأركض العمر كله فقط لأراك وأحبك يا هبلي العظيم. مهبولة إلى آخر رمق». ثم وجد ورقة صغيرة ملصقة، بحيث لا يمكنه أن لا يراها. لا شيء فيها. بيضاء محاطة بثلاثة خطوط، بتدرجات بنفسجية.

كانت ورقتها الأخيرة التي تركتها له لكتابتها. تذكر كلماتها. سأغرقك بالقصاصات حتى تنصاع لي حباً وليس ضغطاً. ويوم أيأس منك، سأترك لك ورقة بيضاء عليك أن تملأها بنفسك. ستكون أول صفحة من رواية حبيبتك لوليتا وأصابعها التي كسرت في وقت مبكر.

طواها ثم وضعها في جيبه، وعاد إلى الشرفة.

رآها أمامه في بياضها اللذيذ وشالها الأحمر. شعر كأن كل ما يدور حوله ليس إلا كابوساً أو دواراً مفجعاً. رواية تعتمل في ذهنه وأن لا شيء فيها حقيقي أبداً. لم يستطع كتم ابتسامته. لكنه عندما نظر إلى الشارع، عاد إلى الحقيقة التي كانت تشبه خوفاً مضمراً منذ زمن طويل. زادت حركة الناس الذين ينتظرون بقناني الشمبانيا نهاية سنة، وبداية سنة أخرى أقل جحيمية من تلك التي مضت.

انطفأت النار التي اشتعلت طويلاً في أجزاء من جسد لوليتا. لكنها كانت هنا.

« في ٠١ يناير، أي الليلة، ستكون لوليتا قد أقفلت خمساً وعشرين سنة من عمر لم يكن سهلاً، ولكنها فضلت أن تبتره لأنها لم ترده أن يستمر أكثر.»

هي ذي لوليتا الخالدة التي كانت تسري في دمي. لوليتا

التي لم تكتمل بعد. لوليتا التي أستطيع اليوم أن ألمسها، أن أستنشقها، أن أسمعها وأراها.[١٧١]

رأى سيارة الشرطة المدنية وهي تتوقف بشكل جاف، مما جعل الماء يتطاير من تحت الأضواء وتحت عجلاتها، في كل الاتجاهات مشكلاً شلالات ضوئية منكسرة على ثلج الشارع ومياهه. عرف يونس مارينا قامة إيتيان دافيد وهو يقف عند مدخل نزل فوُكِتسْ– بَارْيِير، بين سيارتين كبيرتين، وحزام الشرطة، مسدسه في يده ومعاونوه محاطون به. بينما ظلت أضواء جيروفار السيارة تدور في مكانها، مخلفة وراءها ظلالاً وألواناً هاربة في كل الاتجاهات، تحت انكسارات الضوء التي امتدت إلى كل الأمكنة. نزل من السيارة الثانية، ثلاثة أشخاص بلباس مدني، عيونهم تتراقص في كل الاتجاهات، عرف الشابة الشقراء التي كانت عيناها تتراقصان في كل الاتجاهات. ماري التي رآها في المخفر، تنفعل بكثرة ولا موضوع لها إلا اللائكية وضرورة انصياع المسلمين للقانون الفرنسي، وجان دارك. تمنى أن يرى ربيكا معهم، لكنها لم تكن موجودة.

رفع إيتيان دافيد رأسه نحو شرفة نزل فوُكِتسْ– بَارْيِير. رقصت عيناه فرحاً عندما رأى يونس مارينا في الشرفة، قبل

---

١٧١ Lolita 105-106.

أن يندفن هذا الأخير في الداخل ويغلق الزجاج الثقيل للنافذة الواسعة من شدة البرد.

قبل أن يركض الجميع نحو العبث، رأى للمرة الأخيرة موجات الثلج التي عادت بقوة كبيرة لدرجة أنها غطت كل شيء بما في ذلك بقايا جسد لوليتا الطفولي الذي أذابته الحرائق. وكست الثلوج أجمل شارع في الدنيا بغلاف أبيض، من حرير شفاف، كانت تظهر من ورائه في شكل ظلال هاربة، أوجه الناس وحركاتهم المتقاطعة مع أضواء الأشجار وأناشيد الميلاد وصوت أجراس الكنائس التي كانت تأتي من بعيد. من بعيد. من حفرة مريم ماجدالينا الذي انعكس تحت شعاع الشمعة اليتيمة، رأى ظل لوليتا من وراء لباسها الشفاف الذي مال قليلاً من جهة الكتف الأيمن، قبل أن يرتسم كاملاً على لوحة توبة مريم المجدلية، التي وجد نفسه داخلها يفتش عما تبقى من جسد مبهم كسر مثل القوس في وقت مبكر من عمره، لأنه شُدَّ عليه بقوة. فجأة ارتسمت في ذهنه كلمات إيفا الأخيرة وهي ملتصقة ببياض الحائط البارد:

– «... أنا مثل أية امرأة عادية تعرف بحكم التجربة وحاسة شمها الحادة، من يريد سرقة مساحتها الخاصة. أخاف عليك من لوليتا. تفاداها حبيبي. أنت لا تعرف هذا النوع من النساء.

يمكن أن تكون امرأة الأقدار القاتلة The fatal women »

الخوف علم حواسه فهم أسرار حركة الأصوات الخفية. سمع المصعد للمرة الأخيرة. تأكد من أنه كان ينزل من الطوابق العليا ولم يكن يصعد. انتظر قليلاً. انفتح باب المصعد ولم يسمعه حينما انغلق وكأنه أوقف في مكانه حتى لا ينزل. سمع بعض الخطوات. دققها بحواسه. كانت لرجلين. ثم لرجل واحد. ثم... توقفت عند باب غرفته. انتظر لثوان. بدا له كأنه يسمع تنهدات متقطعة. تحرك مقبض الباب قليلاً في هدوء كبير محدثاً غزغزة خفيفة. تعوّد منذ زمن بعيد على أن يغلق الباب وراءه كلما دخل إلى بيته. وجوده في نزل فوُكِتسْ-بَارْيِير، فندق خمسة نجوم، لم يمنعه من فعل ذلك آلياً، عندما تذكر أن الباب ظل مفتوحاً منذ خروج لوليتا التي لم تغلقه على غير عادتها. ثم سمع دقاً على الباب لم يدم طويلاً. ثلاث دقات متتالية مصحوبة بتنهدات غير منتظمة. ثم ثلاث دقات أخرى مثلما يفعل عادة إتيان دافيد لمزيد من الحيطة. انتظر الصوت. أتاه بسرعة.

- افتح الباب بسرعة من فضلك. الشرطة.

مد يده إلى مقبض الباب. ثم غفا قليلاً. عاد الصوت من جديد:

– افتح الباب بسرعة من فضلك. الشرطة.

كان الصوت أكثر نعومة من صوت إيتيان دافيد. ولم يكن صوت امرأة.

لم يتذكر شيئاً سوى كلمات لوليتا، في ليلتهما الطفولية الأولى. سمع صوتها يأتي ناعماً وواضحاً.

– أنا مثل امرأة لوحتك.

– كيف؟

– عين على كتاب الحياة، ويد على زرّ الموت. الجمجمة.

– ومع ذلك لا شيء يعوض الحياة. تستحقينها بامتياز.

– لهذا لم تلمسني مع أني كنت بين يديك؟ أم خفت أن أكون مجرد طعم؟

– طعم؟ مع منْ وضد منْ؟ طعم مثل هذا أشتهيه برغبتي. في هذه الحالة سأكون الفأر الذي يستلذ بالفخ الذي يوضع في طريقه. كنت أقول فقط إن الحياة تستحق أن تعاش.

أغمض يونس مارينا عينيه ثم، انطفأ على الصوت الذي خفّت نعومته، لكنه لم يكن صوت إيتيان دافيد. كان بارداً كقطعة جليد وبه رائحة لم يعرفها من قبل. حاول أن يتذكر ولكن مخه انغلق نهائياً.

عاد الصوت نفسه بقوة أسكنت فيه رجفة لم يحس بها إلا

مرة واحدة، عندما سمع بحزن، قصة عمي أحمد الشايب الذي أذيب جسده في محلول الحامض.

- افتح الباب يا حميد السويرتي.

علته رجفة أخيرة وحمّى باردة.

لأول مرة يقتنع بأن للموت رائحة. رائحة ليست ككل الروائح.

باريس- الجزائر- تونس، شتاء ٢٠١٢

الروائي الجزائري واسيني الأعرج

كاتب وناقد مصري

- مواليد ٨-٨-١٩٥٤ بتلمسان، الجزائر.
- بروفيسور بجامعة السوربون، باريس، وجامعة الجزائر المركزية.
- أدار اتحاد الكتاب الجزائريين من سنة ١٩٩٠ إلى سنة ١٩٩٤ كنائب للرئيس وكمؤسس و مشرف على مجلة الاتحاد: المساءلة.
- عضو مؤسس لجمعية الجاحظية، الثقافية والأدبية، في الجزائر.
- أشرف على إصدار السلسلة الأدبية «أصوات الراهن» باتحاد الكتاب الجزائريين والتي تهتم بالتجربة الأدبية الشابة في الجزائر.
- ساهم ويساهم في العديد من الندوات العربية و العالمية المتعلقة بموضوعات الكتابة، وظيفة الكاتب، السرد، تحديات الفكر العربي، العولمة و الثقافة، المثاقفة، الحداثة، الأنا والآخر، وغيرها من موضوعات العصر في بلدان عربية وأجنبية كثيرة: (الجزائر، المغرب، تونس، مصر، ليبيا، سوريا، لبنان، الأردن، السعودية، الكويت، الإمارات العربية، البحرين، إيطاليا، فرنسا، هولندا، الولايات المتحدة، إسبانيا، بريطانيا، بلجيكا، سويسرا و غيرها...)
- أعد وأنتج حصة أهل الكتاب Ahl el kitab التلفزيونية التي تهتم بوضعية الكتاب و المقروئية في الجزائر والوطن العربي والتي بثت في التليفزيون الجزائري من سنة ١٩٩٨ إلى ٢٠٠٢.
- أنتج سلسلة الديوان Diwan التلفزيونية والتي تحاول أن تنجز أنطولوجيا مرئية عن الكتاب الجزائريين والعرب، منذ بداية القرن العشرين. وقد تم إنجاز أكثر من عشرين شريطاً وثائقياً مطولاً حول أهم الكتاب.
- أنجز ثلاثية تلفزيونية وثائقية حول تاريخ النخب الثقافية في الجزائر (٢٠٠٤-٢٠٠٥).
- ترأس لجنة التحكيم للمسرح المحترف، الجزائر ٢٠٠٧.

• ترأس اللجنة العلمية للمسرح المحترف: فلسطين في المسرح، ٢٠٠٩
• عضو في الهيئة الاستشارية لجائزة الشيخ زايد للكتاب من ٢٠٠٧-٢٠١٠.

١- الأعمال الروائية:

• البوابة الزرقاء (وقائع من أوجاع رجل)، دمشق ١٩٨٠، الجزائر ١٩٨٢.
• وقع الأحذية الخشنة، قصة مطولة، ١٩٨١.
• ما تبقى من سيرة لخضر حمروش، دمشق ١٩٨٢.
• نوار اللوز، بيروت ١٩٨٣، الجزائر ١٩٨٦ و ٢٠٠١. ترجمت إلى العديد من اللغات.
• أحلام مريم الوديعة، بيروت ١٩٨٤، الجزائر ١٩٨٧ و ٢٠٠١.
• ضمير الغائب، دمشق ١٩٩٠ و الجزائر ٢٠٠١. ترجمت إلى الفرنسية.
• الليلة السابعة بعد الألف: رمل الماية، دمشق و الجزائر ١٩٩٣. ترجمت إلى الفرنسية.
• الليلة السابعة بعد الألف: المخطوطة الشرقية، دمشق ٢٠٠٢.
• سيدة المقام، ألمانيا ١٩٩٥ و الجزائر ١٩٩٧ و ٢٠٠١. ترجمت إلى الفرنسية وغيرها.
• حارسة الظلال، دار مارسا & إيدن، باريس ١٩٩٦. صدرت بالفرنسية ثم بلغات أخرى.
• ذاكرة الماء، ألمانيا ١٩٩٧ والجزائر ١٩٩٩ و ٢٠٠١. ترجمت إلى الفرنسية والإيطالية.
• مرايا الضرير، باريس ١٩٩٨ بالنسبة للطبعة الفرنسية.
• شرفات بحر الشمال، بيروت والجزائر ٢٠٠١. ترجمت إلى الفرنسية وغيرها.
• طوق الياسمين، المركز الثقافي العربي، الرباط وبيروت ٢٠٠٤.
• كتاب الأمير، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٥، صدرت بالعربية ولغات أخرى.

- سوناتا لأشباح القدس، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٨ ترجمت إلى الفرنسية وغيرها
- أنثى السراب، دبي الثقافية، ٢٠٠٩، دار الآداب ٢٠١٠.
- البيت الأندلسي، دار الجمل، بيروت ٢٠١٠. ترجمت إلى الفرنسية و غيرها
- جملكية آرابيا، دار الجمل، بيروت ٢٠١١.
- أصابع لوليتا، دبي الثقافية، مارس ٢٠١٢.
- الأعمال الكاملة، تسعة أجزاء، وزارة الثقافة، الجزائر ٢٠١٠
- رماد مريم، فصول مختارة من السيرة الروائية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠١٢

٢- الدراسات الأدبية والنقدية

- اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ١٩٨٦.
- النزعة الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية، دمشق ١٩٨٧.
- الجذور التاريخية للواقعية في الرواية، بيروت ١٩٨٨.
- أتوبيوغرافيا الرواية، سلسلة دراسات، بيروت ١٩٩٠.
- ديوان الحداثة، في النص الشعري العربي. اتحاد الكتاب الجزائريين ١٩٩٣.
- الشعر الجزائري، طبعة فنية فاخرة، مزدوجة اللغة، خاصة بسنة الجزائر بفرنسا قام بتخطيطها الفنان الكبير: رشيد قريشي.
- مجمع النصوص الغائبة (انطولوجيا الرواية الجزائرية)، المؤسسة الوطنية للطباعة للإشهار، الجزائر ٢٠٠٨.
- على خطى سرفانتس في الجزائر طبعة فاخرة، صدرت في إطار الجزائر عاصمة عربية للثقافة. ٢٠٠٧-٢٠٠٨.

الجوائز الأدبية العربية

١- الجائزة التقديرية الكبرى الممنوحة من طرف رئيس الجمهورية، سنة ١٩٨٩.

٢- جائزة الرواية الجزائرية، سنة ٢٠٠١.

٣- جائزة التلفزيون الأولى للحصص الثقافية الخاصة، عن البرنامج الثقافي التلفزيوني: أهل الكتاب سنة ٢٠٠١.

٤- جائزة قطر العالمية للرواية عن روايته: سراب الشرق. (٢٠٠٥)

٥- جائزة المكتبيين الجزائريين عن روايته: كتاب الأمير. (٢٠٠٦)

٦- جائزة الشيخ زايد للآداب، عن روايته: كتاب الأمير. (٢٠٠٧)

٧- الكتاب الذهبي في المعرض الدولي للكتاب، عن روايته: سوناتا لأشباح القدس (٢٠٠٨)

٨- جائزة أفضل رواية لسنة ٢٠١٠ بحسب التقويم الإعلامي والصحفي الجزائري عن روايته: البيت الأندلسي.

كتاب «دبي الثقافية»
سلسلة دورية تصدر عن
مجلة دبي الثقافية

١- «نجيب محفوظ.. قيصر الرواية العربية» - ١٩٩٩.

٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠.

٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١.

٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١.

٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢.

٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢.

٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢.

٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢.

٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣.

١٠- «السماء تخبّئ أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للشاعر المصري بشير رفعت - ٢٠٠٤.

١١- «تيار هـواء» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتبة المغربية حنان درقاوي - ٢٠٠٤.

١٢- «الانكسار» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتب السوري عامر الدبك - ٢٠٠٤.

١٣- «البار الأمريكي» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.

١٤- «إلى الأبد.. و... يوم» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب السوري عادل محمود.

١٥- «قمر أور» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للشاعر العراقي عامر عاصي جبار..

١٦- «مقالات رجاء النقاش» في «دبي الثقافية» - ٢٠٠٨.

١٧- «ليس الماء وحده جواباً عن العطش» - أدونيس - أكتوبر ٢٠٠٨

١٨- «قصيدة النثر أو القصيدة الخرساء» - أحمد عبدالمعطي حجازي - نوفمبر - ٢٠٠٨

١٩- «مدارات في الثقافة والأدب» - عبد العزيز المقالح - ديسمبر - ٢٠٠٨

٢٠ - «من أنت أيها الملاك» - إبراهيم الكوني - يناير - ٢٠٠٩

٢١- «النقد الأدبي والهوية الثقافية» جابر عصفور- فبراير - ٢٠٠٩

٢٢- «قصائد من شعراء جائزة نوبل» اختارها وترجمها د.شهاب غانم - مارس- ٢٠٠٩

٢٣- «الأغاريد والعناقيد» - سيف محمد المري - أبريل - ٢٠٠٩

٢٤- «روايــة الحــرب اللبنانيــة.. مدخل ونماذج» - عبده وازن - مايو- ٢٠٠٩

٢٥- «هنا بغداد» - كريم العراقي - يونيو - ٢٠٠٩

٢٦- «أراجيح تغنّي للأطفال» - سليمان العيسى - يوليو - ٢٠٠٩

٢٧- «الحضارات الأولى - الأصول.. والأساطير» - تأليف/ غلين دانيال، ترجمة/ سعيد الغانمي - أغسطس - ٢٠٠٩

٢٨- «محمود درويش حالة شعرية» - صلاح فضل - سبتمبر - ٢٠٠٩

٢٩- «أنثى السراب (سْكْرِيبْتُورْيُومْ)» - واسيني الاعرج - أكتوبر - ٢٠٠٩

٣٠- «حيثُ السحَرة ينادون بعضهَم بأسماء مُستعارة» - سيف الرحبي - نوفمبر - ٢٠٠٩

٣١- «في غيبوبة الذكرى» (دراسات في قصيدة الحداثة) - د. حاتم الصكر - ديسمبر - ٢٠٠٩

٣٢- «وليم شكسبير (سونيتات)» - د. كمال أبو ديب - يناير - ٢٠١٠

٣٣- «العمارة الإسلامية (من الصين إلى الأندلس)» - د. خالد عزب - فبراير - ٢٠١٠

٣٤ - «نحو وعي ثقافي جديد» - د. عبد السلام المسدّي - مارس - ٢٠١٠

٣٥ - «لكي ترسم صورة طائر وقصائد أخرى من الشرق والغرب» - اختارها وترجمها د. شهاب غانم - أبريل - ٢٠١٠

٣٦ - «السرْد والكِتاب» - محمد خضيّر - مايو - ٢٠١٠

٣٧ - «طائر الشعر» - سالم الزمر - يونيو - ٢٠١٠

٣٨ - «أنا والسوريالية» - ترجمة: أشرف أبو اليزيد - يوليو - ٢٠١٠

٣٩ - «الحراك الاجتماعي الكويتي في القصة القصيرة»- د. فاطمة يوسف العلي- أغسطس - ٢٠١٠

٤٠ - «فضاءٌ لغبار الطّلع»- أدونيس- سبتمبر - ٢٠١٠

٤١ - «حجر السرائر»- نبيل سليمان - أكتوبر - ٢٠١٠

٤٢ - «حَبَّات و محَبَّات» - المنصف المزغني - نوفمبر - ٢٠١٠

٤٣ - «الخطاب الشعري الحديث في الإمارات» - (الجزء الأول) - د. صالح هويدي - ديسمبر - ٢٠١٠

٤٤ -«بابل الشعر» - أحمد عبدالمعطي حجازي - يناير ٢٠١١

٤٥ -«مرايا النخل والصحراء» - د.عبد العزيز المقالح - فبراير ٢٠١١

٤٦ -«رغبات منتصف الحبّ» - زاهي وهبي - مارس ٢٠١١

٤٧ -«المحكمة» - كريم العراقي - مارس ٢٠١١

٤٨ -«منفى اللغة» - (حوارات مع الأدباء الفرانكوفونيين) - شاكر نوري - أبريل ٢٠١١

٤٩ -«الرواية العربية ورهان التجدد» - د. محمد برادة - مايو ٢٠١١

٥٠ -«مئة قصيدة وقصيدة» - د. شهاب غانم - يونيو ٢٠١١

٥١ -«حُلمٌ حقيقي» - محمود الريماوي - يوليو ٢٠١١

٥٢ -«قصائد في الذاكرة» - قراءات استعادية لنصوص شعرية - د.حاتم الصكر - أغسطس ٢٠١١

٥٣ -«جنوب غرب طروادة، جنوب شرق قرطاجة» - إبراهيم الكوني - سبتمبر ٢٠١١

٥٤ -«الفاتنــــة» - جمال بن حويرب - أكتوبر ٢٠١١

٥٥ -«الرواية والاستنارة» - د. جابر عصفور - نوفمبر ٢٠١١

٥٦ -«دونَ أنْ أرتَوي» - (قصائد مختارة) - خُلود المُعلا - ديسمبر ٢٠١١

٥٧ -«في الشعر الإفريقي المعاصر» - (جيل الرواد نموذجاً) - تقديم وترجمة د. حسن الغُرفي - يناير ٢٠١٢

٥٨ -«ينام على الشجر الأخضر الطير» - محمّد علي شمس الدين - فبراير ٢٠١٢

٥٩ -«أَصَابِعُ لُولِيتَا» - واسيني الأعرج - مارس ٢٠١٢

ملاحظة:

سلسلة كتاب «دبي الثقافية» كانت تصدر أولاً تحت اسم كتاب «الصدى» ثم أصدر رئيس التحرير الأستاذ سيف المري قراراً بتغيير اسم السلسلة بعد صدور مجلة «دبي الثقافية» في مطلع أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٤؛ ليصبح اسمها «كتاب دبي الثقافية».

المحتويات

لعل وجود قامة إبداعية بحجم الأستاذ واسيني الأعـرج ومـن في مستواه مـن الكتاب الـعرب ضمن كوكبة كتابها لهو خير دليل على نجاح المجلة، التي تتواصل معكم أيـهـا الـقـراء الأعــزاء بصفة دائمة ومستمرة، ولكاتبنا الكبير سجل حـافـل بـالـمـشـاركـات الإبـداعـيـة والثقافية والتعليمية سواءً لكونه بروفيسوراً جامعياً، أو لما خطته أنامله من أعمال روائية دخلت من «البوابة الـزرقـاء» في دمشق عام ١٩٨٠، ثم نوار اللوز من بيروت عام ١٩٨٣، مروراً بأحلام مريم وضمير الغائب وانتهاء بأصابع لوليتا هذه الرواية التي بين أيديكم باعتبارها آخر ما أبدعه كاتبنا.

سيف المري

كتاب دبي الثقافية

59

يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار

الصدى

للصحافة والنشر والتوزيع